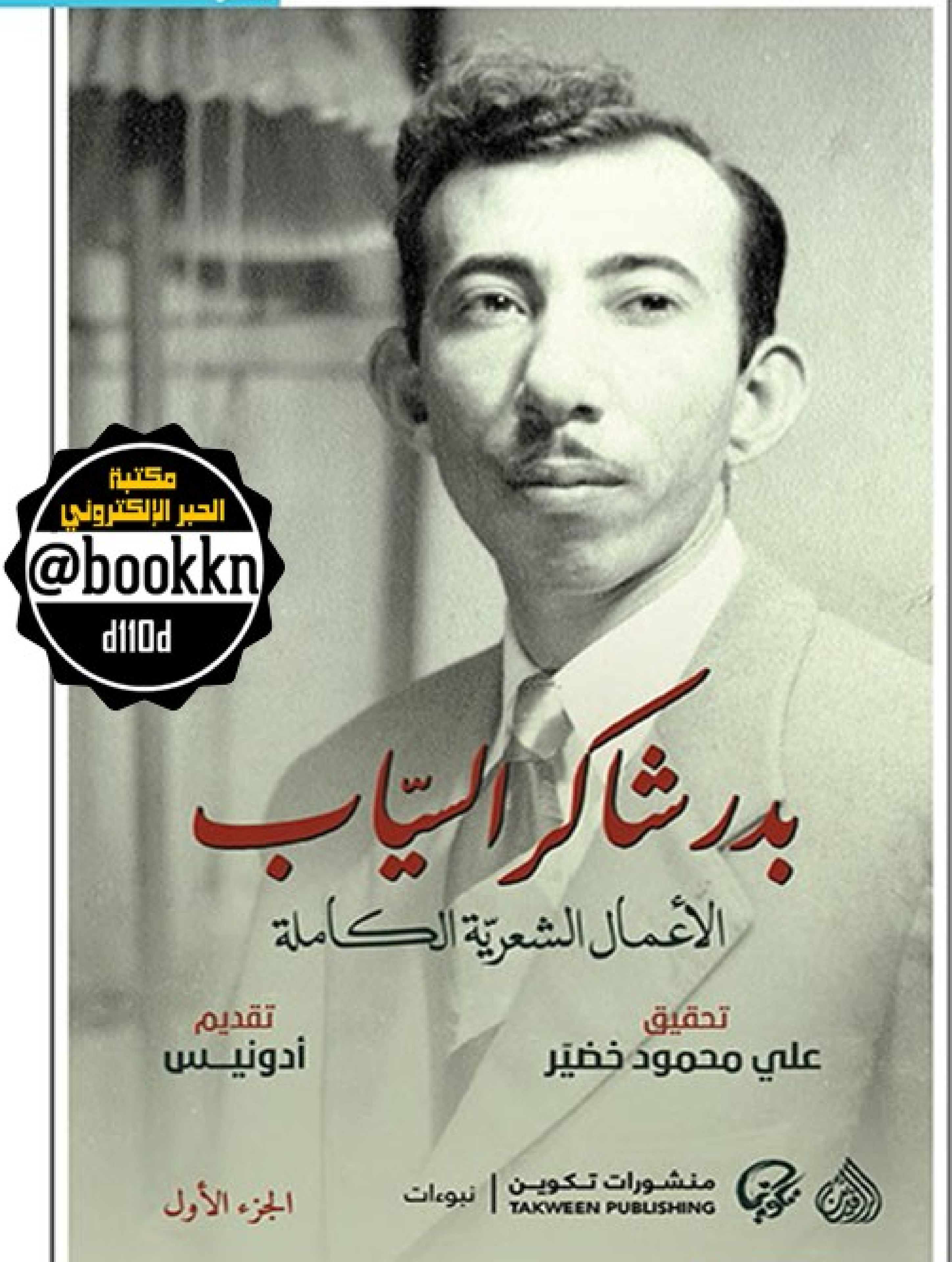
شعر



بدر شاكر السيّاب

الأعمال الشعريّة الكاملة

تحقيق
علي محمود خضيّر

تقديم
أدونيس

منشورات تكوين | نبوءات
TAKWEEN PUBLISHING

الجزء الأول

بدر شاكر السيّاب

الأعمال الشعريّة الكاملة

بدر شاكر السياب

الأعمال الشعريّة الكاملة

تحقيق: علي محمود خضيّر

تقديم: أدونيس

Complete Poet Works For Bader Shakir Al-Sayyab

By Bader Shakir Al-Sayyab

الطبعة الأولى: ديسمبر - كانون الأول، 2020 (2000 نسخة)

الطبعة الثانية: مايو - أيّار، 2021 (2000 نسخة)



لبنان ـ بيروت / الحمرا
تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+
بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي
تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
@daralrafidain



منشورات تكوين للنشر والتوزيع
الكويت ـ الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 96598810440 +
بغداد ـ شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 9647811005860 +
الموقع الالكتروني:
www.takweeen.com
البريد الالكتروني:
Publishing@takweeen.com

ISBN: 978- 9922 - 634 - 82 - 1

بدر شاكر السيّاب
الأعمال الشعريّة الكاملة

الجزء الأوّل

تحقيق
علي محمود خضيّر

تقديم
أدونيس





الفهرس

أنشودة المطر، آفاق المعنى 11

ينبُوع لا مرئي 21

أزهارٌ ذابلة (1947) 37

إشارة 39

ديوان شعر 40

يا هواي البكر 43

لو أراها 46

بعد اللقاء 49

نشيدُ اللقاء 53

لحنٌ جديد 61

حبٌّ يموت 63

ما مات حبّي 66

اسم «لباب» 67

زهرةٌ ذاوية 69

نهر العذارى 70

المحبوبة المدنسة 74

في يوم عابس 76

خواطرٌ حائرة 78

مريضة في الربيع 81

في أخريات الربيع 84

أمنيات 86

أقداح وأحلام 89

عاشقُ الوهم 95

اللقاءُ الشاحب 97

عينان 101

هل كانَ حبّاً 103

السائلةُ السوداء 107

حاطم الأغلال 110

أهواء... 114

أساطير (1950) 127

إشارة 129

أزهار وأساطير (1963) 131

إشارة 133

في السّوق القديم 135

اللقاءُ الأخير 143

أساطير 147

اتبعيني 152

رئةٌ تتمزّق 156

سوفَ أمضي 160

هوى واحد 162

أهواء 165

لن نفترق 172

سراب 174

وداع 176

لا تزيديه لوعة 178

عبير 180

عينان زرقاوان 181

في ليالي الخريف 183

أغنيةٌ قديمة 187

سِتار 191

سجين 194

ذكرى لقاء 197

ملال 200

نهاية 202

في القرية الظلماء 206

لقاءٌ.. ولقاء 209

هل كانَ حُبّاً 212

الموعدُ الثّالث 214

ديوان شعر 216

نهرُ العذارى 218

223

مُلْحَقٌ بقصائد مُستثناة من «أساطير»

يا ليالي 225

خطابٌ إلى يزيد 231

إلى حسناءِ القصر 234

أنشودة المَطر (1960) 241

إشارة 243

غريبٌ على الخليج 244

مرحى غيلان 250

أغنيةٌ في شهر آب 254

غارسيا لوركا 260

تعتيم 262

المخبر 264

عرسٌ في القرية 269

مرثيّة الآلهَة 274

من رؤيا فوكاي 278

قافلةُ الضياع 288

يومُ الطغاةِ الأخير	295
إلى جميلة بوحيرد	298
رسالةٌ مِن مقبرة	307
في المغرب العربيّ	311
مرثيّةُ جيكور	319
تمّوز جيكور	324
جَيكور والمدينة	328
العودة لجيكور	333
رؤيا في عام 1956	341
قارئ الدّم	354
ثعلبُ الموت	358
المبغى	360
النهر والموت	364
المسيح بعد الصّلب	367
مدينةُ السندباد	372
أنشودة المطر	381

سربروس في بابل 388

مدينةٌ بلا مطر 392

بور سعيد 398

المومس العمياء 411

حفّار القبور 441

الأسلحة والأطفال 456

المَعبَدُ الغريق (1962) 483

إشارة 485

شبّاك وفيقة (1) 486

شبّاك وفيقة (2) 490

حدائقُ وفيقة 494

أمُّ البرُوم 500

أمام باب الله 505

الغيمةُ الغريبة 510

دارُ جَدّي 513

حنينٌ في روما 518

الأمّ والطفلة الضائعة	522
النبوءةُ الزائفة	526
مدينةُ السراب	529
نبوءةٌ ورؤيا	531
ذهبت	534
يا نهر	536
صياحُ البطّ البريّ	539
المعبدُ الغريق	542
أفياء جيكور	551
الشاعرُ الرجيم	556
لأنّي غريب	560
ابن الشهيد	562
فرار عام 1953	566
جيكور شابت	569
احتراق	573
سهر	575

ملاحظة

- تردُ هوامش الكتاب على ثلاث صيغٍ تبعاً لمصدرها:

(ش): وتعني أن الهامش من وضع الشّاعر.

(م): وتخص هوامش محقق الطبعة الجديدة.

(المحقق): وتخص هوامش وضعها محققو القصيدة وقتَ نشرها الأوّل.

أنشودة المطر، آفاق المعنى

- 1 -

كانت بيننا، بدر شاكر السّيّاب وأنا، صداقةٌ شعريّةٌ متينة، قبل أن نلتقي في بيروت، بدعوةٍ من مجلّة «شعر». كنت قد أشرفتُ شخصيّاً، برغبةٍ منه، على نشر مجموعته «أنشودة المطر»، بعد أن قمتُ باختيار قصائدها، تلبيةً لرغبته أيضاً. وبعد رحيله الباكر الفاجع، طلب إليَّ الصّديق الرّاحِل الدكتور سهيل إدريس أن أُهيىء له مُختارات من شعره، ومقدِّمة لها، نشرَها في «دار الآداب» تحيّةً له، واحتفاءً بشعره.

- 2 -

التَقَينا، بدر شاكر السّيّاب وأنا، في مرحلةٍ تاريخيّة، شديدة الالتباس، سياسيّاً وثقافيّاً. كلُّ كلام على الشعر، في مَعْزِلٍ عن هذه الالتباسات، لن يكون إلاّ التباساً آخر.

ثقافيّاً، كانت هذه المرحلة تنهض، بخاصّةٍ في جانبها الشّعريّ، على إعادة نظَرٍ جَذريّةٍ في النِّظام الموسيقيّ القائم على الأوزان التي وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي. وكان ذلك يعني إعادة نظَرٍ في عالَمٍ غنيٍّ عريقٍ وراسِخٍ من المفهومات والقيَم الفنّيّة - الشعريّة، وعياً وتَذَوُّقاً، فَهماً وتَقْويماً.

أمّا سياسيّاً، فكانت تنهض على دَعاوى إيديولوجيّة في النّهوض بالحياة العربيّة، وبنائها على أسُسٍ «تقدُّميّة».

غير أنّ الممارَسات الحيّة والأقوالَ والكتابات التي كانت ترافقها، كانت تكشف لذوي البصيرة أنّها تتضمّن، في الفهم والرّؤية، بذورَ الفشَل في إمكان الوصول إلى بناء مجتمعاتٍ عربيّة ديمقراطيّة مَدَنِيّة، تقوم على احترام حقوق الإنسان وحرّيّاته، في مَعْزِلٍ كاملٍ عن الانتماءات الدّينيّة،

والعرقيّة. وهو ما كشَفَ لهم أيضاً استحالةَ التّقَدُّم العربيّ، بالمعنى الحقيقيّ للتقدُّم، ما دامت أسُس الحياة والفكر والقيَم والعلاقات في القرن السّادِس، لا تزال مُهَيْمِنةً وقائدةً حتّى اليوم.

شخصيّاً كانت الحياة العربيّة بالنّسبة إليّ، وهذا ما يراه القارىء في كتاباتي كلّها، شعراً ونثراً، تبدو أنّها كمثل كرةٍ تتدحرج في اتّجاه الهاوية.

وهذا ما كنّا، السيّاب وأنا، نتناقشُ فيه - خصوصاً أنّه عاش هو نفسُه في العراق تجربة إيديولوجيّة مريرة. وكنّا نشدِّد في نقاشِنا على غياب التّأمُّل في تاريخيّة الثّقافة العربية، وفي المُشكلات التي أخذت تواجهها منذ منتَصَف القرن العشرين المُنصرِم، وتحديداً منذ الانقلاب العراقيّ على النِّظام المَلَكيّ. كان غياباً يُحَوِّل هذه الثّقافة إلى سلسلةٍ متقطِّعةٍ مُنحصرةٍ في الأحداث المتقطِّعة. وهو إلى ذلك، يُغَيِّب «أصول» الأحداث. يُغيِّب الماضيَ - الجَذرَ، وإذا غاب الماضي عن الرّؤية والفهم، لا يعود الحاضر إلاّ لحظةً عالقة في الفراغ. ومهما كان فهمُ اللحظة بارِعاً وذكيّاً، فإنّه يظلُّ جزئيّاً وعابراً.

هذا الغياب هو نفسه مُشكِلةٌ ثقافيّة، ذلك أنّه كان يتواصلُ ويتَّسِع، على الرّغم من التّغَيُّرات «الشّكليّة» الضّخمة التي تمّت في السنوات الخمسين الأخيرة - على صعيد الأنظمة، والحروب العربية - العربيّة، وعلى صعيد العلاقات بين العرب والعالم.

كانت التغيّرات جديرةً بأن تُخرِجَ الفكر العربيّ، والشّعر، على الأخصّ، من سياقِهما «الثابت» الذي كاد «ثبوتُه» أن يتحوّل إلى «سُبات».

فبدلاً من أن تتحوَّل حركة الثّقافة إلى حركةٍ نَقْديّة شاملةٍ وجذريّة، لا للسياسات وحدَها، وإنّما كذلك للأسُس التّاريخيّة والفكريّة التي تنتمي إليها وتصدر عنها، استمرّت وتستمرّ، على العكس، في سياقها التّقليديّ: تعالِج الظّاهِرَ السياسيّ المُباشِر، بغضبٍ على الآخر، ورضىً على الذات. أو تعالجه بنوع من التسويغ تجد أسبابه في «التاريخ» أو «المرحلة». أو تعالجه بوصفه حَدَثاً خاصّاً يمكن التّغلُّب عليه والإفادة منه، لاحِقاً. هكذا كانت «قضايانا» السياسية - الثقافيّة تبدو كمثل صُوَرٍ لا تكاد تظهر على شاشة حاضرنا، حتى تختفيَ ويأخذها النّسيان. وتبدو الحركة الفكرية العربيّة، في هذا كلّه، عبرَ وسائل الإعلام -- كأنّها معملٌ هائلٌ لـ «دِفاعٍ» لا قيمة له، و«تسويغٍ» لا طائلَ وراءه،

و«استنسابٍ» باطِلٍ. وقد لعب معظمُ الشّعراء ونقّادِ الشعر، في هذه التّغيّرات، دوراً إيديولوجيّاً بائساً وعقيماً.

هناك ما هو أشدُّ خطورةً.

ففي هذه السّنوات الخمسين الأخيرة، تحوَّلَت العلاقة بين المُواطِن العربيّ والسّلطة. فأصبحت مسألةً «أمْنيّةً» في المَقام الأوّل. خصوصاً أنّ مشكلات المواطنين، في كثير من البلدان العربية، لم تعُدْ تُحَلُّ في إطار القانون، بقدر ما أصبحت تُحَلُّ في إطار الحزبيّة والانتماء. أُلغِيَت سلطةُ الدّولة، وحلَّت محلَّها سلطةُ الحزب والنّظام. وحلَّت الانتمائيّة الحزبيّة محلّ المُواطنيّة.

تِبعاً لذلك، صارت الثّقافة التي تؤسِّس لها السّلطة، ثقافةَ

«أمْنٍ» في المَقام الأوّل. صار الهاجِسُ الأوّل للسّلطة هو أن

«تحميَ» نفسَها حمايةً كاملة، وبمختلف الوسائل، من «عدوان»

المُواطِن. تقابلها عند المواطِن «ثقافةُ الاحتماء» من عدوان

السّلطة، سواءٌ بالصّمت، أو الانعزال والبُعد عن السياسة، أو بالنّفاق والتّزَلُّف، بشكلٍ أو آخر، قليلاً أو كثيراً.

- 3 -

ماذا نكتب في مثل هذه المرحلة؟ كيف نكتب؟ ما هذا الماضي الذي يقود حاضرَنا؟ كانت هذه الأسئلة تَشغلُنا، بدر شاكر السيّاب وأنا فيما وراء تغيّر أشكال التعبير وظهور ما سمّيناه، اصطلاحاً، «قصيدة النّثر». إنّها أسئلة ترتبط عضويّاً بالكينونة والمصير، غير أنّها بالنّسبة إلى الشعراء العرب، في معظمهم، كانت مجرّدَ أسئلةٍ إيديولوجيّةٍ، سياسيّة، سلطَويّة - كأنّها كانت تُضمِر القَوْل: نُغيّر السّلطةَ ونُحِلُّ محلّها سلطةً أخرى تُغَيِّر كلَّ شيء.

هكذا تَناقَضْنا وتَصارَعنا، وقتَلَ بعضُنا بَعضاً - في جميع الميادين السّياسيّة والثّقافيّة والاجتماعيّة. وهي معارك وصلَت أحياناً إلى أن تكون نوعاً من المَجازِر والإبادات. وها هي لا تزال تتواصل، بشكلٍ أو آخر من المحيط إلى الخليج.

كنت أقول ولا أزال أقول إنّ السّلطةَ نتيجةٌ. تغييرُ السّلطة مع حجب أسبابها، لا يغيّر الحياة ولا المجتمع ولا الثقافة. يغيّرُ سجناً عتيقاً ويُحِلُّ محلّه سجناً آخر جديداً. تشهد على ذلك أحوالُ السلطة الغاشمة التي تغيّرت منذ خمسينيات القرن العشرين المُنْصَرِم، وها هي أسبابها تزداد رسوخاً، وها هي المجتمعات العربية، تزداد تآكُلاً وفقراً، جهلاً وتخلُّفاً.

بدر شاكر السّيّاب بين الشعراء العرب القلّة الذين كانوا يربطون بين الشعر والكينونة ـ في حَدسه الأساس الذي تجلّى في قصائد كمثل «أنشودة المطر» و«المسيح بعد الصّلب» و«النّهر والموت»، تمثيلاً لا حَصراً ـ علماً أنّه أمضى جزءاً من حياته الشعريّة تحت وَطْأة المناسبة سياسيّاً وثقافيّاً.

مع ذلك، يظلّ شاعراً مؤسِّساً.

بلى أزعم أنّ في تراب السّيّاب، ذهباً فريداً مشِعّاً وخلاّقاً.

أزعم أيضاً أنّ الشعر العربيّ المؤَسِّسَ لم يدخل بعد في «عقل» المجتمع العربيّ، ولا في «ذَوْقِه»، ولا في «ثقافته». لا يزال يسير بخطواتِ مَن مَضَوا ويفكّر برؤوس مَن مَضَوا، ويكرِّر الكلامَ الذي تركَه مَن مَضَوا، قليلاً أو كثيراً، بشكلٍ أو بآخر.

لكن مَن هؤلاء الذين «مَضَوا»؟ إنّهم أهلُ الفِقْهِ والشّرع، لا أهلُ البحث والأسئلة. أهلُ الاتّباع، لا أهلُ الإبداع.

أزعمُ أيضاً أنّ النّتاج الأوّل الذي يضع الإبداعَ العربيّ، متفرّداً، على منصّة الإبداع الكَوْنيّ، جَنْباً إلى جَنْب مع الشعر العظيم الذي أنتجَتْهُ شعوب العالم، ـ أزعم أنّ هذا النّتاج الخلاّق يجهلُه الآن، العرَبُ أنفُسُهم، عرب الأنظمة ومؤسَّساتها التّربَويّة والثّقافيّة. ويُخَيَّلُ إليّ أنّ هذا الشعرَ المُضيء يَخونُه تاريخُ العرب السياسيّ، فهو من هذه النّاحية، ليس أكثر من مستودَعٍ مَليءٍ بأشياءَ ليست إلاّ ركاماً.

مَن سيكون، إذاً، عَرَبُ هذا التاريخ، عَربُ الغد ـ المستقبل؟

بدر شاكر السّيّاب بين الشعراء العَرَب القِلّة الذين يَرَوْن أنّ مشكلةَ الشّعر في المجتمعات الإسلاميّة العربيّة لا تكمن في الشعرِ ذاتِهِ، بقَدْرِ ما تكمن في الثّقافة. فهي، لأسبابٍ كثيرة، دينيّة وإيديولوجيّة، ضيّقةٌ على الشّعر: إنّها تحُدُّ بالرّقابة الكامنة فيها عُضويّاً، من اندفاعاته وتفجُّراته الحرّة، وتُقَلّص آفاقَه في أنفاقٍ سياسيّةٍ واجتماعيّةٍ، فكريّة وفنّيّة.

هكذا لكي نفهم حقّاً وَضعَ الشاعر العربيّ، لا بدَّ من أن نفهم النّظام الذي يقود المجتمع.

تبعاً لأفلاطون يمكن القول إنّ النّظام الذي يعيش الإنسان في ظلّه يحدِّدُ سيكولوجيّتَه. خصوصاً في كلّ ما يتّصِلُ بمُعْتَقَداتِهِ وعاداتِه وقِيَمِه. ففي الكتاب الثامن من «الجمهوريّة»، يقول أفلاطون ما خلاصتُه أنّ الإنسانَ الذي يعيش في نظامٍ ديموقراطيّ يعتقد بأنّ العقلَ مُوَزَّعٌ على البشر بالتّساوي، وإن تَبايَنوا في استخدامه، وأنّ لكلّ مواطِنٍ الحقّ في أن يفكّر بحرّيّةٍ ويعبِّر عن آرائه بحريّة. ومعنى ذلك أنّ الإنسان الدّيموقراطيّ لا يقبل التّمييزَ بين مُعتَقَدٍ وآخر، أو تفضيل مُعتَقَدٍ على آخر. فخاصّيّةُ الديموقراطيّة تتمثّل في الإيزونوميا (isonomie): في التّشابُه والتَّماثُل، دون مفاضَلة. لا مُطلَقات في الديموقراطيّة. الدّيموقراطيّ هو إنسانُ النّسبيّة.

في هذا الضّوء يمكن القول إنّ العربيّ ليس ديموقراطيّاً، ولا يمكن أن يكون ديموقراطيّاً إلاّ إذا تغيَّرَت بنية النّظام الفكريّ الذي يصدر عنه. فهي بنيةٌ تقسم البشر، على نَحوٍ مُطلق إلى: «مؤمِنٍ» من جهة، و«كافرٍ» من جهةٍ ثانية. هكذا يكون العربيّ، مبدئيّاً، طاغية في جبلته الفكريّة ذاتها. وتكون الحقيقة على الأرض، أُحاديّة: ثابتة الخصائص، لا حقيقة قبلها، ولا حقيقة بعدها.

كان بدر شاكر السّيّاب يعي هذا الحِصار الثّقافيّ كما يتمثّل، على الأخصّ، في الإيديولوجيات، وفي صراعاتها وأوهامها. هكذا كان يُدرِكُ، بالتّجربة الحيّة، أنّ الشّاعر العربيّ ليس حُرّاً في المناخ الدّينيّ الذي يَرِثُه، وليس حرّاً في المناخ الإيديولوجيّ الذي يعيشُه.

واعِياً أنّ الشّعر يتحرّك في الواقع بوجهَيْه، التّراثيّ والحَداثيّ، مُقَيَّداً، على جميع الصُّعُد، شعوريّاً وفكريّاً وكِتابيّاً.

وما لا قيمةَ له، فنّيّاً، هو الذي كان ولا يزال يمثّل بالنّسبة إلى المؤسَّسة، في مختلف أنواعها، القيمة العليا. وما يمثّل إضافة إلى ذلك، سُلَّمَ القِيَم ومَرجعَها.

وهكذا كان بدر شاكر السيّاب يُدرِك بالتجربة الحيّة أنّ المجتمع لا يتغيّر بتغيير السلطة القائمة فيه: لا يتغيّر إلاّ بتغيير بنيته الاجتماعية والثّقافيّة، وتغيير المؤسّسات التي تنهض عليها هذه البنية.

وقد ارتبطت قيمة الشعر في المجتمع العربيّ، بوظيفته: كانت قيمته الاستعماليّة هجاءً ومَدْحاً، تتغلّب في التحليل الأخير على قيمته الجمالية - الفكريّة.

لكن، ما القيمة في الشعر؟

نعرف جميعاً أنّ هذه القيمة لا وجودَ لها إلاّ عند من يعرفها، ومن يعرف كيف يُعطيها، ومَن يعرف كيف يتقبّلها.

وقبل كلّ شيء ليست كتابة الشعر حِرفةً أو مهنةً بين الحِرَف والمِهَن. وليس الشّاعر صانعاً، بين أهل الصّناعة. ليس الشعرُ عِلْماً بالمعنى الدّقيق للعلوم. إنّه حَدْسٌ خلاّق لا قانونَ له من خارجه. قانونُه فيه - حتى في «فَوْضاه»، وفي خروجه على كلّ قانونٍ مسبّقٍ.

ولئن كانت القيمة الصّنعيّة - الحِرَفيّة تُحَدَّد بالمقارنة مع ما يشبهها أو قياساً على نموذجٍ أو مثال، ولئن كانت تتمثّل، إجمالاً، في فاعليّة الاستخدام أو الاستعمال، وفي الدّقّة والمَتانة والدّيمومة، فإنّ القيمة في الشعر لا تُحَدَّد إلاّ جَمالِيّاً من ناحية الشكل أو طرُق التّعبير، وإلاّ كشفيّاً ومعرفيّاً، من ناحية النّظر والرّؤية. وتحديداً، لا تُحَدَّد «بِكَمِّ» البَيْع - أو «كَمّ» الجمهور - لأنّه آنذاك يدخل في عالم السّلعة والاتّجار.

وماذا نُقَوّم، إذاً، في القصيدة؟

- 5 -

نُقَوِّمُ في القصيدة طاقاتِها الكامِنة، وصُوَرَها التي تُغيّر العلاقات بين الكلمات والأشياء. نقَوِّم مُمْكِناتها ومُحْتَملاتها: ماذا ترى؟ ما دلالاتها؟ ما آفاقها؟ وكيف؟

هكذا يمكن أن نقول مثلاً: هذه قصيدة عظيمة. ويعني ذلك أنّها تُلامِس البشرَ جميعاً بطريقةٍ أو بأخرى، وأنّها كَوْنيّة. فالقيمة حصيلةُ كيمياء مُرهَفَة بين عناصر جماليّة وثقافيّة، متَنَوِّعة ومُتَعَدِّدة.

وهو إذاً، تقويمٌ ينهض على الكَشْف عن الجانب الإنسانيّ الكَوْنيّ في القصيدة. تقويمٌ يُبرِزُ الرّوابطَ والعلاقات بين البشر، بوصفِهم بشراً، فيما وراء اختلافاتهم وتعدُّدِيّاتهم، دينيّاً وعرقيّاً وثقافيّاً، ولغويّاً. وتكشف ما لا يُسْتَنْفَدُ في الرّؤية الشّعريّة، وما لا ينتهي.

القصيدة العظيمة ـ مُصَغَّرٌ حضاريّ. والشّعر العظيم مشروعٌ فنّيٌّ، حضاريّ، إنسانيّ.

وفي هذا الأفق، تكون القصيدة أكثرَ ممّا هي: أكثرَ من كَوْنِها شعراً. تكون فضاءً بلا حدودٍ، تتحرّك فيه الأفكار كلُّها، ماضِياً وحاضِراً بأبعادِها جميعاً. فالفضاء الشّعريّ هو، جَوهَريّاً، فضاءٌ ثقافيّ، والفرد، شِعرِيّاً، هو الإنسانُ في الأزمنة والأمكنة. فأن يكتب الشاعر، اليوم، قصيدةً هو أن يعرف شعرَ الأمس، وثقافة الأمس، وعِلْمَ الحاضِر، وفلسفةَ الماضي. القصيدة العظيمة نسيجٌ كَوْنيّ. وما نحتاج إليه، نحن العرب، هو شعرُ الأفق الكبير الواسع، بلا حدود، المُنْفَتِح بلا حدود. وهذا هو الأفق الذي سارت فيه رؤيةُ السّيّاب في قصائد كمثل «أنشودة المطر» و«النّهر والموت» و«المسيح بعد الصَّلْب» تمثيلاً لا حَصراً. إنّه شعرٌ يحتضن آفاقَ الإنسان، مازِجاً بين سومَر واليونان، بين جلجامش وهوميروس، وبين هوميروس ودانتي، وبين دانتي والمعرّيّ. الآخر وشعرُه في عناقٍ مع الذّات وشعرِها. المسيح ـ أدونيسيّاً. التّراب، بوصفه غيماً آخر. والسّماء بوصفها أرضاً، والأرض بوصفها سماءً.

أدونيس

باريس، تموز 2020

ينبُوع لا مرئي

كان ديوان السّيّاب، وقد قرأتُهُ لأوّل مرّةً بعمرٍ مُبكر، في كتاب نُقّذ بطريقة «الاستنساخ»، صادفتها على رصيفٍ ببغداد أيّام حصار التّسعينيات من القرن الماضي، أوّلَ علاقةٍ تربطني بالشِّعر خارج المتن المُتاح في الفصل المدرسيّ.

كلماتٌ تتقاطعُ مع المألوف والسائد من شعْرٍ رسّخته آنذاك المؤسّسة الثّقافيّة والإعلاميّة بنظرتها التّقليديّة والسَّطحيّة للشِّعر. رأيتُ كلماته تَفتحُ ثُغوراً في روحي، جديدة ومؤسِّسة، وتُغذّيها بأسئلةٍ تولّدُ أسئلة، طاقة كامنة تحرّضُ أغواراً مُتحفزّة. كان السياب بُرهاناً ساطعاً لقدرة الانسان على دحر الزمن بقوّة الشعر ومعجزة الجمال، مثل ينبُوعٍ لا مرئي يمدُّ بمياهه أنهاراً جوفيّة أبدية العطش. وقد بقيتُ سنواتٍ متوالية وارداً ملهوفاً لذلك الينبُوع.

* * *

تتفقُ الآراء والأحكام النقديّة على أن لحظة السّيّاب في شعرنا العربيّ المعاصر، هي لحظةٌ فارقةٌ بلا شك، أحدثت خَرقاً أسّس لإمكانات قولٍ شعريّ جديد وحرّ، وتركت تأثيراً عميقاً في جسد الأجيال اللاحقة. وبالتالي فإنّ آثاره الشّعريّة تظلّ علامةً يُمكن من خلالها بحث وقراءة ليس شعرنا العربيّ الحديث فحسب، بل الثّقافة بمجملها في العالم العربيّ على مستوى الفرد والمجتمع. وهي، بالنتيجة، أعمالٌ تستحقُ ما يوازي أثرها من اهتمام وعناية بالنشر، وإعادة النشر مرّات.

غير أن سبباً جوهريّاً آخرَ يجعلُ من هذه الطبعة الجديدة ضرورةً تأخّر إنجازها كثيراً، هو أن السّيّاب لم يحظَ، طيلة الحقب الماضية، بتوثيق جادٍ لأعماله الشعريّة على أساس مهني مُحايد يبتعدُ عن الأخطاء الإجرائيّة والتأثيرات (بأنواعها). وظلّت الدواوين الصادرة له والمجاميع الكاملة تعاني من ثغراتٍ مؤثّرة وعلّات متوارثة لا تتناسب مع قيمة الشاعر. لذا فأن هذه الطبعة تحاولُ

المضي بهذا التوثيق والإحاطة بعالم السيّاب الشعريّ بشمولٍ يجعلها متحفاً رمزيّاً للشّاعر في كتاب، وهي، في الوقت ذاته، لا تدّعي بلوغ الكمال.

* * *

لحظة شروعي بالإعداد لأعمال السيّاب الشّعريّة، حرصتُ أن تبدأ هذه الطّبعة بتحقيق جادٍ ومخلص في قصائد الشاعر، لعلمي مسبقاً بما يشوبُ الطّبعات السابقة للأعمال الكاملة من مشكلات (نقص، سهو، عدم دقة، وأخطاء) بالدرجة الأساس.

تحقيق يضمن إتاحة متن السياب الشعريّ كما أراد، لا كما وضعته فيه الظروف التاريخيّة الدقيقة في القرن المنصرم.

بدأتُ بجمع مختلف المصادر التي ضمّت قصائده، وفي مقدّمتها: المتاح من مخطوطات القصائد، الطبعات السابقة للأعمال الشعريّة (الكاملة)، ديوان السياب المعروف بمجلّديه، المجاميع المنفردة الصادرة في حياته وبعد رحيله، الكتب والدراسات التي تناولت حياته وشعره، فضلاً عن أرشيف المجلات والصحف في عهود مختلفة.

ولم يكن من السهل، أبداً، الوصول إلى النسخ الأصليّة من الطبعات الأولى لدواوين الشاعر، فبعضها كان قد مرّ على إصداره أكثر من سبعين سنة، وبالتالي فإنها فُقدت من المكتبات العامّة والخاصّة، وظلت بضع نسخٍ متفرقة، شديدة الندرة، بعضها كان من أرشيفي الشخصي، والبعض الآخر أسعفني به أصدقاء من شرق الأرض وغربها.

* * *

وما أن تمّت الوثائق، كان أن شرعتُ مع الشّاعر بسفرٍ طويل، ليسَ كأيّ سفر، لذّته في مشقّته، وعروجه بقَدْر انخفاضه. وبعد إكمال التنضيد والشروع بالمراجعة والفحص، بدأتُ بالعملية الأساسيّة لهذه الطبعة: وهي التحري الدقيق في القصائد، وتحقيقها على وفق المتاح من مخطوطٍ أصليّ أو وثيقة منشورة. وضبط كلماتها والأبيات الشعريّة وتصويب الخطأ منها، وشرح ما رافقَ القصيدة من عمليات تعديلٍ وحذف في هوامش مرفقة، فضلاً عن تبيين بعض التفاصيل الخاصّة التي تتعلّق بالقصيدة، وبيان الغامض من المفردات والأعلام فيها.

إن أيّ جزئيّة عمل مما ذكرتُ أعلاه لتَرِدُ في سياق الحديثِ ككلمة عابرة، يمرُّ بها من يقرأ سريعاً إلى ما بعدها، لكنها تُضمر في طيّاتها مكابدة يضيق بشرحها الوصف، كان الشطر والمقطع بل بعض الكلمات المُحيّرة يمكن لها أن تأخذ اليوم واليومين وحتّى الأسبوع بحثاً وتأمّلاً وتنقيباً حتى يُستقر على رأي حصيف فيها ويعتمد.

صعوبات وتحدّيات

واجهتني خلال العمل، بطبيعة الحال، صعوبات وتحديات، منها ما وجدته من تباين بين نصوص القصائد المنشورة في (الأعمال الكاملة) السابقة وبين المنشورة في الصحف والمجلات، أو الدواوين المنفردة. الاختلافات لم تقتصر على تعديلات أجراها الشاعر، بل أن بعض الطبعات حَذَفتْ مقاطعَ شعريّة اعتمدها الشاعر، أو أضافت مقاطع كان السيّاب قد حَذَفها، وسيجدُ القارئ أن الموقف السيّاسي أو الفكري للناشر أو للدولة آنذاك هو من تحكّم بالحذف والإضافة في معظم الحالات، فضلاً عن حالات أخرى جرى فيها الحذف بتخويل من الشاعر وتنسيق معه. وقد حصرتُ هذه الحالات وثبّتّها في ملاحظات مرفقة.

والحالُ هذه، أفرزت في أحيانٍ عدّة، أكثرَ من «رواية» لقصيدة واحدة بعينها في كلّ طبعة، فأنت تقرأُ، مثلاً، قصيدة «الأسلحة والأطفال» منشورةً في كرّاسٍ خاصّ أصدرهُ الشاعر عن مطبعة «الرابطة» في بغداد عام (1954) بصياغة مُعيّنة، وتقرأ القصيدة ذاتها في ديوان «أنشودة المطر»، طبعة منشورات «مجلة شعر» (1960) بصياغة أخرى، ثمّ في طبعة دار العودة (1971) بصياغة ثالثة، وقد وجدتُ، على وفق هذا المثال، أكثر من قصيدة.

من الصعوبات أيضاً، عدم التزام أغلب الطبعات (الكاملة) السابقة بالصياغات النهائيّة لدواوين الشاعر، وإغفال عملية تبدّل الصياغات التي رافقت قصائد الشّاعر طوال حياته، وتعديلاته عليها، أو فاتها ذلك، ولم تبيّن تلك التعديلات وتحدّدها في هوامش. فمعروف عن السياب غزارة كتاباته، وكثرة تعديلاته على القصائد لاحقاً قبل نشرها في الديوان، ما خلقَ فروقات جديرة بالعناية والتدقيق، غير أن الطبعات المختلفة لم تراع هذه الملاحظة، ما دعاني إلى تحكيم المصادر الأولى التي نشر الشّاعر فيها قصائده، وتحقيق مقارنة ومطابقة لكلّ قصيدة، مُتّبعاً مسار نشرها الأوّل، ثم النشر الثاني، وهكذا، حتى الوصول إلى الصيغة النهائيّة التي استقرَ عليها السيّاب ونَشَرَها قبل

رحيله، وحين يتوفّر الاطمئنان لصيغتها النهائيّة، يُصار إلى اعتمادها في هذه الطبعة، مع حصرِ التعديلات التي أجراها الشّاعر على قصائده، في مراحل نشرها المختلفة، وتوضيحها في هوامش مرفقة مع كلّ قصيدة لمساعدة القارئ في تبيّن الفروقات.

توثيق الصحف والمجلات

ولكي تشتمل الطبعة الجديدة على إحاطة تامّة بالمتن الشعريّ للسيّاب، قمتُ بتوثيق القصائد المنشورة في الصحف والمجلات آنذاك بالنصوص الكاملة لها، وسيرى القارئ، أن هذه النصوص تشتمل أهمية بالغة لأنها توثّق وتوضّح جانباً من تبدلات المتن الشعريّ على وفق مؤثرات أساسيّة عدة، منها، تمثيلاً لا حصراً: تبدّل القناعة الفنيّة للشاعر، والتعديلات التي تطلبها دور النشر على الديوان قبل نشره، سواء تمت بموافقة الشاعر من عدمها، وسواء جرت في حياته أم بعد مماته، والباحثُ المتفحصُ لشعر السياب سيجدُ أن شعره تعرّض إلى تعسّف تجاوز الحدود الأدبيّة والأخلاقيّة في بعض الموارد إلى محاولات تنقسم - مثالاً لا حصراً: إما للنيل منه والغضّ من مكانته، أو توجيه شعره بسياق ما.

ويلاحظ بعض قصائد الشاعر المنشورة في الصحف وقد حُذِفت منها مقاطع كاملة حين تم نشرها لاحقاً في دواوين، وتجاوزتْ الطبعات الكاملة السابقة عن إيضاح هذه الإشكالية ولم يذكر المحذوف والمنسي والمستقطع من شعر السيّاب الذي نُشرَ في المجلات وضاعَ في أدراج دور النشر وكواليسها، وسيجده القارئ كاملاً، ولأوّل مرّة، في هذه الطبعة الجديدة.

هذه الطريقة حمّلتني جهداً ووقتاً كبيرين، فالوصول إلى المصادر، وتتبُّعها، والتحقق منها، لم يكن ميسّراً في كلّ الحالات، غير أنها كانت ضرورة ملحّة، لضمان هدفٍ وضعته نصب عيني؛ طبعة جديدة محقّقة لأعمال السيّاب، تجمعُ كلّ شعره بلا حذفٍ مقصود، وتوفّر قدراً من الأمانة والدقّة الممكنتين، وتتجاوز الأخطاء ما استطاعت.

أخطاء فادحة

كانت عمليتا المقارنة والمطابقة للنصوص قد فتحت الباب لاكتشاف أخطاء وهنات الطّبعات السابقة، وهي ليست مطبعيّة فحسب، بل أخطاء حدثت أثناء الإعداد والنقل، كسقوط بعض الكلمات، أو الأشطر؛ نقصها، ارتباك توزيعها (عدم الامتثال لتوزيع الشاعر)، أو قطْعها، وقد عالجتُها بالتحقيق على وفق نماذج أخرى للقصيدة ذاتها، نَشَرَها الشاعر في الصحافة المحليّة أو المجلات الأدبيّة آنذاك، أو بالعودة إلى بعض المخطوطات في حالات أُخَر.

ولفت نظري أن بعض الأخطاء كانت فادحة وبقيت على حالها ما يقارب الخمسين سنة من دون أن يلتفت إلى تصحيحها أحد، على الرغم من الطبعات المتوالية لديوان السيّاب خلال هذه المدّة. وسأكتفي، اختصاراً، بمثال واحد منها: ففي قصيدة «ليلة في العراق» من ديوان «شناشيل ابنة الجلبي وإقبال» يرد المقطع التالي:

«كأني وسط هذا الكون حيث يسوطني العطشُ

نواةٌ حولها ارتجفَ العصيرُ الحلوُ في ثمره

ويُحرقها صداها.

وانتظرتُ: سيغسل الغبَشُ

صداي، يُحيلني شجَره

تمصُّ الماءَ، يقرع في مداها النُّسغُ!»

ويمكن ببساطة ملاحظة خلل الوزن وقطع المعنى في الشطر الأخير من المقطع الذي بدا لي مبتوراً، ومع عودتي لمخطوطة القصيدة وجدت الشطر الأخير من المقطع، على النحو التالي:

«تمصُّ الماءَ، يقرع في مداها النُّسغ آلاف الدرابك حين يرتعش».

كذلك وجدت القصيدة منشورةً في مجلة «حوار» عدد تموز/آب عام 1963، وكان السطر المعني قد ورد على النحو ذاته الذي وجدته في المخطوطة.

وهكذا الحال، في مواضع عدّة، تمّت معالجتها وتثبيت صيغتها كما كتبها الشاعر، هذا خلاف كمٍ لا حصر له من التصويبات التي تخصّ تشكيل الكلمات داخل القصائد والتي تترك، كما هو

معلوم، أثراً حاسماً في فهم القصيدة والمعنى الذي يريده كاتبها، ونكتفي هنا بمثال واحد:

في قصيدة «أحبّيني»، ومنها المقطع التالي:

«تفرَّقت الدروبُ بنا نسيرُ لغير ما رجعَه،

وغيَّبها ظلامُ السجن تؤنسُ ليلَها شمعه

فتذكرني وتبكي. غير أني لستُ أبكيها

كفرت بأمَّة الصحراء

ووحي الأنبياء على ثراها في مغاور مكّةٍ أو عند واديها».

وقد تُركت كلمة «كفرت» بلا أيّ تشكيلٍ يُذكر، أو بتشكيل مُجتهد فيه، مما يجعلها مفتوحة على أكثر من احتمال، ولو كان هذا خيار الشاعر في الأساس لسلمنا بذلك، غير أنني وجدتهُ قد شكّل الكلمة هذي تحديداً في مخطوطتين مختلفتين بالشكل التالي:

«كَفَرْتِ بأمّةِ الصحراءْ...»[1] الخ

وواضح الفرق بين الحالتين، ولنقس على ذلك مئات الأمثلة مما لا مجال لذكره.

هذه الطبعة

السيّاب عَمَدَ إلى دمج ديوانين أو أكثر ليصيرا في النهاية ديواناً جديداً بعنوان جديد مع تعديلات وتغييرات عديدة. هذا ما فعله مع ديوان «أزهار ذابلة» (1947) حين دمجه مع ديوان «أساطير» (1948) ليصيرا ديواناً جديداً هو «أزهار وأساطير» (1963). وهذا ما فعلته بعض دور النشر حين دمجت ديوان «شناشيل ابنة الجلبي» (1964) مع ديوان «إقبال» (1965) ليصيرا مجلّداً بعنوان «شناشيل ابنة الجلبي وإقبال». وقد آثرنا الاحتفاظ بالدواوين المنشورة كاملةً وتنسيقها حسب الترتيب التاريخي لسنة الإصدار[2]، مع بيان التعديلات في إشارات مفتاحية أو هوامش مرفقة.

تقسّم أعمال السيّاب الشعريّة في هذه الطبعة إلى قسمين أساسيين:

أ - الأعمالُ الشِّعريّة الصّادرة في حياته.

ب - الأعمالُ الشِّعريّة الصّادرة بعدَ رحيله.

وهناك بين المرحلتين نصوصٌ شعريّة، أُكتُشفت في مراحل متأخّرة، أو أنها نُشرت في كتبٍ ودراساتٍ، أو صحف ومجلات، ولم يجرِ ضمّها، بأيّ سببٍ، للديوان الكامل.

هذا غير ثمانِ قصائد لم يسبق نشرها، قبل اليوم، في الاعمال الكاملة، تنفردُ هذه الطبعة فيها مع نسخٍ من بعض مخطوطاتها.

فيما يتعلّق بالقسم (أ)، فقد اعتمدنا، في الدّرجة الأساس، على المجاميع الشِّعريّة التي أصدرت في حياة الشَّاعِر، على وفق الصّياغة النّهائيّة التي ارتآها في طبعاتها الأخيرة أثناء حياته، مع إعادة تدقيقها وضبطها مع الأصول المبيّنة سابقاً، وتصليح ما وجدناه من أخطاء أو سقطات، وبيان التعديلات التي رافقتها.

أما القسم (ب)، فمعروفٌ أنه قبل وفاة السّيّاب في الرابع والعشرين من كانون الأوّل/ديسمبر 1964م، كان ديوانه «شناشيل ابنة الجلبي» تحت الطّبع، وقد صدرَ في بيروت تزامناً مع نبأ الوفاة، حتّى أن الشَّاعر لم يحظَ برؤيته، وهو الدّيوان الأخير الذي أشرفَ الشَّاعرُ على إعداده وتنقيحه، وكان السّيّاب قد كتبَ نصوصاً شعريّة أيّام رقوده الأخير في المستشفى في الفترة ما بين إرسال نصوص ديوانه الأخير ووفاته.

لكن ما إن توفّي السّيّاب حتّى شرعت دار «الطّليعة» لإصدار ديوان بعنوان «إقبال»، وقد اتصلت الدّار بعائلة الشَّاعر وطلبت منهم أن يُرسلوا إليها ما لديهم من قصائده. من هنا بدأت رحلة إصدار دواوين شعريّة تضمّنت قصائد كتبها السّيّاب في فترات مُبكرة من حياته، واحتفظ بها في أرشيفه، ممتنعاً عن نشرها.

توالت بعد ذلك الدّواوين، التي كان يُحرّكها، غالباً، دافعان: احتفائي إعلامي، وهو ما قامت به المؤسّسات الثّقافيّة الحكوميّة، ودافعٌ آخر ربحي تجاري، اضطلعت به دور النشر التي أخذت بالاهتمام المتصاعد بالشّاعر خاصّةً بعد رحيله الفاجع، فكان كلّ جديد لهُ، مهما كانت قيمته، محطَّ ترصّدٍ وعناية، فصدرت عن وزارة الإعلام العراقيّة لاحقاً مجموعة «قيثارة الرّيح»، لمناسبة

الذّكرى السّادسة لرحيل الشّاعر (1971)، وقد ضمّت قصائد على الشكل الخليلي من البدايات جُمّعت من مخطوطات وأوراق متناثرة. وهكذا لاحقاً أصدرت مجموعات «أعاصير: 1972»، «البواكير: 1974»، «الهدايا: 1974». وكانت هذه المجموعات تضمّ قصائد من سنوات متفرّقة، بعضها من بواكير تجربة السيّاب، والبعض الآخر قصائد مناسبات شخصيّة وسياسيّة، غير أن عاملاً واحداً كان يجمعها:

وهو أن السّيّاب لم ينشرها في حياته، وأن القصائد هي من البواكير، ولا ترقى إجمالاً إلى مستوى شعره الإبداعي، أو في الأقل للمستوى الذي بلغهُ ديوانه الأوّل «أزهار ذابلة»، بل هي دونه.

أشير هنا إلى سؤال مُلحٍ: ما الذي كان يمنعُ السياب من نشر هذه القصائد التي شكّلت في النهاية متناً شعرياً وصلَ إلى خمسة دواوين أصدرت بعد وفاته؟ خاصّة وأننا بإزاء قصائد هي محاولات الصبا الأوّل ومعظمها كُتبت والسياب بين (15-18) عاماً، كما أن الشاعر لو كان راغباً ومُقتنعاً بنشر تلك «المحاولات» لفعل ذلك بديوان مشابه لـ«أزهار ذابلة» و«أساطير»، بل أذهبُ أبعد لأقول بأنني أظن «أزهار وأساطير» هو الديوان الوحيد الذي يمثل ما ارتضاه السياب من بداياته ونتاجه القديم، بدليل أنه لم يرجع لطباعة «أزهار ذابلة» ولا «أساطير» بل انتقى منهما مختارات مع جملة تعديلات ليختصر شعر بداياته ب«أزهار وأساطير».

الأمر ذاته ينطبقُ على قصائد المناسبات وتلك التي طُلبت منه مواضيعها، ونحو ذلك، وكلها نشرت بعد رحيل الشاعر.

إن جوهر وجهة نظري في هذا التساؤل هو القيمة الأخلاقية وراء أيّ عمل يقوم به محقق أو ناشر، فنشر محاولات الشاعر الأولى - اتفقنا أم اختلفنا - ترك «تشويشاً» فنيّاً أو»تشويهاً» لصورةٍ عمل السّيّاب على ترسيخها وتعميقها؟ إن لكلّ شاعرٍ بدايات، وهي، غالباً، ما يشوبها تعثّر وضعف وتأثّر بآخرين، ولدينا أكثر من مثال لشعراء حذفوا من ديوانهم الكامل مجموعاتهم الشِّعريّة الأوّلى، فكيف بقصائد ما قبل الديوان الأوّل؟

قد يُرى أن نشرَ هذه القصائد الأولى لهُ ما يبرره بوصفها جزءاً من الإرث الشّعري، وربما يُرى أن ما تركه السيّاب في ادراج النّسيان قد يقبله القارئ والدارس، مع الأخذ بعين الاعتبار بأننا لسنا أمام أعمال ناضجة ومكتملة فنيّاً، فالدّواوين التي صدرت بعد (1964) - عدا «إقبال» - ليست

مخطوطاتٍ جاهزة، أو دفاتر «مبيّضة» وجدت في مكتبة السّيّاب لم يسعفه الوقت لطباعتها، بل أوراق متناثرة، وقصائد غضَّ النّظر عنها هو، وهذا يفتح سؤالاً عن صاحب السّلطة والقرار في مثل هذه الحالات ويحرّض البحث في الدوافع والنوايا، على أنني أرى أن ما أُصدر من دواوين شعريّة بعد وفاة السياب (لم يقررها الشاعر) كان يُفترض أن لا تنشر عدا قصائد نادرة جداً.

أُشير هنا أن نشرنا لأيّ قصيدة لم ينشرها الشاعر في حياته في هذه الطبعة يأتي بقدر ما يتطلب نشر أعمال شعريّة «كاملة» لشاعر مثل السّيّاب من شمول وتعميق تفرضهما آليات وأدبيات مشاريع كهذه.

تصويبات تاريخيّة

قُيضَ لهذا العمل، لأكثر من سببٍ، أن تتجاوزَ مخرجاته النهائيّة المتن الشعريّ للسياب إلى تصويب بعض الأخطاء الشائعة والمتداولة في حياة الشاعر ذاتها، والتي ظلّت متوارثة عقوداً طويلة حتى غدت حقيقةً راسخة لا يفكر في التشكيك فيها أحد.

من يقفُ اليوم أمام تمثال بدر شاكر السياب على كورنيش شط العرب في البصرة سيقرأُ على قاعدته الرخاميّة تاريخ ميلاد الشاعر: (25 كانون أول 1926)، وهو التاريخ المثبت في أغلب المصادر التي تناولت حياته والسائد في أيّ مادةٍ صحفيّة أو بحثيّة تتناول الشاعر طيلة العهود الماضية. غير أن وثيقةً صادرة عن المديرية العامّة لصندوق التقاعد العراقيّ بتاريخ (1961/9/23) زودني بها ضمن مجموعة وثائق أخرى السيّد غيلان السياب، نجل الشاعر، حملت لي مفاجأة كبرى: فقد ثبتت هذه الوثيقة الرسميّة، في إحدى هوامشها، تولد السياب في عام (1927) [3] وليس التاريخ الشائع.

ليس هذا فحسب، فقد تبيّن أن تاريخ (25 كانون الأوّل) المتداول كيوم ميلادٍ معروفٍ للشاعر خطأٌ كذلك، وأن يوم ميلاد السياب مجهول! فقد أرسلَ لي السيّد غيلان لاحقاً نسخة من شهادة الجنسيّة العراقيّة لوالده، وفيها ذكر سنة الميلاد (1927) ومن دون يومٍ أو شهر.

هذا التصحيح (التاريخي) الذي نقدّمه، والذي قد يُفاجئ الكثير من المهتمين بشعر صاحب «أنشودة المطر»، يُثبت، مرّة أخرى، أن السياب ظلّ لسنوات طويلة بحاجة إلى عناية بحثيّة جادّة

تُزيل الالتباس والأخطاء عن تفاصيل هامّة في حياته وشعره، وأنه على الرغم من الاهتمام النقديّ والأكاديميّ الواسع بتجربته، فأن قضايا مركزيّة فيها لا تزال تنتظرُ البحث والكشف والتصويب.

صورٌ لم يرها أحد

من جانب آخر، تحتوي الطبعة على ملاحق خاصّة، تُعزز المتن الشعري وتغني القارئ والباحث على سواء، أحدها يضمُّ قصائد للشاعر لم تنشر في دواوينه سابقاً، وهي نصوصٌ شعريّة وردت في كتب سيريّة ونقديّة وقصائد أخرى وردت في كتب تناولت رسائل السيّاب، فضلاً عن ملحق ثانٍ يضمُ صوراً نادرة جداً (تنشر لأوّل مرّة) إذ كانت مما تملكه عائلة الشاعر من ذكراه غير أنها فُقدت أثناء التحضير لمشروع تمثال الشاعر في البصرة مطلع السبعينيات، وقد أتاحت لنا الظروف استعادة نسخٍ من هذه الصور التي تعدُّ كنزاً حقيقياً من بين أهمّ ما حدث في هذه الطبعة.

كذلك تضم الملاحق وثائق تُوضح جزءاً مؤثراً مما عاناه الشاعر في حياته بالخصوص مشواره الوظيفي الذي دفع فيه ضريبة انتماءاته السياسيّة ومواقفه المعروفة (فُصل لأكثر من مرّة وأُقصي عن داره واستُرجعت منه أموال مكافآت). كما تضم الملاحق صوراً لمخطوطات نفيسة وخاصّة لقصائد بخط يد الشّاعر تُنشر لقيمتها التاريخيّة لأوّل مرّة.

* * *

إن مشروعاً كديوان السّيّاب الكامل، جمعاً وتحريراً وتحقيقاً، يظلّ بالتّأكيد مُعرّضاً للمراجعة المستمرة، لا عن قلة حماس، إنما لخصوصية تتعلّق بظروف حياة الشاعر من جهة، وما يتعلق بطبيعة العمل ذاته من جهة أخرى، وللأسباب التي أوردناها أعلاه، لذا نلتمس العذر لأي تقصير وارد، حسبنا أننا اجتهدنا قدر الاستطاعة بإخلاص ووفاء لهذا الرّائد المعلّم، وتثميناً لدوره المؤسِّس في تجربة الشِّعر العربيّ الحديث.

وإذْ أُلقي بعصا سفري مع السّيّاب عند بيت قارئه، فإنني أشيرُ بمحبّة صافية، وتقديرٍ باسق، لما أبداه نجلُ الشاعر، السيّد غيلان بدر شاكر السّيّاب، من تعاون كبير ومثمر، ابتدأ بحماسه ومباركته العمل، مروراً بمراجعته لمخطوطة الكتاب والتي أسهمت في دفع وتدارك عديد أخطاءٍ فيها، فضلاً عن الوثائق الشخصيّة ومخطوطات قصائد الشاعر، الصور والمعلومات والملاحظات

القيّمة التي أفاضها عليَّ عبر مراسلات متتالية طوال فترة العمل، تواصل كان له الأثر البارز على فرادة هذه الطبعة، دقّتها وخصوصيتها، وقد لمستُ منه حرصاً كبيراً على تراث والده ومعرفة حصيفة فيه، ووفاءً هو بحد ذاته مثال يُحتذى.

كما أديمُ الشكرَ وأُعليه للشّاعر أدونيس على استجابته الكريمة لكتابة مُقدِّمة العمل، فهي بلا شكٍ دليل وداد لذكرى صديق وشقيق درب، وبرهان تقدير للمشروع. وأذكر هنا بحُبور ما جمعني به، من مداولات جرت عبر الهاتف على فترات من عمر العمل، ستظل محطّ اعتزاز عميق.

وأُوصِلُ العرفان الجزيل، والثناء غير المنقطع، لِطَيْفٍ واسع من الأصدقاء الذين مدوا المشروع بعونهم ودعمهم، رؤاهم وملاحظاتهم، وسخروا ما استطاعوا من إمكانيات، فلولاهم جميعاً ما كان لضفاف الوصول أن تُلوّح لأشرعتنا.

وأخيراً، فأنني بعد ذلك كلّه، أُهدي جهدي المتواضع لروح الشاعر الخالد، معلميّ الأوّل، عرفاناً وتقديراً، ولمحبيه في كلّ مكان وزمان، ولقوّة الشعر العميقة التي تمسك قلب العالم، وأريدُ لهذه الطبعة أن تكون مناسبةً جادّةً لقراءة جديدة لشعر السّيّاب، تتركُ السّياقات التّقليديّة والرؤى النقديّة المألوفة، وتتحرى تواصلاً غير مطروقٍ مع ذلك الينبُوع الذي فجّره الشّاعر، ولا تزال هناك، تحت أرضنا، منهُ أنهار لمّا تُكتشف بعد.

علي محمود خضيّر

البصرة - تشرين الثاني 2020

أزهارٌ ذابلة
(1947)

إشارة

طُبِعَ الدّيوان، لأوّل مرّة، بمصر (مطبعة الكرنك) بالفجالة، عام (1947)، وكتبَ مقدّمته رفائيل بطي[4]. الديوان هنا مطابقٌ لهذه الطبعة. وقد أجريت ضبطاً للقصائد وتثبيتاً للهوامش التي وضعها الشاعر في الديوان الأصلي وأَغفَلتها أغلب الطبعات السابقة.

لم يكرر السّيّاب طباعة «أزهار ذابلة» بعد ذلك، لكنه عمَدَ لاختيار قصائد منه ومن ديوان «أساطير» ليكوّن ديواناً جديداً بعنوان «أزهار وأساطير» مع أجراء شيء التعديل والحذف على القصائد.

المحقق

ديوان شعر[5]

«إلى اللائي استعرن مني ديواني ليقرأنه فبات متنقلاً ما بينهن، ونال من عطفهن ما حرمته، أقدم هذه القصيدة»[6]

ديوان شعر، ملؤه غزلُ بين العذارى باتَ ينتقلُ

أنفاسي الحرى تهيمُ على صفحاته، والحبّ والأملُ

وستلتقي أنفاسهنّ بها وتحوم[7] في جنباتِه القُبَلُ

ديوان شعر، ملؤه غزلُ بينَ العذارى بات ينتقلُ

* * *

لما يعين[8] النوح والشكوى كلّ تقولُ: من الّتي يهوى؟

وسترتمي نظراتهنّ على الصفحات بين سطورهِ نشوى

ولسوف ترتجّ النهود أسى ويثيرها ما فيه من بلوى

ولربما قرأته فاتِنَتي فمضت تقول: من الّتي يهوى؟

* * *

سيرين ما لاقيت في حبي فيصحن: يا للعاشق الصب![9]

ولقد تسيل دموعهن على جنباته، موصولة السكب

يا ليت قلبي من قصائده لترى الحسان الغيد ما قلبي

سيرين ما لاقيت في حبي فيصحن، يا للعاشق الصب

* * *

ديوان شعري.. رُبَّ عذراءِ أذكرتَهَا بحبيبها النائي

فتحسَّسَت شفةً مُقَبِّلَةُ وشتيتَ أنفاسٍ وأصداءِ

فطوَتْكَ فوق نهودها بيدٍ واسترسلتْ في شبه إغفاءِ

ديوانَ شعري.. رُبَّ عذراء أذكرتَها بحبيبها النائي

* * *

يا ليتني أصبحتُ ديواني أختال[10] من صدرٍ إلى ثانِ

قد بِتُّ من حسدٍ أقولُ لَهُ: يا ليت من تهواكَ تهواني

ألكَ الكؤوس ولي ثمالتها ولكَ الخلود وإنني فانِ؟

يا ليتني أصبحت ديواني أختال من صدرٍ إلى ثانِ

* * *

كم غادة شاهدت مخدعها ومضيت تسهر ليلها معها[11]

قد هزّها شوق لمعتسف أمسى هواه يسيل أدمعها

فمضت تذيع إليك قصّتها   وتبثُّ همّاً فلّ أضلعها

كم غادة شاهدت مخدعها   ومضيت تسهر ليلها معها!

* * *

ستعيش بين النور والعطر   وتفرّ من صدرٍ إلى صدرِ[12]

فترى الثغور تعيد هامسة   ما فيك من فتن ومن سحر

والنهد يرمي الظلّ فيك على   روض الخيال ومرقص الشعر

ستعيش بين النور والعطر   وتفرّ من صدرٍ إلى صدرِ

* * *

يسمعنَ فيكَ أغانيَ الريف   مترنماً بحسانهِ الهيف[13]

الماء يشكو للجرار هوى   والنخل في صمت وتعزيف

والليل والأنسام عاطرة   والزورق الغافي المجاديف

تلقي مسامعها إلى الريف   يشكو غرام حسانه الهيف

* * *

سأبيتُ في نوحٍ وتَسهيد   وتبيتُ تحت وسائد الغيد

أوَلستَ مني؟ إنني نَكِدٌ   ما بالُ حظّك غير منكود؟

زاحمتَ قلبي في محبته   وخرجتَ منها غيرَ معمود

أأبيتُ في نوحٍ وتسهيد وتبيت تحت وسائد الغيد؟

* * *

ديوان شعر، ملؤه غزل بين العذارى بات ينتقل[14]

أنفاسي الحرى تهيم على صفحاته، والحبّ والأمل

وستلتقي أنفاسهنّ بها وتحوم في جنباته القُبَلَ

ديوان شعر، ملؤه غزل بين العذارى بات ينتقل

بغداد 26 - 3 - 1944

يا هواي البكر

يا هواي البكر، دنيا ذكرياتي
كلُّها، غابت وراء البسماتِ

يا هواي البكر، قد أنسيتَني
ما تولى من غرام الناسياتِ

يا ربيعَ العمرِ، يا إشراقةً
في شبابي، يا حياةً في حياتي

يا دماً غذّى دمي، يا فرحةً
مزقتْ ثوبَ البلى عن فرحاتي

أنتَ جمَّعْتَ المنى في ساعةٍ
أفتديها بالسنين الماضياتِ

كنتُ قبل اليوم ظلّاً ضائعاً
خافيَ التطوافِ، محجوبَ السماتِ

باسطاً من هوةِ الماضي يدي
صارخاً، والبعدُ يوهي صرخاتي

كنت.. ماذا كنت؟ قبراً جائعاً
زادُه شعري ودامي أغنياتي

كنت.. ماذا كنت؟ ناراً عيشها
ميتة، يغتالُ نوري جذواتي!

يا غرامي، يا سنى فضَّ الدجى
يا خريراً طافَ في صمتِ الفلاةِ

أنت جمعتَ المنى في ساعةٍ
أفتديها بالسنين الماضياتِ

هذه عذراءُ شعري، هذه
أختُ روحي هذه كلُّ حياتي

كيف أضحتْ وهي قربي؟ من طوى
شقةً أعيى مداها خطواتي؟

الروابي، والصحارى، والضحى والنخيلُ الشمُّ، والغيدُ اللواتي

والعيونُ الحورُ.. غابتْ كلها عن عيونٍ بالأماني مترعاتِ

لا ترى عيناي، مما حفني غيرَ أضواءِ ابتسامٍ والتفاتِ

أيُّ صوتٍ نثَّ سحراً في دمي شاعريَّ اللحن، غضَّ النبراتِ!

«هات لي شعراً» فؤادي كلُّه صار أنغاماً عذاباً ساحرات

كلُّ جرحٍ في فؤادي شاعرٌ، صادحُ القيثارِ، مسحور اللهاة

الأغاريدُ الّتي رتّلتُها والخيالاتُ الّتي في أغنياتي

والسهولُ الفيحُ، والريحُ الّذي هزَّ روحي، والحسانُ الملهمات

تفتدي غمازَتيْنِ[15] انداحَتَا فوق خدّين استثارا حسراتي

زيّنتْ غمازتاكِ الملتقى لابتساماتِ الهوى بعد الشتاتِ

شعَّ فوق الثغرِ[16] منها كوكبٌ مرجحنُّ اللمحِ، محمرُّ الشياتِ[17]

وانتحى عينيكِ من تيارها مستفيضَ السيلِ، جمّ الدفقاتِ

حين ضاقَ الثغرُ عن إشراقةٍ صبَّها فوق العيونِ الساحراتِ

أترعَ العينين حتّى فاضتا بابتسامِ الحبِّ فوق الوجناتِ

يا يداً مرَّت كما رفَّ الندى فوق أزهارِ المصيفِ الظامئاتِ

قَلّبتْ ديوانَ شعري، صفحةً بعد أخرى، وهْوَ دنيا ذكرياتي

أيُّ جرحٍ ساكنٍ حركتِه　　　أيُّ قيثارٍ، نؤوم النغمات؟!

يا شفاهاً رفَّ شعري بينها　　　راقصاً في موكبٍ من همساتِ

أنتِ جمعتِ المنى في ساعةٍ　　　أفتديها بالسنين الماضياتِ

ذاك يومٌ غابَ عمري بعده　　　في دياجير البعادِ العابساتِ

عدتُ.. ماذا عدتُ؟ قبراً جائعاً　　　زَادُهُ شعري ودامي أغنياتي

عدتُ.. ماذا عدتُ؟ ناراً عيشها　　　ميتة، يغتالُ نوري جذواتي

كلّما غاب الهوى عن خاطري　　　عاد محفوفَ السُّرى بالذكرياتِ

راقصات الخطو، في مصباحها　　　شعلةٌ يوقِدْنها من خاطراتي

شعلةٌ طافتْ بثغري فاختفى　　　ضوؤها تحتَ الدموعِ الساكباتِ

بغداد بتاريخ 11/ 12/ 1945

لو أراها

لو أراها، فارقتْ قلبي إليها أغنياتي

وارتمتْ ما بينَ نهديها نشاوَى راقصات

لو أراها.. آه لو أدركتُ يوماً أمنياتي..

ماتت الشكوى على ثغرٍ تمادَى في الشكاةِ!

* * *

لو أراها.. كيف إقبالي عليها لو أراها؟

هل تراني أستطيع السير.. إن حثت خطاها؟

أم سيطغَى ذلك الوجدُ الّذي غشّى حياتي

كي يحيل الخطو - يوم الملتقى - آهاً فآها؟

* * *

أيُّ غابٍ ساهمِ الأفياء بسام النخيل

نائمٍ في الضفّةِ السكرَى على حلمٍ جميل

يجمع القلبين يوم الملتقى بعد الشتات

في ضحىً زانته ربَّاتُ الهوى أو في أصيل؟

* * *

أيُّ دربٍ عطرْت أنفاسَه ريح الشتاء؟

عجَّ بالنجوى.. بآهات العذارى.. بالغناءِ

بابتسامات الأحباء، بشوق العاشقات

ألتقيها فيه من بعد التجافي والتنائي

* * *

أيُّ مغنى شاعَ في أنسامِه عطرُ العذارى؟

أيّ روضٍ شاحبِ الساحاتِ ساجٍ كالصحارى؟

أيّ ليلٍ واجمِ الأفلاكِ، مسودِّ الشياتِ

تُسعِدُ اللقيا به قلباً جموحاً مستطارا

* * *

لو أراها.. ليتها يوماً تمنَّتْ لو تراني..

ليتها تشتاقُ بعضَ الشوقِ.. يا ويح الأماني!

أيُّ جدوى في أمانيكَ العذابِ الباسماتِ؟

كلما أشرقنَ غاضَ النورُ عيني واجتواني[18]

* * *

نبّئيني يا سماءَ الغيب أنباءً عِذابا

أسدلي - من بعدها - من دون عينيّ الحجابا:

أيّ يوم تجتلي من ليلِكِ الداجي حياتي:

علّني أدري: أما أفنيت بالغمّ الشبابا؟

* * *

حسبُ روحي «صورة» إنّ هزّني شوقٌ أراها

نَضَّرتها زهرةٌ قد أطلعتها وجنتاها..

وابتساماتُ وألحاظٌ تُساقي ذكرياتي

خمرةً يُفْدَى بآمالِ التلاقي ساقياها!!

بغداد بتاريخ 28/ 12/ 1945

بعد اللقاء

يا حُبُّ.. ما بالي سئمت الحياة؟ وما لأنفاسي أراها تضيق؟

ما للعيون الحور.. ما للشفاه ظلماءُ ما فيها سنىً أو بريق؟

ما للغرام العفّ، ما للفجور.. لا يرضيان الشاعر المستهام؟

أين الهوى؟ مات الهوى والشعور والقلب؟ أين القلب؟ ذاك الحطام

يا شعر.. ما بالي سئمت الغناء والكون حولي منصت يسمعُ

غنيت حتّى ضاق صدر الهواء فما لصوتٍ عنده مطمعُ

غنيت حتّى مسَّ قلبَ الحبيب شدوي، وحتى ثار فيه الهوى

أغفى فلما هجتُ فيه الوجيب أمسى لغيري واحتملتُ النوى

* * *

يا عمر.. والعشرون تقفو خطاي كالليل سوداءَ الخطى والثياب

هل هُنَّ لي وحدي؟ أما من سواي ماشٍ، كأن الريح خلف السحاب؟

يا عمر.. ما لي مطمع بالسنين حسبي ثلاث بعد ذاك العذاب

في الريف أقضيهن حتّى يحين يومي، فيؤويني إليه التراب

مأواي كوخ من جذوع النخيل في غابةٍ لفّاءَ بين التلال

أدعو إليه الصحب بعد الأصيل والليلِ، ما إن يعترينا ملال

يأتي عليَّ الصيفُ بعد الربيع والزهرُ بعد العاصف الزمهرير

والنكبة الهوجاءُ لا تستطيع إطفاء مصباحَ الشباب النضير

يا شعر.. أنت العمر.. أنت الحياه والحب، ليس الحب شيئاً سواك

فإنْ سمعت القلب يوماً دعاه فاعطف على قلب كئيب دعاك

* * *

يا قلب. بالأمس اشتهيتَ اللقاء واليوم كان الملتقى، كيف كان؟

واحسرتا، فيم الأسى والبكاء يا من بلغتَ الأمنياتِ الحسان؟

هاتان عيناها، يكاد الحنين يذكي سراجيه بتلك العيون

الدهر ينسى فيهما كلّ حين أعوامه الجذلى وبعض القرون

إنْ شاءتا أن تمنحاك الربيع فينانَ يندى، في ليالي الشتاء
عاد الهزيع الجون بعد الهزيع روضاً تحليه الزهور الوضاء

النظرة العجلى شهور طوال.. يحظى بها عمر المحبّ السعيد
والنظرة المكسال عند الوصال عام، يكر العام وهو الجديد

ما بال قلبي أثقلته الجراح؟ والأرض من تحتي أراها تميد؟
بَلْ ما لطرفي؟ أسبلته الرياح؟ أم غاص في غور الفؤاد البعيد؟

هذي يدي تنسلّ نحو النسيم من غير علمي، لا ملكتُ اليدا
وذاك ثغري عاد طيفاً يهيم.. بين ابتساماتٍ طواها الردى

هذا هواي البكر، عَبْرَ الطريق يدنو.. فيزداد اللظى والغرام
ما بال صدري باشتياقي يضيق؟ وما لروحي تلتظي بالأوام؟

* * *

يا ليت أقدامي تشق الثرى عن قبريَ الداجي فلا أنظرُ
واحسرتا.. ما بالها لا ترى؟ يا خيبةَ اللقيا.. أما تبصرُ؟

* * *

أين التحايا؟ أين أين السلام؟ يا ضيعةَ الآهات... أين اللقاء؟

أواه... ما لي لا أطيق الكلام مالي... وأنفاسي تهز الهواء؟

يا نظرة الأنثى علام البرود؟ فيم ازدراء العاشق الخائرِ؟

يا ثغرها الألاقَ.. فيم الصدود يا من رَوَى أغنيّةَ الشاعرِ!

يا للشفاه الصامتاتِ، العِذَاب يغفو عليهن الكلامُ المرير

كالكأسِ دفاقاً بمُرِّ الشراب مازته قبل الشرب عينُ الخبير

بيني وبين الحب قفرٌ بعيد من نعمةِ المالِ وجاهِ الأبِ

يا آهتي كُفِّي.. ومتْ يا نشيد شتَّان بين الطينِ والكوكبِ

بغداد 1946/1/5.

نشيدُ اللقاء

كان لي عند النوى ثارٌ، وقد أدركت ثاري

وانجلى ليلُ الشتاءِ الجونِ، عن نورٍ ونار..

أسكرتني ساعةُ اللقيا على غير انتظار

يا لوعدٍ صاغه المُرّانِ: شوقي واصطباري

واحتواه الصمت، مخفّي السرى دون الحوار

فَهْوَ ما لم يطوه اللفظ فيلقى في إسار..

وهو فوق الناس، والتاريخ، والحين المعار

ذلك الشهرُ الّذي أفنيتُه ساعاً فساعا

في ديار الحبِّ، لا يرضى لنا الدهر اجتماعا..

خِلْتُه ولّى سدى من عمري الداجي. وضاعا

كيف حالي، في غدٍ، إنْ قال أصحابي وداعا!؟

كيف حالي يوم لا قلب، إذا نادى، مطاعا؟

حين ألقي طرفيَّ السهرانَ: ما بين القفار..

في سكون الليل، لا يدري، بما ألقاه، دار

الدجى، والصفحةُ الرقطاء، والصمتُ الرهيب

والرمالُ السودُ، والنهر المغشى، والكثيب

أغنياتٌ تبعثُ الشكوى، صداهُنَّ الوجيب!

لَهْفَ روحي، يوم يخفيني، عن الناس الجنوب!

أين..، أين القريةُ السجواءُ والشطُّ الرحيب

من هوى للروحِ، في «بغداد» مشبوبِ الأوار؟

أنت داري، أنتِ يا بغداد، ليس الريف داري

آه لولا ملتقىً من غير ميعاد أتانا...

ضمَّ روحين، على طهر الهوى فاضَا حنانا

كيف كان الشوقُ، لولا الملتقى؟ بل كيف كانا؟

كيف؟ لا.. قد كنتُ جمَّ الشوقِ وحدي لا كلانا

ليت تلك الساعة العذراء تجتاحُ الزمانا...

لا ظلامُ الليل يثنيها، ولا ضوءُ النهار...

ليت أني أوقفُ الدنيا عليها في المدار!

ها هنا دارُ الهوى، يا عينُ، في هذي الرحاب

ها هنا سال الدم الجاري من القلب المذاب

في الأزاهيرِ، على العشب المندَّى، في التراب

فانفضي أرجاءَها القصوى، وهزِّي كلّ باب

وامزجي دمعي وأنفاسي على عطر الجواب

بالندَى، بالنسمة السكرى، بأنغام الهزار

بالربيع الطلق، بالأفق الموشَّى باصفرار!!

أيها الظمآنُ، يا طرفي، أأبصرتَ الغديرا؟

ذَوَّبَ الأنسامَ، في أمواجه النشوى، هديرا

والظلالَ الفيحَ، في أغواره، يسطعنَ نورا

والزهورَ الغينَ، بالأنداء يحرقنَ العبيرا

لو سقى - والعاصفاتُ الهوجُ يوقدنَ الهجيرا

في رمال الوهدةِ القفراء، ساحاتِ القفار

بثّ في أرجائها، أيار فواحَ العرار..

ما أرى؟ وافرحتا!! هذا هواي البكر لاحا

أيها القلبُ الّذي لم يعشق الغيدَ الملاحا

أو ينثّ الشعر عبَّاقَ الشذى، إلّا مزاحا

يا فراشاً كان يرتاد الخزامى والأقاحا،

هذه النار الّتي تهوَى، فلا تطوِ الجناحا

دون أن يرتدّ في ذاك اللظى بعضُ الغبار

واهياً، تلهو به ريحُ الصبَا بين الصحاري..

يا بناناً طاهراً يمتدُّ نحوي بالسلام..

نابضَ الهزاتِ بالشوق المخفّى.. والغرام

ليتني أبقيك في كفّي ساعاً كلّ عام!

عند ذاك الجدول الساجي.. بعيداً في الظلام

ليتني... حسبي مُنىً يا قلبُ، ما تطفي أوامي

أمنياتٌ جامحاتٌ الشأو، رعناءُ السفار!

هذه البيداءُ لا يسخو حصاها بالثمار!

يا شفاهاً عطرتْ بالبسمة الريَّى سؤالا...

كيف حالي؟ ساء - لو لم تسأليني أنت - حالا

سائلي عينيك، والتذكار عني، والخيالا

والأناشيد اللواتي فِضْنَ شوقاً وابتهالا

والمقاديرَ الّتي لم ترضَ لي إلّا ارتحالا..

وابتعاداً عنكِ والدنيا، إلى شرّ الديار

آه لو تدرينَ ما حالي على بُعْدِ المزار..

رُبَّ غابٍ كبلتْ أنسامَه شُمُّ التلال..

في ربوعِ الريفِ، مكتوم الضحى بين الظلال

شاحب الأيامِ والساعاتِ، مهدوم الدوالي

إن طواني في غدٍ، يا سوء ما يوحي خيالي!

رنّ في أنحائه صوتٌ ينادي كيف حالي

عن يميني هبَّ، من خلفي تناهى، عن يساري

من فروع الدوحة اللفّاء، من كلِّ انحدار..

حظٌّ شعري، عندك، الإيثار والحبُّ الجديد

والنوى، والصدُّ والنسيانُ، حظّي والجحود

ويحَ قلبي كلما وافاكِ لحنٌ أو نشيد...

نالَ منكِ السهدَ والآهاتِ، شاديهِ البعيد

إنّ شرَّ الظلمِ أنْ تَنْدَى من اللثم الورود..

والغصون الواهباتِ الورد تَصْلَى حَرَّ نار!!.

لهفَ روحي.. كيف تَلْقَيْنَ انتحابي بافترار

اتركيني أُغرق الدنيا بنبعِ الذكريات

ناسياً عينيَّ في تلك العيون الناعسات

آه لو هدهدتُها، قَبْلَ الكرى، بالقبلات

آه لو ذوبتُ في آبادِها السكرى حياتي

بين أحقابٍ نديات عِذَاب الأمسيات

غانياتٍ فوق شطآن نقيات البحار..

شاعَ في أرجائهن الصمتُ شفافَ الستار..

اللقاءُ البكر لا أنساه ما عاد الخريف!!

الضحى، والسفرةُ المطرابُ، والصحو الشفيف

والتفاتاتٌ يحييها، من القلب، الرفيف...

حبَّذا لو طال بالدنيا عليهن الوقوف!

أين أنغام على العشاق بالذكرى تطوف؟

صوتُكِ المغناجُ روَّاهُنَّ بالوجد المثار؟

أين نهر في خفاء الغاب منسيُّ المجاري؟

ذلك النهر الّذي أدنيتِ مني وَهْوَ ناء..

لاحَ لي ينثالُ، عذبا، من ينابيعِ الغناء!

لجّ في الأبعاد، منساباً إلى غير انتهاء..

والضفاف الغين[19] تطويهن آهاتُ الرعاء..

عابراتٍ، في سكون الريح، آمادَ الفضاءِ

حبذا نهر، به غنيتِ، يهتاج ادكاري!

يا «سواني»[20] آه لو أنّا جُمِعْنَا في جوار..

إنْ سجا ليل، وأغفى في ذراع الريح غاب..

وارتمى، في هالةِ البدر الموشاةِ، شهاب

خابياً يفنى.. كما يفنى على الماء الحباب

مثل مصباحٍ وراء الشط غشّاه الضباب

شعَّ وهو الفضة البيضاء في المجرى تذاب

واختفى يُلقي عليه البدرُ أثوابَ النضار

هاج لي شوقاً إلى واديك دفاقَ المجاري

تلك. تلك الضفةُ الخضراءُ.. ها إني أراها!

نضرتْها ليلةٌ قمراءُ، رفافٌ سناها..

والنجوم البيض، في الأمواج ذوَّبنَ الشفاها

مالئاتٍ غورك المسحورَ آها، ثمّ.. آها..

خاتماتٍ منه منسياً وراء الموج تاها!.!.

ليت أني كنتُ في ساحاتِه بعض الحجار!!.

في رباك الفيح ميلادي وفي السهلِ احتضاري

يا حياتي كلُّها، يا شقوةَ الروحِ المهان..

إن طواني عنك، دون الناسِ، أحداثُ الزمان

فاجعليني - كلّما رجَّعْتِ لحناً في «سواني» -

نَغْمةً، خفاّقةً، تفنى على صدر البيان!

أسمعيني صوتَكِ المطرابَ، تنثالُ الأماني

منه في قلبي، إذا غنيتُ في يوم انتصاري:

كان لي عند النوى ثار وقد أدركت ثاري!

بغداد 1946/4/7

لحنٌ جديد

أرعشِ الأوتارَ باللحن الجديد
إنّه اليوم المرجَّى.. يومُ عيدي

هذه الدنيا.. هوى مستنزف
قوة الشادي، وأنفاس النشيد

هذه الدنيا شبابٌ دافقٌ
في شبابي، وانبثاق في وجودي

إنه الطَرْفُ المغشَّى بالدجى
فضَّ عنه النورُ أختامَ الجمودِ

أرسل اللمح ارتعاشاً ظامئاً
يشربُ الآفاقَ، مجنونَ الصعودِ

حامَ فاستوفى نهاياتِ المَدَى
ناثراً حوليه أشلاءَ الحدودِ

هذه العذراءُ نبعٌ فائرٌ
بالتفاتاتِ الأماني والوعودِ

مَرَّغَ الماضي على أقدامِها
كلّ ما في ذكرياتي من خدودِ

نظرةٌ ملكتها فيها.. كَمَا
يملكُ النهرُ ابتسامات الورودِ

يا جناحاً في سمائي ضارباً
خافقاً آناً، وآناً في ركودِ

يا ندى ساقى سرابي فارتوى
منه جدبي وانتشى، واخضرَّ عودي

بِتُّ أخشى أن تشكّي وحشةً
بين آفاقي وأن تخفيك بيدِي

بِتُّ أخشى غدرةً عودتها
من صباباتي، وأيامي، وغيدي

يا فتاةَ اليومِ كوني مِنْ غدي رشفةَ الظامي ونبعَ المستزيدِ

راوحيني زهرةً مخبوءة في خريفي من نضيراتِ العهودِ

أنتِ حلمٌ من رقادي هاربٌ لاحَ لي في يقظتي بعدَ الشرودِ

الفراشُ المرتمي فوق الثرى ملّ مثواه المغشّى بالجليد

يا بقايا من جناحيه اخفقي واحملي نحو اللظى جسمَ الشهيد

ليت لي يا هذه الدنيا فماً لم يكبِّلْه ارتعاشي بالقيود

آه لولا رهبةٌ تحبو على سُلّمٍ من أضلع الشادي، عتيد

كلما شام الّتي غنّى بها أرجعَ الشكوى إلى الغور البعيد

طافَ بالنجوى على إصغائها لو أعانته انتفاضات القصيد

يا لموجٍ صاخبٍ مستأسرٍ في غديري ظالمِ الشاطي عنيد.

بغداد 1946

حبٌّ يموت

اليومَ.. بين مَصَارع الزَهَر   والصبحُ يطفئُ جانبَ القمرِ

حبي يموت.. وأنتِ لاهية   لم يدْرِ سمعُكِ ضجّةَ الخبر

الكوخة القفراء عن كثب   تلقي كآبتها على النهر..

والدوحةُ اللقّاءُ، رنَّحَهَا   أنّ الربيع يهمُّ بالسفر

والجدولُ المحزون قد سرقتْ   منه التألقَ، ظلّة الشجر

فكأنّ هذا الكونَ صنعُ يدي   ذوبتُ في جنباته عمري!!

اليوم أُوهِنُ كلّ خاطرةٍ   تجلو هواكِ، وكلّ مدكر

واليوم أكفرُ باللقاءِ وما   صبَّ اللقاءُ عليَّ من فِكَر..

واليوم أُطلِقُ من منابعه   ماضيَّ.. بين مخالب القدر

حتّى يضلّ بكل قاحلةٍ   تاه الزمان بها بلا أثر

نسيَ السراب زمانَ مولده   فيها وماتَ تنقلُ البصرِ

بين الصلالِ يضيع أوله   ويجفُّ آخره على الحجر

واليوم بين توهجِ السحب   وخبوّهِنَّ، وضيعةِ اللهب..

وتموُّجِ الأنغامِ في أفقٍ   ذاب الغناءُ به ولم يذَب،

والطير نازعةً إلى سكنٍ   عبر الفضاء تصيحُ من طرب

يَقْضي هوايَ.. وأنت ضاحكة   للنجمِ، والظلماتِ، والشهب

هو لو - علمتِ - سحابةٌ نفضت   عنها بقيةَ ضوئها الشحِب

هو صيحةٌ في الليل أطلقها   طيرٌ.. فَخَرَّ.. ومات في العشب

وهو الوداع، مسافرٌ تعِبٌ   ألقاه ثمّ مضى... ولم يؤب

هو زهرةٌ ضحكت فعاجلها   لفحُ الهجير، وجامعُ الحطب

وهو الشهيدُ على يديكِ هوَى   يبكي ويقذفُ بالدمِ السرب

مزقتِ بالطعناتِ جانبَه   وعصبتِ باصرتيْه بالذهب

الذكرياتُ غداً سأحرقها   في جامحٍ، حنقٍ، من الغضب

وأرجّعُ النغماتِ يلهمها   ريفٌ يفيض بفتنةٍ عجب!

واليومَ.. بين أزاهرِ الدُفُلِ   والريحِ ترعشهنَّ بالقُبَلِ..

والليلِ يختمُ بالسكونِ، على   غاب النخيلِ وموحشِ السبل

حبي يموت.. وأنت نائمةٌ   يلهو بخصركِ ساعِدُ الأمل

ما كان غير هوى وكلُّ هوى بين اثنتين معلقُ الأجل:

قلبان، إنْ خفقا معاً هَبطا روضاً يعلُّ ثراه بالقبل

وإذا استطار الوجدُ بعضهما خر الشقيُّ على شَفَا طلل،

وافاكِ ينطق بالجوى غَزِلٌ لا تقتليه بصامتِ الغَزَل!

أأظل أذكر منك ناسيةً وأعود أُثقل بالأسى رُسُلي؟

وأراك باخلة عليَّ بما جادَ البخيلُ به على عجل؟

أينَ الرسائلُ بتُّ أرقبها وأصبِّرُ الآهاتِ بالعلل؟

إنْ طاف بين جوانحي أملٌ أني أراكِ.. برئتُ من أملي

أعرضتِ عامدةً فما احتملتْ فيه الأنوثةَ عزةُ الرجل

* * *

واليومَ حيث تمرَّغ الحُلُمُ في ناظِريْنِ طواهما ألَمُ

مات الغرامُ فهل حلمتِ به أو سالَ منه على رؤاكِ دم؟

العاصفاتُ نسجنَ لي صوراً يمشي بهنَّ من الردى نغم

ألوانهنّ تشفُّ عن أرجٍ بؤسُ القبورِ عليه ينسجم

والعطر تنبعُ من نسائمه سودُ الشياتِ، وتولدُ الحمم

يبدينَ طيفَكِ حائراً شَحِباً تنزو، وتطفر، دونه الظُلَم

نادى.. فما صعدتْ على فمه إلّا مقاطع خانهن فم

فرفعتُ مصباحي، يفيض دماً أبصرتُ فيه دمي، ويضطرم

يا للذبال.. أكاد أعرفه.. ويكادُ يعرفه معي القلم

هذي رسائلُ حبِّيَ احترقتْ وأعزُّ شعري غاله العدم

ذاب الظلام فما رأيتُ سوى أنثى تناثَرُ حولها الرمم

تطوِي ذراعَ فتىً يقولُ لها: لا تذكريه.. وأُطفِئَ الحُلُم!

أبو الخصيب 1946/4/15

ما مات حبّي

...لا النأيُ أطفأ سَالِفَ الحُرَقِ في جانبيَّ، ولا يدُ الأرقِ

«أهواكِ» ما خمدتْ على شفتي أو ماتَ حبي، فاعذري نزقي

«أهواكِ» ملءُ جوانحي ودمي صوتٌ يظلُّ.. وينتهي رمقي

أنتِ الفضاءُ، فما سعتْ قدمٌ بي حيثُ كنتُ فغابَ عن طرقي!

قالوا: تَنقّلَ كالنسيمِ، فما يصفو هواه، وطافَ كالألقِ

هل للنسيم - على تنقُّلِه حُرَّ الوثاقِ، تَجَاوزُ الأفقِ؟

أنتِ الوجودُ فحيثما انطلقتْ بي مقلتانِ ملكتِ منطلقي!

سيان عندي.. متُّ من ظمأ - ما دمتُ عبدَ هواكِ - أو غرقِ

سيان عندي.. كنتُ في سَحَر - ما زلتِ أنتِ سمايَ - أو غسقِ

روحي فداؤكِ، بت راضيةً أني فديتُكِ.. أو على حنقِ!!

لا يغضبنَّكِ من أسير هوىً هزُّ القيودِ، وثورةُ القلقِ

فهو الحريص على الغَرامِ إذا ظنَّ الغرامَ قضَى.. فمن فَرَقِ[21]

أبو الخصيب 1946/4/16

اسم «لباب»

السمواتُ، بالسواد المذاب، ضائعاتُ المدى، فيا لاكتئابي

لم تطرْ خلفَ كلّ نجمٍ شرود نظراتي، وإثر كلّ شهاب..

وتطفْ في السماء، إلّا لكي ترسمَ بين الكواكب اسمَ «لباب»

وصلتْ بين كلّ نجمٍ ونجمٍ بشعاع من الهوى والشباب..

فَهْيَ في روضة من اسم الّتي تهوى، وفي مدرج وضيء الشعاب

كيف أنساكِ يا لباب وأسلوك وضوء النجوم ليس بخاب

كلما ارتادهنَّ طرفي، تذكرتك فاستتبع ادّكاري عذابي

وتجرعتُ من سناهن كأساً تنكأ الجرحَ في الفؤاد المصابِ

أين نهر النسيان يا أنجم التذكار يا من يهجن من أوصابي

يبدل القلب ماؤه العذب ورداً وشرابا، بمورد وشرابِ

* * *

ملأتْ سمعي باسمكِ العذب يا عذراء شعري، تنهداتُ الرباب...

فاسمك العذبُ كلّ ما تسمع الروح من الطير هائماً في الروابي

في سُرى كلّ نسمةٍ أو شعاعٍ   في لُغى كلّ جدول منساب

في حفيف النخيل من كلّ روضٍ   في اختلاج الشراع فوق العباب

واسألي السامرين كم بثُّ والليلُ   وضوء السماء، غض الأهاب

لا يعي مسمعايَ غيرَ حروفٍ   جمعاها فكانت اسم لباب

أنا أهواك لستُ أرجو على   الحبّ ثواباً، فإنّ حبي ثوابي

أبو الخصيب بتاريخ 6 حزيران 1944

زهرةٌ ذاوية[22]

أتحيين عند انتهاء الربيع وتذوينَ يوم احتضار الشتاء؟

كحبٍّ أتى بعد حين الشباب زواه الردى عن بلوغ الرجاء

كعذراء.. ما زال يشكو هواه إليها، فتىً جرعته الجفاء..

فلما سلاها وكان الفراق رمى قلبَها الحبُّ.. يا للشقاء

أتذوينَ؟ ما ظلّ دون الربيع ومغداه، إلّا نجوم المساء..

تمنيتُ يا أختُ لو تمسكين إلى مطلعِ الفجرِ، هذا الذماء..

* * *

تفردتِ كالشاعر المستهام إذا راح طَلْقَ الخطى في العراء

يجوب الصحارى صداه الرخيمُ فيهفو على الرمل صدرُ السماء

تلفت والغابُ قفر الجهاتِ، كئيباً يغني لحونَ الرثاء..

توافيك غربانُه بالنعيب وتأتيك أغصانُه بالبكاء..

إذا جالَ في جانبيه الأصيل بَرُودَ الخطى، عاصفيَّ الجواء

وأبصرت أوراقَه الذاويات أباديدُ يُثْقلنَ ركبَ الهواء

تذكرت بالشوق عهدَ الخريف   كما يذكرُ المبعدونَ اللقاء

لأشبهتِ آماليَ الظامئاتِ   إلى رشفةٍ من رحيق البقاء

تفتحنَ بعد ابتعاد الحبيب   وصوَّحْنَ؛ واحسرتا، حين جاء

نهر العذارى[23]

يا نهر، لولا منحناك وما يشابك من فروع

لاقتافت[24] البسمات، في عينيَّ، آثار الدموع[25]

* * *

حَجَّبْتَ، بالشأو البعيد تسدّ بابيه الظلال،

وجهاً تلاقى في محياه الوداعة والجمال

* * *

مرآتك السجواء[26]، منذ جلوتها تحت السماء،

ما لاح فيها مثل ذاك الوجه.. في ذاك الصفاء

* * *

إنْ أوقد الليل العميق، نجومه في جانبيك

لماحة الأضواء، تغمر بالأشعة ضفتيك

حدثت عنه النجم، والآهات يقطعن الخرير،[27]

والنجم يشكو، مثلما تشكو هواك، إلى الأثير

ناشدت ألحاظ الكواكب، وهي تخترق الظلام،

ألّا ينمن - وإن تشهّين الكرى - حتّى تنام

«أنتن أسعد ما أظلّ الكون[28]، يا زهر النجوم
أنتنّ أبصرتن ذاك الوجه، في الليل البهيم»

حتّى إذا ما رنَّح النجم الأخير سنا الصباح
فانقض، تحت القبّة الزرقاء، محترق[29] الجناح

وانساب في الوادي شتات الزارعين أو الرعاه[30]
فالجوّ تنبض في نسائمه الندية ألف آه

أصبحت فوق المعبر المهجور، أرقب منحناك
فأبوح بالشكوى.. وتسكت عن شكاتي ضفتاك

يا نهر (جيكور) الجميل، ومنتهى شكواك نور[31]،
لا الشمس مطفئة جواي، ولا الكواكب والبدور

لا الصبح يوهن لاعجات الليل والوجد المثار
في مقلتيَّ، ولا يهيض الليل أحقاد النهار

الفتنة السمراء تسرقها مياهك بعد حين:

الشعر والعينان.. والثغر المفلج.. والجبين[32]

فإذا الهجيرة أطلقتها زرقة الأفق البعيد

فالظلّ مقصوص الجناح يفرّ من عود لعود

والجوسق المستوحد، المهجور، في غاب النخيل[33]

تأوي إليه الغادة السمراء لاهبة الغليل

والدوحة اللفاء تحتبس البرودة في الظلال

مهد لأطفال الحقول، وملعب رحب المجال

سارت إليك بطيئة الخطوات، ذابلة الشفاه

جاءتك ظمأى.. بالبنان الرخص تغترف المياه

كم عدت مخمور الفؤاد بموعد المدّ القريب

جذلان أقتحم الظهيرة بالتطلّع والوثوب

التوت فوق الشاطئ الغربيّ، والسعف الصموت

لا يجهلان تنهداتي وهي بينهما... تموت

والغاب ساعتيَ الحبيبةُ.. من ظلالٍ عقرباها

كم أنبآني أنّ طرفي بعد حين قد يراها!

واليوم يسقي مدك العاتي أواخر كلّ جَزْر

لا ذاك يجلوها، ولا هذا بما أرجوه يجري

واليوم إن سكر الخرير وعاد يحتضن الجرارا

لم ألق عذرائي.. فكيف الصبر يا نهر العذارى؟

1946/4/28

المحبوبة المدنسة[34]

أتحبُّ خائنةً وأنتَ الشاعرُ؟ وتودّ هاويةً وأنتَ الطائرُ؟

أحببتها وجهلت كلّ مغيَّبٍ من فعلها، وكذا الغرام العاثرُ

مما يغص القلب في خفقاته، ويرد طرفي وَهْوَ باكٍ حائرُ..

أنّ الّتي خفق الفؤاد بحبّها عامين، دنّسها خليعٌ فاجرُ

أأحبها أسفاً وتحتَ ثيابها، من أمسها الدنسِ الوضيع، مقابرُ؟

ونواظر كانتْ نواظرَ للخنا والعارِ، صيغَ لها القصيدُ الطاهرُ

كانت تغضّ من اللذاذةِ بل كفى كم يستطير بك الخيالُ العاهرُ؟

يا من حُرمتَ على الهوى تقبيلها حيت ارتضيتَ بما يصيبُ الناظرُ

فيم الهوى العذريُّ؟ ويحك إنّها كانت وجالب عارِها تتآمرُ..

ورفعتُ للحمأ الدنيء عبادةً علويةً وأنا الذليلُ الصاغرُ

صاغ الخيالُ من الترابِ كواكبا فأفادها ألقاً، سناه الباهرُ

لولا اتباعي للخيالِ وجدتني وأنا ـ على ما شئتُ منها ـ قادرُ..

أواه «بَيْرُن»[35] أنتَ من عَرَفَ الهوى روحي فداؤك والهوى يا شاعرُ

الحب تقضيه المآربُ والمنى ما أمكنتك من الحبيب مقادرُ

لا أن تُحَرَّقَ لوعةً وصبابة وتذيبَ قلبك وهو غضٌّ زاهرُ..

شغفاً بغادرةٍ سواكَ ينالُ من ثمراتها ما بِتَّ عنه تزاور..

كم تخدع الشعراء روحانيةٌ الوهمُ حاكَ حجابها والخاطرُ

ما في رحاب الأرض من حوريةٍ أو في مداها الطلق روحٌ طاهرُ

أبو الخصيب - بتاريخ 1944/7/20

في يوم عابس

الريح تجأرُ بالشكاة إلى الجداول والنخيل

والسُّحْبُ واهية النقاب، تحفُّ بالصحو القتيل

تُلقي على الغاب الكئيب، عبوسةَ الضجر الملول

والشمس كالأمل البعيد يذوبُ في الشجن الهزيل

أو كالغرام يغيب خلفَ حوادثِ الدهر الثقيل

أو كالحياة تغورُ بين دموعِ ذي سقم، عليل

كالبدر يكسفه النهار، كنجمةٍ عند الأفول

* * *

ضاقت بيَ الدنيا، وضقتُ بها.. كأني في رحيل..

في وهدةٍ قفراءَ بُحَّ بجوها صوتُ الدليل

لا شيءَ لي، مما تناثر تحت عيني، في سبيلي

لا عاصفاتُ الريح، لا جردُ الأباطح والسهول

لا ظلمةُ الليلِ البعيدِ الغورِ، لا سحرُ الأصيل

لا نغْمَة الحادي تطير بها شجيات الهديل

حتّى السراب زواه عن عينيَّ ريان الغليل

فظللت، لا أملٌ يسامرني على الدرب الطويل

فيضيء ساعاتي... ولا ذكرى من الأمس الجميل

* * *

رباه والعشرون من عمري تسير إلى الذبول

سوداً، مكفنة الأهلة بالتنهد والعويل

كانت تمرّ جريحة الأيام، رعناء الخيول

ظلماء مطفأة السراج، كأنّها بعض الطلول...

كانت تمرُّ على الجراح السود في القلب العليل

فالجرح يهوي فوق جرحٍ والقتيلُ على قتيل

والنار تصلى حَرَّ نارٍ غير مطفأة الغليل

ماذا جنيتُ من الزمان سوى الكآبة والنحول؟

أو أرقب الليل الطويلَ يذوب في الصبح الطويل..!

وأتابع الشمسَ المرنّحةَ الشعاعِ. إلى الأفول..!

وأشيّعُ البدرَ السؤوم يغيب ما بين النخيل..!

لا مأملٌ لي بالكثير ولا رجاء بالقليل!؟؟

وأعد أيامي لأسْلِمَها إلى الهمّ الثقيل..؟

وأعيش محرومَ الفؤاد من الهوى عيشَ الذليل؟

وأسَرّحُ الطرف الكئيب من التلال إلى السهول..

لأصَعِّدَ الآهاتِ داميةً وأمعنُ في عويلي؟!

ضاقت بي الدنيا وضقت بها، كأني في رحيل..

في وهدةٍ قفراءَ بح بجوها صوت الدليل

أبو الخصيب بتاريخ 1946/1/31.

خواطرٌ حائرة

الجدولُ السلسالُ والظلُّ المرنّحُ بالمياه

والشاعر الهيمانُ يشرق بالوداعة ناظراه

يستشرف الأفقَ البعيد فيستحيل على مداه

روحاً محلقةً ولحناً يهمس الوادي صداه

ماذا وراءك يا حياه؟

تلك الغصونُ الشاحبات وقد ختمن على الحفيف

ينظرنَ ناحية الشتاء ويلتفتن إلى الخريف

فيرين في الأفقِ البعيدِ غضارةُ الصحو الشفيف

والموقدُ المجنون يرمقهن باللحظ المخيف..!

أإلى احتراق أم رفيف

تلك الغصون؟ سل الحياه

ذاك الجناح.. أما تراه يكاد يغرق في الفضاء؟

يطفو ويرسب، مثل نجم بين ومض وانطفاء

أو كالرجاء، لو أنّ في الأكوان أجمعها رجاء

ذاك الجناح، أ لِلْثرى هو في غدٍ أم للسماء؟

ما بين نشر وانطواء..

أكذاك شأنك يا حياه؟

يا للتلالِ.. أكاد أهتف دون وعيٍ بالسؤال:

ماذا وراءكِ؟ أهو نور ما وراءكِ أم ظلال؟

سهلٌ يطوف به النداء فلا يرجَّعُ، أم تلال؟؟

القبح خلف الشاهقات الشم غاب، أم الجمال

إنّ الحقيقة كالخيال!

والموت من صور الحياه..

تلك الزهور الذاويات أكنَّ يعرفن الغرام..؟

ما حبهن؟ نوىً وصدٌّ، أم عناق والتثام؟

والغدر - يا غدرَ الزهورِ!! أهنَّ يشبهن الأنام؟

الحب مصباحُ الحياة، فما لقلبي في ظلام؟

مالي حُرمت من الهيام؟

أوَلستُ زهراً يا حياه؟

يا دوحةً بين الرمال تكاد ترتشف الغدير،

إنْ نَشَّرَ الليلُ البهيمُ ذوائبَ النجم الأخير

بين الغصونِ الحالماتِ المصغياتِ إلى الهدير،

حتّى خفقنَ على المياه كخفقةِ النَفَسِ البهير -

ما حال عاشقك الصغير؟

هل كان يثبتُ في هواه؟

بالأمس كنتُ أفيض بالشِّعر النديِّ على تراب!!

فنفختُ من روح الربيع به ومن سحر الشباب

ظلَلْتُه زمناً بأجنحة الفراش وبالسحاب

واليوم أضحى ما غرستُ لِقىً لمنقار الغراب

وا حسرتاً لي؟ كيف خاب

في النبت ظنّي يا حياه؟

هو جدولٌ ضحلُ المياه يلوح ظلُّ النجمِ فيه

فتبين أبعادُ السماواتِ الفساح لناظريه

حتّى إذا بسط الأوامُ عليه أيدي وارديه

فر القرار من الأكُفّ وعاد يسقي شاربيه

طيناً... فليس يقول إيه[36]

غير المفجع في صداه

لست المفجع يا حياه!!

1947

مريضة في الربيع

«إلى صديقتها المريضة في الربيع»

أختاه.. كيف خبا ضياؤك والوجود يفيض نورا؟

عاد الربيع ندىً يذوب على السنابل، أو غديرا

عاد الربيع فراشةً بيضاءَ تسترق العبيرا..

حامت هنا.. وهفت هناك ـ تدغدغ الزهر النضيرا

وترف فوق الجدول الفضيّ.. أنداءً ونورا

عودي إليَّ، كما عهدتكِ، جدولاً مرح المياه..

متعانق الأمواج، ترعشه أناشيد الرعاه..

يجلو شقائقَ.. عربدت جذواتهنّ على الشفاه

يلثمن وهماً في الهواء.. يبث في دمها صداه

ضرّجنَ أنفاس النسيم فأظهرتهن المياه..

عودي إليَّ تحدث الساعات عن أمس الطروب

هل تذكرين ضحىً شفيفَ النور مكسالَ الطيوب؟

رحنا هناك.. هناك.. بين سنابل السهل الرطيب

وأنا.. وأنت.. و«من تشاء» مرنحون على السهوب

أنسيتِ أنتِ ولا أزال أعيش بالأمس الطروب؟

والجدولُ النعسانُ يلمع في غلائلَ من ضباب

نُسِجَتْ من النار الندية.. والأزاهر.. والسحاب

كالهالة القمراء يصبغها لظى نجمٍ مذاب

والغابَ عن بعد يموج.. كشاعر قَلِقَ الرغاب

أو طائرٍ نفضَ الجناح وراح يضرب في ضباب

هل تذكرين؟! يكاد ينفجر الصدى: (هل تذكرين)

جياشةَ الإيقاع.. تصهر ما تُصَادفُ، بالرنين

وقّادةً مثل الشهاب تشق آماد السنين

نقشتْ على أعجالهن[37] بأحرف اللهب الحزين

وتظلُّ مركبة الزمان تسوقها (هل تذكرين)

تلك الطبيعة في انتظاركِ.. وهي تهمس «يوم عيدي..

رقصتْ معطرةَ الخطى ساعاتُه.. رَقْصَ الورود..»

والساعةُ العذراءُ تسأل أختها لِمَ لَمْ تعودي!

والريح تبحث عن مياه النهر.. عن ظل الخدود

عن ثغركِ الطلقِ الضحوك يقول: هذا يوم عيدي!

أختاه.. بعدَ غدٍ إلى دفء الربيع سترجعان

وأظلُّ وحدي في شتاءٍ ليس يخضع للزمان

هيهاتَ.. لست بمن يعود إلى الجداول والجنان

أنا جدول ختم الجليد على خطاه بأفعوان!!

غلّ.. يكاد صليله المسموم يهتف: ترجعان

أنفاسي المتجمدات على ضفافي كالصخور

يصرعن أزهارَ الغرام بمنجل البرد النثير

هيهاتَ يصهر ظلهن كيان مائي، بالعبير!

لكنّ أنفاسي، إذا مازجن أنفاس الهجير

ذابت فزلزل سيلُها الفوَّارُ أقدامَ الصخور!

1947/4/18

في أخريات الربيع[38]

يا ضياءَ الحقول، يا غنوة الفلاح في الساجيات من أسحارهْ

أقبلي، فالربيع ما زال في الوادي، فبلّي صداكِ قبل احتضاره

لا تصيبُ العيونُ إلّا بقاياه، وغير الشرود من آثاره:

دوحةً عن جدولٍ تنفض الأفياءَ عنها وترتمي في قراره

وعلى كلّ ملعبٍ زهرةٌ غيناء فرَّت إليه من أيّاره

* * *

المساء الكئيب، والمعبرُ المهجورُ، والعابساتُ من أحجاره[39]

مصغياتٌ، تكاد من شدّة الإصغاء أن توهِمَ المدى بانفجاره

ترمق[40] الدربَ، كلما هبّت الريحُ وحفَّ العتيقُ من أشجاره

كما أذهل الربى نوحُ فلاحٍ يبثُّ النجوم شكوى نهاره

صاح: «يا ليلُ»، فاستفاق الصدى الغافي على السفح والذي في جواره

فإذا كلُّ ربوةٍ وهي[41] «يا ليل»... ونامَ الصدى على قيثاره!

أين منهنَّ ظل[42] أقدامك البيضاء بين الحشيش فوق اخضراره

مثلَ نجمين أفلتا من مدارينِ فجال الضياءُ في غير داره

أو فراشين أبيضين استفاقا يسرقان الرحيق من خماره!!

* * *

أنتِ في كلّ ظلةٍ [43]مَوعدٌ وسنانُ، ما زال يومُه في انتظاره

أمنيات

أمنياتٌ دغدغتْ حسّي بإغماء طروب

وانتشاء فاتر الآماد، نعسان الطيوب..

الأريج الدافئ المغناج، منغوم الهبوب

أسكرته الليلة القمراء في سهل رطيب

والنداء الهامس المسحور، لو أصغيت حينا،

طافَ بالأرواحِ أشواقاً ووافاها حنينا..

فاض ملءَ المخدعِ المعطارِ شدواً أو رنيناً

شفَّ حتّى قالت العذراء: ناداني حبيبي

أنت يا من تحسبُ الحبَّ اعتناقاً وابتساما

لا ضراماً يجعلُ الأرواحَ تشتاق الضراما

لا خلوداً خالقاً من هزّة القلبين عاما

مائجَ الأزهار دفّاقاً بشدو العندليب

أنت يا حلم الربيع الطل ما بين الأقاحي

يا عروساً في الأساطيرِ منداةَ الوشاح

نافضاً (طفلُ الهوى)[44] من فوقها ظلّ الجناح

وَهْيَ وسنى تسرقُ الأنفاسَ من ريح الجنوب

أقبلي.. فالضفّة القمراءُ تندَى بالفتور

والضياء الحالم استرخى على دفء العبير

مُرعشاً ظلّ الأزاهير النشاوى، في الغدير

أقبلي.. ما كانت القمراءُ كي لا تستجيبي

أسبلي، كالجدول المكسالِ، هاتيك الشعورا

واتركيها ترشف الأنسامَ والأضواءَ نورا

وليعبَّ الكوكبُ العربيدُ منهن العطورا

ذائباً فيهن... يدعو. يا نجوم الليل ذوبي!

ثمّ فيضي أغنياتٍ لا أعي منهن معنى..

ربما حدَّثْنَ عن آذار أو خبرنَ عنا..

ربما حركن في الدنيا مِنىً أو هجنَ حزنا!!

غير أني سامعٌ فيهن أنغامَ القلوب

ربما أطلقنَ في قلبي جناحَ الذكريات

ربما أَوْحَيْنَ لي بالخاطرات الموجعات

عن هواك البكر.. عن ماض خفي الحادثات

ربما أنطقنَ في ثغري سؤال المستريب؟

* * *

أرعشي، بالضمِّ والتقبيل، في ثغري سؤالا

كاد أن ينسابَ ملء الليل آهاتٍ طوالا

أحرقي ألفاظَه الحمراءَ بالنار اشتعالا

ربما كان انتحاراً لهوانا أن تجيبي

* * *

واهتفي، ولتهتف الدنيا إلى حين الصباح

اهتفي حتّى يهبَّ الطيرُ مطلولَ الجناح

باحثاً عن عاشقيْنِ استلقيا بين الأقاح:

«عانقيني يا إلهاتِ الهوى.. هذا حبيبي!!»

1947 - 2 - 3

أقداح وأحلام[45]

أنا لا أزال وفي يدي قدحي يا ليل.. أين تفرق الشرب؟

ما زلت أشربها، وأشربها حتّى ترنح أفقك الرحب

الشرق عُفِّر بالضباب فما يبدو، فأين سناك يا غرب؟

ما للنجوم غرقن - من سأم - في ضوئهنّ وكادت الشهب؟

أنا لا أزال وفي يدي قدحي يا ليل - أين تفرق الشرب؟

* * *

ألحان بالشهوات مصطخب حتّى يكاد بهنّ ينهار

وكأنّ مصباحيه من ضرج كفّان مدّهما لِيَ العار

كفّان!! بل ثغران قد صبغا بدم تدفق منه تيار

كأسان ملؤهما طلى عصرت من مهجتين رماهما الحب

أو مخلبان عليهما مزق حمراء تزعم أنّها قلب!!

* * *

الخمر جمعت الدهور، وما فيهن بين جوانب الحان[46]

يا ويحها! أسكرتُ أم سكرتْ أم نحن في السكرات سيّان؟

رمت العوالم والدهور على ثغري، وفوق يدي.. وأجفاني

كفّي تمدّ فما تناولني كأساً لعيني خمرها نهب

وأصافح الدنيا.. فيا عجبا البعدُ لانَ.. وأعرض القرب!

* * *

يا ليل أين تطوف بي قدمي؟ في أيّ منعرجٍ[47] من الظلم؟

تلك السبيل[48].. أكاد أعرفها! بالأمس خاصر طيفها حلمي!

هي غمد خنجرك الرهيب وقد جردته ومسحت عنه دمي

تلك السبيل[49]، على جوانبها تتمزّق الخطوات أو تكبو

تتثاءب الأجساد جائعة فيها... كما يتثاءب الذئب!

* * *

حسناء يلهب عريها ظمأي فأكاد أشربُ ذلك العريا

وأكاد أحْطِمُه فتحطمني عينان جائعتان، كالدنيا

غرستْ يدُ الحمَّى على فمها زهراً طوى شهواتها طيا[50]

إنْ فتحته بِحَرِّها شفة سكرى[51] يعربد فوقها ندب

رقص اللهيب على كمائمه ومشى الطلاء يهزه الوثب!

* * *

عين يرنح هدبها نفسي　　وفمٌ يقطع همسه الداء

ويدٌ على كتفي ملجلجة　　رباه.. ويك! أتلك حواء؟!

لا كنت آدمها ولا لفحت　　فردوسي الخمريِّ صحراء!

صوت النعاس يرن في أفقي　　فتذوب ناعسة به السحب

إنّ الفراش يقيك يا قدمي　　سوء العثار إذا دجى درب[52]

* * *

أنا حائرٌ... متوجف... قلق　　كالظلّ بين جوانب البحر [53]

المدّ قرّبني إلى شبحي　　والآن تبعدني يد الجزر

وأنا الضياء تخيفني دجن　　وأخاف أن سأضيع في الفجر

يا نوم كلُّ عوالمي حجب　　ولو التقيتك ذابت الحجب

وانثال من سهري على سهري　　ينبوعك المتثائب الرطب

* * *

أثملت بين جوانحي أملا　　ما كنت أعلم أنه أمل[54]

مثل الفراشةِ عاد[55] يحبسها　　دوح بذائب طلّه خضل

لولا خفوق جناحها غفلت　　بيض الأزاهر عنه والمقل

أنا من ظلالك بين أودية عذراء، كلّ مهادها[56] عشب

هام الضباب على جوانبها[57] طلّ الوشاح... كنجمة تخبو

* * *

أنا كوكبٌ ظمآن ترعشه نطف مؤرجة[58] من السحر[59]

أنا غير جسمي - عالمي حلم بكر الظلال، ولمحة عمري

قلبي تغرّب عن أحبّته وانسلّ من نغماته وتري

فإذا لثمت فغير خادعة باتت لكلّ مخادع تصبو

وإذا شدوت أرنّ، في أفقٍ عبر السماء، غنائي العذب

* * *

هو يا فؤادي طيفها مسحتْ عنه الترابَ أناملُ الغسق

هو غير تلك... أما ترى ألقا؟ هو من دمائك أنت من حرقي

هو غيرها... غدرت، وبادلني[60] حبي، وضمّد بالسنا أفقي

ومن المهازل أن يرى أمداً بين الخيانة والهوى هدب![61]

أين العوالم؟! كيف غيّرها نوم يرف وخاطر صب؟![62]

* * *

خفقت ذوائبها على شفتي وسنى، فأسكر عطرها نفسي

نهر من النفحات أرشفني ريحاً تريب مجامر الغلس

فكأنّ ناياً ضمخته يَدا آذارَ، ناغَمَ ليلةَ العرس

فغفا وما زالت ملاحِنُه ملء الفضاء، يعيدها الحب

أو أنّ سوسنةٌ يراقصها رجع الغناء، بشعرها تربو

* * *

يا قبلة أخذت على عجل أفدي بعمري ذلك العجلا[63]

الشعر سَتَّرَ بالظلال فمي فهوى على الوجنات واشتعلا

فعلى جوانبهنّ منه سنا يدعوه من جهل الهوى: خجلا

فضح احمرارك يا خدود فماً ما زال يفضحني بما يحبو

هو طفلك اللاهي ينازعه أبداً إلى زهراتك اللعب

* * *

يا جسم ذاك الطيف، يا شبحا من ذكرياتي، يا هوى خدعا[64]

لعناتي الحنقات ما برحت تعتاد خدرك والظلام معا

خفقت بأجنحة الغراب على عينيك تنشر حولك الفزعا

الصبح، صبحك، ضحك شامتة دام، وليلك مضجع ينبو

وإذا هلكت غداً.. فلا تجدي قبراً... ومزّق صدرك الذئب!

* * *

والبوم يملأ عشّه نتفاً من شعرك المتعفّر الضجر[65]

ويعود ثغرك للذباب لقى ويداك مثقلتان بالحجر!

لا تدفعان أذاه عن شفة بالأمس أخرس لغوها وتري

وليسق من دمك الخبيث غداً دوح تعشّش فوقه الغرب[66]

تأوي الصلال[67] إلى جوانبه غرثى... ويعوي تحته الكلب

* * *

ويعود، من خشباته، نزق جان، بمقبض خنجر دام[68]

ويعد منه سرير زانية تهوي فتثقله بآثام

وتظلّ أعواد المشانق من أعواده، كُسِيتْ بأجسام

حتّى إذا عصف الذبول به وهوى عليه المعول العضب

كان الوقود لقدر ساحرة بين المقابر شأنها القشب[69]

(14 - 12 - 1946)

عاشقُ الوهم

طيفٌ أزاحتْه عن جفنيكَ عذراءُ   والصبحُ فوق السهولِ الغين أنداء

والنجم ينسابُ في ماء الغدير صدىً   مسراه ومضٌ وموسيقاه لألاءُ....

طيفٌ مضى مثلما ذاب السحابُ على   صحْراءَ... فانثالَ من أهدابِكَ الماء

خانتك حواء فاستبكِ الفؤادَ لظىً   إنْ كنتَ أوّلَ من خانته حوّاء!

يا عاشقَ الوهم في جثمانِ غادرةٍ   هل تُنبتُ النرجسَ المعطارَ صحراء؟

أصبحتَ تجري وراء العاطفات دماً   ظمآنَ ما بَلّ من ناريه إرواء

يسري إلى الواحة الريّا ويسبقه   حَرُّ الغليلِ إليها.. فهي جدباء!

واليوم هَدَّأتَ من تلك الدماء، فما   أبصرتَ؟ أين الندامى والأحباء

كالجدول الثائر الدفاق منطلقاً   من شاطئيه وقد ساقته أنواء!!

أهوَى على الجدول النائي يعانقه   فالضفّتان ارتعاشاتٌ وإيماء..

تستقبل القبة الزرقاء بينهما   موشيةً بالظلالِ الفيحِ جلواء

والجدولان انثيالٌ ليسَ توقفه،   في لجّةِ الشاطئ المغمور لفاء..

حتّى إذا استوقفته الشمسُ طالعةً   من مخدع الشرق واسترضته أضواء

واستذكر الماءُ، في الشطين زنبقةً | غرقَى لها في هديرِ الموجِ إصغاء
واهتاجت الجدولَ الطاغي متيمةٌ | من سامرِ النخل عبر الشطّ فرعاء
ذاب اشتياقاً إلى مجراه، واحترقتْ | أمواجه من هواها فهي حمراء
والجدولان انثيالان استحثهما | روحانِ: راضٍ بما يلقى ومستاء
عادا ودون التلاقي من ضفافهما | شتى موانع أدناهُنَّ شمّاء
حاشاكِ حاشاكِ يا نفسي فما خُلِقتْ | للحبِّ والشاعر الموهوب رعناء
أنتِ الفراشةُ ما تهوَى سوى لهبٍ | فليعشق الدمَ واللحمَ الأخساء
وليعبثوا بالنهودِ المائجاتِ على | صدر من القلب خالٍ، مثلما شاؤوا
وليرشفِ الطلّ من تلك الشفاه فمٌ | لم يُذْكِ فيه اللهيبَ الخالدَ الناء
ولتشهدِ الكاعبُ الحسناءُ مصرعَها | لو أنّها في الغد المنكود حسناء!

بغداد/1947/1/26

اللقاءُ الشاحب

يا قلب.. بالأمس اشتهيت اللقاء
واليوم كان الملتقى كيف كان؟
وا حسرتا.. فيم الأسى والبكاء
يا من بلغت الأمنيات الحسان؟

ب. س

الجناحُ الطليقُ دونَ انتهاءٍ، فارَقَ الوكرَ هازئاً بالدماءِ

والجناح الطليق والجرح، ما زالا يرفان في رحابِ الفضاء

والجناح الطليق، والجرح، والأنواء.. فوق استطاعةِ الأنواء

فاصدحي يا قياثري - رغم أنّ الحبَّ ولّى - بأغنيات اللقاء!

شيعي، النعش، بالزهور، إلى اللحد.. وعودي بضحكةِ استهزاء

لستُ مَنْ ضَيَّعَ الوفاء ولكنّي وهبت «الحياةَ» كلّ الوفاء

أُضَيْعُ الدمعِ ما جرى فوق رمسٍ صامتٍ غير حافلٍ بالبكاء

غاب عن مقلتي ريفي وأضحى جوسقي لا يُظِلُّ غيرَ الهواء

أيها الجدولُ الّذي كان يلقاني على ضفّتيه نجمُ المساء..

أيها الدوحُ يحرقُ الصيفُ ما يَلْقَى على الأرض من خيالِ الشتاء

كنتُ في جنّةٍ من الريفِ، لولا جذوةٌ من هوىً بغير انطفاء

الدجى والنخيل، والسامر المطراب، والناي وانسكاب الغناء

وارتعاشُ النجوم في قاع كأسي وارتعاشي بفائرٍ من دمائي

وانبجاسُ الدموع في عيني العبرى .. وإخفاؤهن خلف الأناء

فاعذرِ الطرفَ كلما جفت الأقداحُ فامتدَّ وجهةَ (الزوراء)[70]..

واعذرِ العاشقَ المعَنَّى إذا باحَ، بما يعتريه، للصهباء!!

ربما طاف بي، وقد نامت الأفياءُ فوق الوسادةِ الخضراء

هاتفٌ أنطقَ السكونَ وأحيى وتراً في مقابرِ الأَصداء!

من وراء النخيل، يعلو.. وقد ذاب بلفحِ الهجيرة الحمراء

صوتُها ذاكَ.. جنحته ارتعاشاتٌ تحدَّيْنَ عاصفاتِ التنائي

فهْوَ خفقُ الشراع نادَى غريباً حائراً في الجزيرة القفراء

والخرير الطروب في حلْمِ ظمآنَ تهاوى على الثرى من عياء

والحداء البعيد تُلقِي به البيداءُ في سَمْعِ تائهٍ في عماء

والغناء الشرود وافَى به الموتى صدى عابرٌ من الأحياء

والحفيف الوليد أصغَى إليه جدولٌ جمدتْه ريحُ الشتاء

والجناح الّذي يرفُّ.. فيعطو[71] أزغبَ الريش بعد طولِ الرجاء

قرب الشوق من لغاها، وأدنى من خطاها توهمي وافترائي

ما دخانُ الشقيقِ[72] من (فارسَ) البيضاءِ ملءَ المجامرِ البيضاء

فاح فانجابَ عن عيونِ السكارى عالمٌ حاقدُ على الأشقياء

واستفاض الوجود بالعطرِ والأطيافِ يسن في شفيف الجواء

وانطوى ساعد على خصرِ عذراءَ سَرَتْ في غلالةٍ من هباء

وانتشى لاثمٌ.. وأهوَى على نهدٍ من النور مولَعٌ بالنساء

ما دخان الشقيق من (فارس) البيضاء ملءَ المجامر البيضاء

يمنحُ الناشقينَ ما تمنحُ المشتاقَ أوهامُ حبّه من عزاء!

أصبح الريف دارَها فهي روحٌ خافق فوق ساعدِي كالضياء:

همسها وارتماؤها في ذراعيَّ، وهمسي.. وصرختي.. وارتمائي!

منَّة يا خيال.. هيهاتَ أنساها، ولولاك.. أين كان التجائي؟

منّة يا خيال أن يصبحَ النائي ببغدادَ وهو في (الفيحاء)[73]

منّة يا خيال أن يلثم النجم اندفاقاتِ نوره ثغرُ ماء!

عدتُ.. بل عادتِ الجراحُ الدوامي   فاحذري لمسَهنَّ قبل الشفاء

لا أريدُ الضمادَ من هذه الأيدي   فإنّ الضمادَ من كبريائي

لا أريد الضماد منهن.. حسبي   نجوة من تحرّشٍ واعتداء

كنت إنْ أفرغَ ارتكاضُ الليالي   أكؤسَ الصبر أترعَتْهَا دمائي

فاعذريني إذا تشوقتُ ـ ما تحلو   ليَ الكأسُ من يدٍ شلّاءِ

كيف أشتاقُ حين لا دارها داري،   وأجفو وناظراها إزائي؟؟

كيف يهتاجني خريرٌ وأجفو   جدولاً؟ ليس ذاك شأنُ الظماء

يا لقاءً هوتْ له الكأسُ من كفّي   فأدمى حطامها من إبائي

أنت أخرستَ صيحةَ الشوقِ في   ثغري وخيّبتَ مأملي باللقاء

حَرَّكَ الوجدُ من يدي فهي تمتدُّ..   فلا تلتقي بغيرِ الهواء

والتحايا[74] على فمي ذاهلاتٌ   يابساتُ الرنين فوق «المساء»

أين أين السلام ينساب في عينيكِ   قبلَ انطلاقه لالتقائي؟؟

أين يمناكِ وهي تهتز في يمنايَ   لحناً من الهوى والوفاء؟؟

وانبساطُ الأكُفِّ بالأصفر الرنّان   غيرُ انبساطِها بالرجاء

والتقاءُ العيونِ في قاعِ كأسٍ   أينُ منه التقاؤها في السماء؟!

شاحبٌ ذلك اللقى فكفّي　　　عن حديثٍ مرنَّقٍ بالرياء

اسكتي.. حسبُكِ.. اسكتي، إنّ عيني　　　تلمحُ الموتَ خلف ذاك الطلاء!

اهزئي.. واعبثي بقلبي.. فما أنتِ　　　سوى غادةٍ ككلِّ النساء

أنتِ.. ما أنتِ؟ عابرٌ في طريقي　　　لاحَ لي ثَمّ غابَ فيما ورائي

كنتُ أدعوكِ فتنةَ الشِّعرِ،　　　واليوم سأدعوكِ فتنةَ الأغنياء

هانَ قلبٌ غشاؤه أصفرُ التبرِ　　　ودقّاتُه رنينُ الغشاء!

إصدحي يا قياثري.. أنصت　　　الكونُ انتظاراً لنغْمةٍ عذراء

إصدحي!! قبضةُ الخلودِ ستهوي،　　　بعدَ حين، على قيودِ الفناء!

نبئي ذلك الحطام الّذي أولتْه　　　روحاً ضلالةُ الشعراء

أنني قد نثرتُ زهري على أرضي..　　　وأطلقت بلبلي في سمائي!

.1946/10/15

عينان

«إلى ذات العينين اللّتين لا يعرف لونهما»

نامَ في مُقلتَيْكِ بحران ينثالان بالدفءِ، والندى، والضياءِ

بالضباب الشفيف يَفْنَى شعاعُ البدرِ فيه.. وناسماتُ الهواء

يلثم الموج راعشاً خافقَ الأنفاس.. حتّى يذوب دون ارتواء

أرشفي ناظريَّ دفء العذارى وانبثاق الهوى، ولون السماء

قطرة أو أقل. ثمّ اتركيني ناعس الحسّ.. خادر الأعضاء

ذاهلاً.. مثل كوكب رنّحته نسمة.. في الغدير.. عند المساء

إنّ في مُقلتيكِ دنيا من الأحلام بالحبّ، والنوى، واللقاء:

الأماسيُّ، والحبيبان، والساعاتُ يهربن قبل ريِّ الظماء

قبل أن تحرق الشفاه التقاءً وابتعاداً مرنحاً بالتقاء

قبل أن تمس السموات والآبادُ بعض العناق.. بعض الغناء

خفقة ترتمي على خفقة سكرى.. وقلباً لإلفه في ارتماء!

ذلك اللون.. ذلك السرّ في العينين.. ماذا وراء ذاك الخفاء؟

الدجى، والمروج في الضحوة السجواء، والبحر، ذوبت في هباء

في سماويْن تشربان السمواتِ بكأسين صيغتا من نقاء

هذه الذكريات يلمحن في عينيكِ ما بين ومضةٍ وانطفاء..

هنَّ يرقصن ذلك اللون أو هذا على ناظريك دون انتهاء

فَهْوَ لونُ الحياة هيهات يُدرى وَهْوَ لونُ السراب في الصحراء!

1946/12/23

هل كانَ حبّاً[75]

هل تسمين الّذي ألقى هياما؟

أم جنوناً بالأماني، أم غراما؟

ما يكون الحبّ؟! نوحاً وابتساما؟

أم خفوق الأضلع الحرى، إذا حان التلاقي

بين عينينا.. فأطرقت، فراراً باشتياقي

عن سماءٍ ليس تسقيني، إذا ما

جئتها مستسقياً، إلّا أواما؟[76]

هل يكون الحبّ أنّي[77]

بتُّ عبداً للتمنّي!؟

أم هو الحب إطراح الأمنيات

والتقاء الثغر بالثغر، ونسيان الحياة؟

واختفاء العين في العين انتشاء

كانثيال عاد يفنى في هدير

أو كظل في غدير...

أمس.. بالأمس التقينا في سفار[78]

هاج ذكرى كاد ينساها وينساني زماني

كان يوم آمنتْ فيه الآماني بالأماني

كان يوم فكّ عن ساعاته غلّ المدار [79]

ثمّ أمسى تحت أقدام الليالي

مثل جرح في الرمال

داسه الركب وسارا...

يومك المرموق... لا يوم تقضّى قبل عام[80]

فاسمعيني، فالأماني كلها أن تسمعيني:

أذكرتني فرحة اللقيا بصهبائي وجامي

آن أن تحسى على نخب العيون!

بتّ أسقاها دهاما

أحسب الشرب اعتناقا

بيننا، هل كان حبّاً ما أعاني؟

العيون الحور، لو أصبحن ظلّاً في شرابي

جفّت الأقداح في أيدي صحابي

دون أن يحظين حتّى بالحباب

هيئي يا كأس من حافاتك السكرى مكانا

تتلاقى فيه يوماً شفتانا

في خفوق والتهاب

وابتعاد شاع في آفاقه ظلّ اقتراب!

أهي حب كلّ هاتيك الأماني؟[81]

أم رؤى سكران مجنون اللغى طلق المعاني[82]

غارق الألحاظ في غور من الأقداح... ناء

راسم بالإصبع الحمقاء، في عرض الفضاء

كلّ أسماء الحبيبات الحسان

كلما نادى... أتاه الساقيان

بالطلى آناً... وآناً بالأغاني؟

كم تمنى قلبي المكلوم لو لم تستجيبي

من بعيد للهوى أو من قريب

آه لو لم تعرفي، قبل التلاقي من حبيب!

أي ثغر مسّ هاتيك الشفاها

ساكباً شكواه آهاً ثمّ آها؟؟

غير أنّي جاهل معنى سؤالي عن هواها

أهو شيء من هواها... يا هواها؟!

أحسد الضوء الطروبا

موشكاً، مما يلاقي، أن يذوبا

في رباط أوسع الشعر التثاما

السماء البكر من ألوانه آناً وآنا

لا ينيل الطرف إلّا أرجوانا

ليت قلبي لمعة من ذلك الضوء السجين.

أهو حبٌّ كلّ هذا؟؟ خبريني!

بغداد 1946/11/29

السائلةُ السوداء

ليتَ الخليّ ومنه شكواكِ — أصماه خطبُكِ حين أصماكِ

سوداءُ ويحك أيُّ فاجعةٍ — سوداءَ تكمنُ تحت مرآكِ!

يا من تَهضَّمها، على كبر، — فقر يكرُّ بقلب سفّاكِ

فلواتُ (أفريقيّة) انتفضتْ — لمّا تَردَّدَ صوتُكِ الباكي

جُنَّتْ مغاورُها لِمَا سمعتْ — وهفتْ خمائلها للقياكِ

وبكلّ منعطفٍ بكى أثرٌ — قد أرضعتْه العيشَ رجلاكِ

فعلى الغديرِ غشاوةٌ عبثتْ — بالموجِ فهو مفجَّعٌ شاكِ

وعلى الأزاهر هجعةٌ ودمٌ — ساجٍ تَطَلَّعُ منه عيناكِ

والغاب هزَّ جناحَ طائره — جرحٌ تمرّ عليه كفّاكِ

وجرتْ دموعك في دجى هرمٍ — واهي السماء، بناه خدّاكِ

* * *

يا من تمدُّ يداً لمن عَبَرا — وتظلُّ تتبعُ شخصَه النظرا

يا من تعد خطىً تمرّ بها — شتّى تزعزع صبر من صبرا

ما بينَ لاهيةٍ، مرنحةٍ   من فرحةٍ، جلبتْ لها الكدرا

وبطيئةٍ كسلى، يُنقّلها   واهي الفؤاد يعاتبُ القدرا

ما بينَ عاجلةٍ إذا اقتربتْ   منها تسلَّلَ ربُّها حذرا

وشجيةٍ وقفتْ بجانبها   لتنالَ من وقفاتها ثمرا

يا قصةً دميتْ ومرَّ بها   قلبُ الغنيِّ ضحّى فما شعرا

حركتِ خافقَ شاعرٍ حنقٍ   فمضى يبث الشعر مستعرا

وأقامها حرباً مُضرّجةً   تُصمي القساةَ وتفلقُ الحجرا

وتهزُّ بابَ القصرِ صارخةً   هوجاءَ تقذف حولها الشرّرا

* * *

بالأمسِ كنتِ ضحيةَ الرقّ   واليومَ أنتِ ضحيةُ العتقِ

الرقُّ زالَ فأنتِ مُطْلَقَةٌ   في عالمٍ متهلّلِ الأفْقِ

السيدُ القاسي غدا حُلُماً   والقيدُ لانَ لقبضةِ الحقِّ

وشقيتِ أنتِ، فأيّ فاجعة   صَدَعتْ فؤادَكِ يا ابنةَ الشرقِ؟

يا من عريتِ وأنتِ خالعةٌ   عن منكبيكِ مطارفَ الرقِّ

يا من ظمئتِ وأنتِ عائفةٌ   كأسَ العبيدِ وذُلّ ما تسقي

يا من سغبتِ وأنتِ تاركةٌ   زادَ الأسير بغير ما شوق

الرقُّ فجَّر راحتيكِ دماً يغلي، وصاحَ تناولي رزقي

والعتقُ مهلكةٌ، معالمها سودٌ، تعجُّ بكل ما يُشقي

غلّان مضطرمان ما اختلفا يغريهما بك ألأمُ الخلْقِ

* * *

يا من رأيتُ بحالها حالي ورثيتُها فرثيتُ آمالي

إنّا لمثلكِ في مواطننا نشقَى وينعمُ كلُّ محتالِ

نحن العبيد تبيعُنا أممٌ غشمى، بمالٍ خابَ من مالِ

شرقٌ يبيع لمغرب جشع خالي الجوانح، فارغ البالِ

ومتوَّجانِ تهادَيا درراً غواصُهُنَّ دفينُ أسمال

وَلّى شبابُكِ ما انتفعتِ به وذوى ربيعُ شبابنا الحالي

ما بينَ مغتصبٍ يجرِّعُنا كأسَ الهوان وقلبُه خالي

وأخي ثراءٍ لا تحركه حسراتُ زرّاعٍ وعمّالِ

لولاهما لأمنتِ مسغبةً تخشى، وبتِّ بخير ما حالِ

لولاهما لخلا ثَرَى وطني من كادحينَ سدىً، وسوَّالِ

بغداد عام 1945

حاطم الأغلال

«عمَّت الولايات المتحدة الأميركية، موجة عارمة من اضطهاد الزنوج فأعدموا لغير ما سبب، وطوردوا دون جريرة منهم - وتألف وفد من الزنوج يترأسه المغني الزنجي الشهير «روبسن» - قابل ترومان واحتجّ عليه فإلى الفنان الغاضب، الثائر على الظالمين، إلى روبسن، أرفع هذه القصيدة!».

املأ الكونَ اربداداً واضطراما

(يا سواداً) سامه الخسفُ الحِماما

يا زنوداً خلّفت شمسُ الضحى

فوقها، من نورها الحامي، ظلاما

أطلعي من ليلكِ الفجرَ الّذي

يترع الدنيا صفاءً وسلاما

الدم الحرُّ الّذي فيكَ، انتضى

من مذلات الأرقاء الحساما

خاطبي الجلّادَ، يوم الملتقى

واجعلي بارودك الفظ كلاما..

ذلك الطاغي أما هاجَ الصدى

منه صوتٌ، والوغى تذكي ضراما؟

وادَّعى - يا بعدَ ما كان ادعى

أنّه المنْجِي من الذلّ الأناما؟!

نصره الموعودُ عرسٌ ضاحكٌ

للتآخي! ليت ذاكَ العرس داما!

حاطم الأغلالِ - يا للمنتهى -

صاغ غِلّاً ثانياً ذاك الحطاما!

قصة (العِرْقِ) انطوى سِفْرٌ لها

تحت أقدام الثكالى واليتامى

أيهذا النابشُ القبر الّذي

ضمَّ «هاماتٍ» ملأنَ الكون هاما

لستَ بالمحيي يداً سفاحةً

أوسعتها قبضةُ (الحقِّ) انتقاما

قصة (اللون) الّتي استحدثْتَها

قد تحيلُ الأبيضَ الصافي قتاما

غابُ «أفريقية» السمراء غاما

من خطوبٍ شرّدت عنه المناما

ودّ لو أنّ الثرى - في ساحِه -

جامحُ البارودِ يغتال اللئاما..

والحصا، في كلّ مجرى ناغم،

من رصاصٍ يفجرُ اللحنَ احتداما

والغصون استرقصتْها هبّةٌ

للصَبا، عادت قسيّا وسهاما!

همهم الدوحُ المندَّى، والسنا

ينزعُ الطلّ اختلاساً واهتضاما،:

«إيه يا شمس اتركي حمرَ الخطى

في مراقيها الفسيحات نياما...

واسمعي شكوى من الشرق، امتطى

لفحُهَا من ذروةِ الغيظِ السناما!

فيم هيأت «الطلاء المجتوى!»

تابعاً بين الرحاب الجون (حاما)؟

أهْوَ ختمٌ خلْفَه الرقُّ اختفى؟

أم وقاءٌ يقهر الموت الزؤاما؟»

أيها الشادي[83] وقد بات الهوى

يُرعشُ الأنخابَ في أيدي الندامى

يا سليلَ الغابةِ الثكلى بكى

قلبها السمح السليل المستضاما

غَنِّ باللحن المدمَّى، واللظى

يحرقُ الأجسادَ - لا ريح الخزامى

واشتكِ الجورَ الّذي يُرْمَى به

قومُكَ الأحرارُ لا تشكُ الغراما

أين صاحٍ عاد لا يلْقَى هوىً

من سقيمٍ عادَ لا يلقَى طعاما؟!

فاروِ، لا عنْ مخدعٍ ظلّ الشذى

حائراً يرعى «ملاكاً» فيه ناما..

واحكِ، لا عن غانيات نُزَّقٍ

يتطارحن اعتناقاً والتثاما...

لا.. فما أبقى صليل القيد في

مسمعِ المأسورِ للسلوى مقاما

فاترك اللحنَ «الموشّى» للغنى

والطغاة الصيد يهتاجُ العراما

إنك الحرُّ الّذي لا يرتجي

مِنْ يَدَيْ جلّادِه القاسي، وساما

إنك الجرحُ الّذي لا يحتمي

بالمُدَى يمتاح منهن التئاما..

أيها الشادي وقد راح الردى

مُسْلِماً للأهوجِ الفظِّ الزماما.

فَجِّرِ الألحانَ من ينبوعها:

مهجةُ الطاوي، وأضلاعُ الأيامى

هذه الألحانُ، خيرُ الفنِّ ما

حرّكَ المأسورَ واهتاج المُضَامَا

نحن في حالين ساوَى منهما

ظالمٌ سام الملايين الحماما

نحن في حالين ساوى منهما

أنّ للّيل انتهاءً وانصراما

الزنودُ استنهضتها هزّةٌ

بعد حينٍ تترك الطاغي حطاما!

1946

أهواء...84

«إلى المنتظرة...»

أطلي على طرفي الدامعِ — خيالاً من الكوكب الساطعِ

وظلاً من الأغصن اللاعبات — على ضفّة الجدول الوادع

وطوفي أناشيد في خاطري — يناغين من حبي الضائع

يفجّرن من قلبي المستفيض — ويقطرن في قلبي السامع!

* * *

لعينيك للكوكبين اللذين — يصبان في ناظري الضياء

لنبعين، كالدهر، لا ينضبان — ولا يسقيان الحيارى الظماء

لعينيك ينثال بالأغنيات — فؤاد أطال انثيال الدماء

يود إذا ما دعاك اللسان — على البعد، لو ذاب فيه النداء

أحقاً أناديك؟ ماذا أقول؟ — أأدعو الّتي ما عرفت اسمها؟

وأنت انبثاق وراء الشعور — ودنيا تحوك الطلى وهمها

وروح.. بعيداً، وراء الضباب أضاع انحدار الدجى جسمها

نعم.. بت أدعوك.. أنت الحياة فيا فرحتا! قد عرفت اسمها

* * *

يطول انتظاري لعلّي أراك لعلّي ألاقيك بين البشر

سألقاك.. لا بدّ لي أن أراك وإن كان بالناظر المحتضر!

فديت الّتي صورتها مناي فأضحت أماني، تلك الصور!

أطلي على من حباك الحياة فأصبحت حسناء ملء النظر!

أطلي فتاة الهوى والخيال بسحر العذارى على الخالقِ..

بعشرين من ريقات السنين عبرن المدارات في خافقي

بعشرين كُلاً وهبتُ الربيع وما فيه، من عمريَ العاشقِ

فما ظلّ إلّا ربيع صغير أخبيه للموعد الرائقِ

سأروي على مسمعيك الغداة أحاديث سمّيتهن الهوى!

وأنباء قلب غريق السراب، شقيّ التداني، كئيب النوى

أصيخي. فهذي فتاة الحقول وهذا غرام هناك انطوى

أتدرين عن ربّة الراعيات؟ عن الريف؟ عن ذائب في الجوى؟

هو الريف.. والغاب غاب النخيل وتلك الأغاني ما تسمعين

وذاك الفتى شاعرٌ في صباه وهاتيك.. هاتيك.. هل تُبصرين؟

هي الفن أو نبعه المستطاب هي الحب.. حب الشقي الحزين

رآها تغني وراء القطيع كبنلوب[85] تستمهل العاشقين

فما كان غير اعتناق القلوب على خفقة تلتقي ثانية

وما كان غير افترار الشفاه بما يشبه البسمة الحانية

وكان الهوى.. ثمّ كان اللقاء لقاء الحبيبين في ناحية

فما قال: أهواك، حتّى ترامى عياء على ضفة الساقية

وأوفى على العاشقين الشتاء بيوم طوى أفقه بالسحاب

خلا الغاب، ما فيه إلّا هما وإلّا السكون الشفيف النقاب

فهذا على جانب (الشط)[86] يشدو وهذي وراء الغصون الرطاب

فما كان غير انتفاض البروق وغير ارتواء الربوع الجداب

ويأوي إلى دوحة أنصتت إلى جدول، (وهي) تقفو خطاه

رآها وقد بلّ من ثوبها رذاذ، فمدّت إليها يداه

على الجذع يستدفئان الصدور فإن ندّت الآه، فاهاً بآه

سلي الجذع.. كيف التصاق الصدور بهزاتها وابتعاد الشفاه؟!

وكيف ارتشاف العيون العيون؟ وكيف احتضان اليدين اليدا؟

وما تنطف الأغصن الباكيات، على أغصن حاشهن الردى؟

تناثرن فوق الثرى ورقات يئسن، فما يرتجين الغدا

إذا وطأتهن أقدامنا تأوّهن، والآه رجع الصدى

وهاتيك هاتيك نار تلظى وقد أدفأ الصحو غاب النخيل

خفقنا عليها خفوق الفراش نعيد ادكار اللقاء الجميل

ورقّت على ثغرها قبلتان تذوبان شوقاً إلى المستحيل

وما زال في شعرها لؤلؤ من الماء والآن ماء يسيل

* * *

أشاهدت يا غاب رقص الضياء على قطرة بين أهدابها؟

تساءلت عن سرها: ما تكون؟ وما شأنها بين أترابها؟

وفي أي ماء رأتها السماء فمدّت إليها بأسبابها؟

أفي الجدول الناعس المستنيم حيث التصقت بجلبابها؟

وما أمرها قبل أن تستحيل قليلاً من الغيمة الهائمة؟

أرفّ على نهرها المستفيض، خيال من المقلة الحالمة...؟

فلم تهجر الأرض صوب السماء ولم تسهر الليلة الغائمة

ولم تهو إلّا لتفنى هناك، على عين حسنائي الباسمة؟

وما كان، يوم انطلاق الربيع جناحين ملء المدى يخفقان؟

وأين الأضاميم والياسمين يندى شذاهنّ والأقحوان؟

هدايا فؤادين يستمهلان ربيع الهوى في ربيع الزمان

وأختاك، يا روح - إذ تبنيان بيوتاً فنحظى بما تبنيان؟

وذاك الخصام الّذي لو يفدى لفديت ساعاته بالوئام

أفديه - لا بالوئام الّذي جنيناه أيام ذاك الغرام

ولكن بأيامي التاليات وحبّ اللواتي خفرن الذمام

بغمازتيها على عهدها وحبّي لها لا أقول السلام!

خصاماً ولم نعلّ الكؤوس؟ أحطّمتها قبل أن نسكرا؟

خصاماً وما زال بعض الربيع ندياً على الصيف، مخضوضرا؟

خصاماً؟! فهل تمنعين العيون إذا ضمّك الغاب، أن تنظرا؟

وهل توقفين انعكاس الخيال من النهر أن يملك المعبرا

أغاني شبابتي تستبيك وتدنيك مني، ففيم الجفاء؟

كأنّ قوى ساحر تستبد بأقدامك البيض، عند المساء

فتسعين مذهولة لا تعين، إلى موعدي بين ظلّ وماء

هناك على (الشط)، حيث الشراع يناجي شراعاً، يكون اللقاء

وحجبت خدّيك عن ناظري بكفّيك حيناً وبالمروحات

سأشدو.. وأشدو، فما تتقين إذا احمرّ خدّاك للأغنيات؟

وأرخيت كفّيك مبهورتين وأومأت، سكرانة الحس: هات

إلى أن يموت الشعاع الأخير على الشرق، والحب، والأمنيات

وهيهات. إنّ الهوى لن يموت ولكن بعض الهوى يأفل

كما تأفل الأنجم الخافقات كما يغرب الناظر المسبل

كما تستجمّ البحار الفساح ملياً، كما يرقد الجدول

كنوم اللظى.. كانطواء الجناح كما يصمت الناي والشمأل

أعام مضى والهوى لا يزال كما كان، لا يعتريه الفتور؟

أهذا هو الصيف يوفي علينا فنلقاه ثانيةً كالزهور؟

ولكنهنّ زهور الخلود فلا أظمأت ريهن الدهور!

ولا نالَ من لونهن الشتاء! ولا استنزفت عطرهنّ الحرور!

أغانيّ والغاب قَفرُ الوكون حبيسُ النسائم تحت الدوالي

ترى ماءه، لاتّقاد الهجير، حريقاً بما فوقه من ظلال

وفوق التعاشيب، حيث الغصون ينؤن بأفيائهن الثقال

لها مضجعٌ هدْهدْته العطور أأبصرتَ كيف اضطجاع الجمال؟

وتلكَ الصبايا بنات الحقول تجمّعن من حولها أربعا

فهذي تُغني بأقصوصةٍ عن الحبّ تستقطر الأدمعا

وتلك استباها خفوق الظلال على ناهد حيّر المضجعا

فألقت بمروحتيها ذهولاً وأرخت على ثغرها إصبعا

أأمسيت أستحضر الذكريات وقد كنّ بالأمس كلّ الحياه؟

أضاعت حياتي؟ أغاب الغرام؟ أماتت، على الأغنيات، الشفاه؟

أنغدو - وما جفّ ماء الغدير ولم يذبل الغاب، غاب الرعاه -

حديثاً يغني به العاشقون «أحباً.. وخابا.. فوا حسرتاه»؟

أناديك.. لو تسمعين النداء وأدعوك.. أدعوك؟! يا للجنون!

إذا رنّ في مسمعيك الغداة من المهد صوت الرضيع الحنون

فما نفعها صرخة من حشاي تبثّ الجوى؟! من عسى أن أكون؟

محبّ طواه الزمان العنيد وقلب أضاعت مناه السنون

أأدميت من كبرياء النداء؟ وأرجعت آمادي القهقرى؟!؟

نسيت التي صورتها مناي وناديت أنثى ككل الورى...

وأعرضت عن مسمع في السماء إلى مسمع في تراب القرى!

أتصغي فتاة الهوى والخيال وأدعو فتاة الهوى والثرى؟

دع الأرض يا مرسل الذكريات أغاريد مستنزفات الرنين

وبثّ الأحاديث عبر الفضاء وناج الّتي أذكرتك السنين..

وعاهدتها أن تقص الغداة عليها حديث الهوى والحنين!

ألا فاسمعيني، وما لذّتي بشِعْري إذا كنت لا تسمعين؟

وودعت سجواء بين الحقول ودنيا عن الشر في معزل

وخلّفت، في كلّ ركنٍ خضيل من الريف ذكرى هوى أوّل

قصاصات أوراقي الهامسات بشعري على جانب الجدول

وباقات زهر سفكن العبير، وناياً يُغني مع الشمأل

* * *

أبغداد هاتيك أم عالمٌ بنته الرؤى من غبار الزمن

أهاتيك دنياي؟ أين الحقول؟ وأين المراعي؟ وأين القنن؟

ويا حسرتا أين أين الرفاق؟ رفاق الهوى والطلى والشجن؟

وأين الأحاديث من سامرين على التلّ يستضحكون المحن؟

ويا شاعراً[87] علّمته النخيل وحسناؤهن، الهوى والغزل

أما زلت حيران فوق الضفاف شجياً تنادي فتاة الجبل؟

إذا المدّ وافى تبعت الجرار بعينين تستغفلان المقل!!

إذا كنت منك اقتبست النشيد فمن أصغري اقتبست الشعل.

* * *

ومن هذه الغادة المجتباة لعيني؟ من هذه الساحره؟

أما كنت أبصرت تلك العيون؟ كأني.. وهل تصدق الذاكره؟!

كأني ترشفت، قبل الغداة، سنى هذه النظرة الآسرة!!

أما كان في الريف شيء كذاك؟ أما تشبه الربّة الغابره؟؟؟

مشى العمر ما بيننا فاصلاً فمن لي بأن أسبق الموعدا؟

ومن لي بطيّ السنين الطوال ستمضي دموعي وحبي سدى!

أراها فأنفض عنها السنين كما تنفض الريح برد الندا...

فتغدو، وعمري أخو عمرها ويستوقف المولد المولدا!

تخطّيت سبعاً - من المثقلات بما لست تدري - إلى حبّها،

تركت الأهلة عن جانبيك حيارى تشكي إلى ربّها!

أكانت سدى كلّ تلك السنين وقد هدّنا السير في دربها؟

أيطوي مداها إلى حبّه فتى ما رأيناه في ركبها؟

* * *

وهل تسمع الشعر إن قلته وفي مسمعيها ضجيج السنين؟

أطلّت على السبع من قبل عشرين عاماً وما كنتُ إلّا جنين

وأمسى - ولم تدر أنت الغرام - هواها حديث الورى أجمعين

لقد نبّئوها بهذا الهوى فقالت وما أكثر العاشقين

غرام خبا نوره في العيون وغابت له خفقة في الفؤاد

ليالٍ تطيل انتظار النجوم وأيام حيران بين الوهاد

لقد عاد بعد احتراق الربيع بِحَرِّ الضحى، كيف يا ريف عاد؟

أضاع الغرامين واحسرتاه فوارى بعاد الهوى بالبعاد

* * *

من الغاب، حيث استدار الكئيب تراءى له الأمس في الحاضر

خطاه اللواتي أذعن الغرام على مسمع الجدول السادر

وآهات عذرائه الهائمات مع النور في الموكب الساحر

وذكرى من الأمسيات العذاب تغاديه يا لوعة الذاكر

وتلك المرايا ينام الخرير عليهنّ والظلّ في مضجع

إذا صدئت صفحة بينهن جلتها يد المدّ بالأدمعِ

يخبئن بين الظلال الرطاب خيالاً تأبى على البرقع

فيغرقن عينيه في مقلتين تهزان مهداً من الأضلع

وآفاق بغداد بعد النخيل وآذار بعد انطفاء الهجير

وبعد الغرام اندفاق الفؤاد ينابيع مستعجلات المسير

فعذراء وهم، وأخرى هوى شقي، وعذراء وجد قصير

وحيران حيران مثل الفراش وظمآن ظمآن مثل السعير

وسمراء من عاشقات الرجال تغاديه بالعاطفات الكذاب

سفار أمال اصفرار الخريف ربيعاً ربا فيه زهر الشباب

وجواً من الأغنيات الرطاب شفيف الرؤى، شاعريّ الرحاب

وعينين تستعجلان القلوب إلى الملتقى تحت ستر الضباب

أمن أصغريه استفاض النشيد إليها؟ إلى الذئبة الضاريه؟

ولو لم يكن فيه طعم الدماء لما اهتاج أضلاعها الخاويه

وما زال تسبيه غمازتان تبوحان بالبسمة الخافيه

وما زالتا تذكران الخيال بما كان في الأعصر الخاليه

* * *

بأنباء «كمباسب[88]» المجتباة وطفل الهوى يلعبان الورق

وكيف استكان الإله الصغير فألقى سهام الهوى والحنق

رهان رمى فيه غمّازتيه ... وورد الخدود، ونور الحدق

لك االله.. كيف اقتحمت القرون ... ولم يخب في وجنتيك الألق؟

كأنّ ابتساماتها والربيع ... أشقاء لولا ذبول الزهر

أآذار ينثر تلك الزهور ... على ثغرها أم شعاع القمر؟

لقد نام في الثغر كلّ الزمان ... وما عمر آذار غير الشهر!

وبالروح فديت تلك الشفاه ... وإن أذكرتني بكأس القدر!

ويا ليت أنفاسي الموغلات، ... إلى المنتهى، في خفاء السنين..

تباع ارتعاشاتهن الظماء ... بذاك العبير الندي السجين

بذاك النسيم الملم بغمازتيها ... إذا انداحتا كلّ حين

سواء لدى ابتسام طروب، ... إذا افترتا، وابتسام حزين

إلى يأسك الصامت المكفهر ... كنهر الجحيم البعيد البعيد[89]

سرى زورق الموت في لجّة ... و«شارون» يشدو رهيب النشيد

بآمالك الشحب الباردات ... جلا ظلهن الخضم البليد...

سها فوق تكشيرهن الردى ... كما اصفرّ بين القبور الجليد.

إذا ما أضاء الظلام الرهيب، من البرق ومض سريع الشعل

تراءت على الأعين الخاويات، ظلال الردى في كهوف المقل...

وأكفان موتى من الغابرين علا حافتيها شحوب الأزل

تلوى على صاريات العظام شراعاً يشق الدجى كالأجل

أنادي بشارون هاك الفؤاد فما نفعه بعد موت المنى؟!

على الشطّ وحدي، يشق الظلام ندائي، فصاح الردى من هنا؟!

ولوّحت - والريح مثل الفحيح - بأغصان سدر ظماء الجنى[90]

فما رقّ لي زورق الشاحبين ولم يرحم الميّت المثخنا

جناز الهوى، يا جناز الهوى أما للغرام انبثاق جديد؟؟

أما زال موج الصبى في الخدود طليق السنى، أم طواه الجليد؟

سل الكوكب الشاحب المستنيم سل الصبح عبر الفضاء البعيد

سل العالم القاسي المستبد، أما فيه مأوى لهذا الشريد.؟

أما فيه «قلب»؟ أما فيه «روح»؟ أما فيه «حب»؟ أما فيه «نور»؟

وتلك العذارى.. وتلك العيون وتلك الحنايا.. وتلك الصدور..

وذاك الجمال الّذي في الدروب وذاك الشباب الّذي في الخدور،

إذا كنت منهن صفر اليدين　　　　فسيّان عندي ظلام ونور!!

بغداد، 1 - 2 - 1947

أساطير
(1950)

إشارة

صدر هذا الديوان عام (1950) عن منشورات دار البيان/ مطبعة الغري الحديثة في النجف. وكتب له السياب مقدّمة ظلّت هي الوحيدة بين دواوينه المعروفة، إذ لم يكتب بعدها مقدّمة لدواوينه سوى ما وضعه تمهيداً لقصيدة «فجر السلام» المطولة. وقد تصدّرت الصفحة الأولى للديوان صورة للشاعر، بدا فيها وكأنه في أول العشرينيات من عمره، فيما ضمّت الصفحة الثانية اهداءً كتبه السياب:

«إلى أخوّي الكريمين

علي الخاقاني

وأكرم الوتري

كنتُ برماً بالحياة، يائساً منها، عشية رأيتكما في مقهى من مقاهي بغداد. فقط ظننتُ أنها خلو من الحبّ قفر من الوفاء. ولكنني رأيت الحبّ والوفاء فيكما، فرغبتُ في الحياةِ، وحمدتُ تلك الليلة المباركة.»

* * *

الديوان يتكوّن من (26) قصيدة، أختار منها السياب لاحقاً (23) قصيدةً ليضمها لديوانه «أزهار وأساطير»، ولأن أغلب قصائد هذا الفصل ستتكرر ذاتها في الفصل الخاصّ بـ«أزهار وأساطير»، آثرنا عدم إدراج متن ديوان «أساطير» في هذه الطبعة، والاكتفاء بإيراد قصائده في الفصل اللاحق، منعاً لتكرار قد يشتت القارئ ويربكه، وسنضعُ هامشاً مع كلّ قصيدةٍ تدلُّ على عائديّتها.

* * *

يجد القارئ مقدّمة السياب لهذا الديوان، والصورة الشخصيّة النادرة، في الملحق الخاص بالوثائق آخر الكتاب الثاني من هذه الطبعة.

المحقق

أزهار وأساطير
(1963)

إشارة

كما أشرنا في المقدّمة العامّة، هذا الديوان هو حصيلة دمج ديواني «أزهار ذابلة» و«أساطير»، حيث قام السيّاب باختيار قصائد من المجموعتين المذكورتين وأجرى على بعضها تغييرات متباينة.

الديوان، هنا، نسخة طبق الأصل عن طبعته الأولى، وقد أجريتُ مُقابلة للقصائد على نسخها (قبل الدمج) ووجدتُ شيئاً من التعديل والحذف، فحصرتُ كلّ تعديل أجراه الشاعر وثبّته في هوامش مرفقة مع كلّ قصيدة، حسب موضع التعديل.

الطبعة الأولى للديوان صدرت عن دار «مكتبة الحياة»، واللافت أنها جاءت خلواً من تاريخ الإصدار. وقد ذكر لي السيّد غيلان السياب، نجل الشاعر، أنه يتذكّر طبع دار «مكتبة الحياة» لديوان «أزهار وأساطير» مع ديوان «منزل الأقنان»، وقد كانت لديهم، في منزل الشاعر، رزم من نسخ الشاعر للديوانين مع بعض كما أرسلتها الدار. وفي رسالة لاحقة وردتني من السيّد غيلان، ذكرَ فيها: «إن هناك نسخة أولى أصليّة من «أزهار وأساطير» عليها توقيع الوالد وبخطّه بتاريخ 1963/10/22». من إشارة السيّد غيلان الهامّة، نستنتجُ أن ديوان «أزهار وأساطير» كان قد صدر برفقة ديوان «منزل الأقنان»، تحديداً في شهر آذار من عام 1963، وبهذا يحلُّ لغز سنة الإصدار المفقودة لهذا الديوان.

ثمّة ملاحظة يهمني ذكرها هنا، حين اختار الشاعر قصائد ديوان «أساطير» لغرض إعادة نشرها في هذا الديوان، استثنى ثلاثاً منها لم يُدرجها في الكتاب الجديد. وهذه القصائد هي: «يا ليالي، خطاب إلى يزيد، إلى حسناء القصر»، ولم ينشر السيّاب هذه القصائد الثلاث في أي ديوان لاحق بعدها. ولغرض توثيقها، قمت بإدراج القصائد المذكورة في كملحق خاص في هذا الديوان، إذ لم أُفضّل دمجها مع متنه.

المحقق

في السّوق القديم

1

الليل، والسوق القديم

خفتت به الأصوات إلّا غمغمات العابرين

وخطى الغريب وما تبثُّ الريح من نغم حزين

في ذلك الليل البهيم.

الليل، والسوق القديم، وغمغمات العابرين؛

والنور تعصره المصابيح الحزانى في شحوب،

- مثل الضباب على الطريق -

من كلّ حانوت عتيق،

بين الوجوه الشاحبات، كأنه نغم يذوب

في ذلك السوق القديم.

2

كم طاف قبلي من غريب،

في ذلك السوق الكئيب،

فرأى، وأغمض مقلتيه، وغابَ في الليل البهيم.

وارتجّ في حلق الدخان خيال نافذةٍ تُضاء،

والريح تعبثُ بالدخان...

الريح تعبثُ، في فتور واكتئاب، بالدخان،

وصدى غناء...

ناءٍ يذكّر بالليالي المقمرات وبالنخيل؛

وأنا الغريب... أظلّ أسمعه وأحلم بالرحيل

في ذلك السوق القديم.

3

وتناثر الضوء الضئيل على البضائع كالغُبار؛

يرمي الظلال على الظلال؛ كأنّها اللحن الرتيب،

ويُريق ألوان المغيب الباردات، على الجدار

بين الرفوف الرازحات كأنها سحب المغيب.

الكوب يحلم بالشراب وبالشفاه

ويد تلوّنها الظهيرة والسراجُ أو النجوم.

ولربما بردتْ عليه وحشرجت فيه الحياة،

في ليلة ظلماء باردة الكواكب والرياح؛

في مخدع سهر السراجْ به، وأطفأه الصباح

4

ورأيت، من خلل الدُّخان[91]، مشاهد الغد كالظلال:

تلك المناديل الحيارى وهي تومئ بالوداع

أو تشرب الدمع الثقيل، وما تزال

تطفو وترسب في خيالي - هوّم العطر المضاع

فيها، وخضّبها الدم الجاري!

لون الدجى وتوقُّدُ النارِ

يجلو الأريكة ثمّ تخفيها الظلال الراعشاتْ -

وجه أضاء شحوبه اللهبُ

يخبو، ويسطع، ثمّ يحتجبُ

ودم يغمغم وهو يقطر ثمّ يقطر: مات.... ماتْ!

5

الليلُ، والسوق القديم، وغمغمات العابرين،

وخطى الغريب.

وأنت أيتها الشموع ستوقدين

في المخدع المجهول، في اللّيل الّذي لن تعرفيه،

تلقين ضوؤك في ارتخاءٍ مثل أمساء الخريف

- حقل تموج به السنابل تحت أضواء الغروب

تتجمعُ الغربان فيه -

تلقين ضوؤك في ارتخاء مثل أوراق الخريف

في ليلة قمراء سكرى بالأغاني، في الجنوب:

نقر [الدرابك] من بعيد

يتهامسُ السعف الثقيل، به، ويصمت من جديد!

6

قد كان قلبي مثلكن، وكان يحلم باللهيب،

حتّى أتاحَ له الزمان يداً ووجهاً في الظلام

نار الهوى ويد الحبيب -

ما زالَ يحترق الحياة، وكان عام بعد عام

يمضي، ووجه بعد وجه مثلما غاب الشراع

بعد الشراع - وكان يحلم في سكون، في سكون:

بالصدر، والفم، والعيون؛

والحبّ ظلّله الخلود... فلا لقاء ولا وداع

لكنه الحلم الطويل

بين التمطي والتثاؤب تحت أفياء النخيل.

7

بالأمس كان وكان - ثمّ خبا، وأنساه الملال

واليأس؛ حتّى كيف يحلم بالضياء - فلا حنين

يغشى دجاه، ولا اكتئاب، ولا بكاء، ولا أنين

الصيف يحتضن الشتاء، ويذهبان... وما يزال

كالمنزل المهجور تعوي في جوانبه الرياح،

كالسلم المنهار، لا ترقاه في الليل الكئيب

قدم، ولا قدم ستهبطه إذا التمع الصباح.

ما زال قلبي في المغيب

ما زال قلبي في المغيب فلا أصيل ولا مساء،

حتّى أتت هي والضياء!

8

ما كان لي منها سوى أنّا التقينا منذ عام

عند المساء، وطوقتني تحت أضواء الطريق

ثمّ ارتخت عني يداها وهي تهمس - والظلام

يحبو، وتنطفئ المصابيح الحزانى والطريق -:

«أتسير وحدك في الظلام؟

أتسير؛ والأشباح تعترض السبيل، بلا رفيق؟»

فأجبتها والذئب يعوي من بعيد، من بعيد

«أنا سوف أمضي باحثاً عنها، سألقاها هناك

عند السراب وسوف أبني مخدعين لنا هناك».

قالت - ورجّع ما تبوح به الصدى «أنا من تريد!»

9

«أنا من تريد، فأين تمضي؟ فيمَ تضرب في القفار

مثل الشريد؟ أنا الحبيبة كنت منك على انتظار.

أنا من تريد..» وقبّلتني ثمّ قالت - والدموع

في مقلتيها - «غير أنّك لن ترى حلم الشباب:

بيتاً على التلّ البعيد يكاد يخفيه الضباب

لولا الأغاني، وهي تعلو نصف وسنى، والشموع

تلقى الضياء من النوافذ في ارتخاء؛ في ارتخاء!

أنا من تريد وسوف تبقى لا ثواء ولا رحيل:

حب إذا أعطى الكثير فسوف يبخل بالقليل،

لا يأس فيه ولا رجاء

10

أنا أيها النائي القريب،

لك أنت وحدك؛ غير أنّي لن أكون

لك أنت - أسمعها؛ وأسمعهم ورائي يلعنون

هذا الغرام. أكاد أسمع أيها الحلم الحبيب[92]

لعنات أُمي وهي تبكي. أيها الرجل الغريب

إني لغيرك... بيد أنك سوف تبقى، لن تسير!

قدماك سُمِّرتا فما تتحركان؛ ومقلتاك

لا تبصران سوى طريقي، أيّها العبد الأسير!؟

* * *

« - أنا سوف أمضي فاتركيني: سوف ألقاها هناك

عند السراب»

فطوّقتني وهي تهمس: «لن تسير!»

11

«أنا من تريد؛ فأين تمضي بين أحداق الذئاب

تتلمّس الدرب البعيد؟»

فصرختُ: سوف أسير، ما دام الحنين إلى السراب

في قلبي الظامي! دعيني أسلك الدرب البعيد

حتّى أراها في انتظاري: ليس أحداق الذئاب

أقسى عليَّ من الشموع

في ليلة العرس الّتي تترقبين، ولا الظلام

والريح والأشباح، أقسى منك أنتِ أو الأنام!

أنا سوف أمضي! فارتخت عني يداها، والظلام

يطغى...

ولكني وقفتُ وملء عينيّ الدموع!

1948/11/3

اللقاءُ الأخير[93]

والتفّ حولك ساعداي، ومال جيدك في اشتهاء،

كالزهرة الوسنى - فما أحسستُ إلّا والشفاه

فوق الشفاه. وللمساء

عطر، يضوع فتسكرين به، وأسكر من شذاه

في الجيد والفم والذراع،

فأغيبُ في أفق بعيد، مثلما ذاب الشراع

في أرجوان الشاطئ النائي وأوغل في مداه!

* * *

شفتاك في شفتيّ عالقتان - والنجم الضئيلْ

يُلقي سناه على بقايا راعشات من عناق -

ثمّ ارتخت عني يداك، وأطبق الصمت الثقيل.

يا نشوةً عبرى؛ وإغفاءً على ظلّ الفراق[94]

حلواً؛ كإغماء الفراشة من ذهول وانتشاء...

دوماً إلى غير انتهاء!

* * *

يا همسةً فوق الشفاه

ذابت فكانت شبه آه،

يا سكرةً مثل ارتجافات الغروب الهائمات

رانت كما سكن الجناح وقد تناءى في الفضاء

غرقى إلى غير انتهاء

مثل النجوم الآفلات.

* * *

- «لا... لن تراني. لن أعود

هيهات. لكنّ الوعود

تبقى تُلحُّ.. فخفّ أنت، وسوف آتي في الخيال

يوماً، إذا ما جئتَ أنت. وربما سال الضياء

فوق الوجوه الضاحكات - وقد نسيتَ؛ وما يزال

بين الأرائك موضعٌ خال يحدق في غباء!

هذا الفراغ! أما تحسّ به يحدّق في وجوم؟

هذا الفراغ.. أنا الفراغ، فخفّ أنت لكي يدوم!»

* * *

هذا هو اليوم الأخير؟!

واحسرتاه! أتصدقين؟ ألن تخفَّ إلى لقاء؟!

هذا هو اليوم الأخير. فليته دون انتهاء!

ليت الكواكب لا تسير؛

والساعة العجلى تنام على الزمان فلا تفيق!

خلفتني وحدي - أسير إلى السراب بلا رفيق.

* * *

يا للعذاب! أما بوسعك أن تقولي: «يعجزون

عنّا. فماذا يصنعون؟

لو أنني - حان اللقاء

فاقتادني نجم المساء،

في غمرة لا أستفيق

ألا وأنت تلف خصري تحت أضواء الطريق؟!»

* * *

ليل، ونافذة تُضاء.. تقول إنك تسهرين.

إني أحسُّك تهمسين

في ذلك الصمت المميت: «ألن تخفَّ إلى لقاء؟»

ليل، ونافذة تضاء

تغشى رؤاي، وأنتِ فيها... ثمّ ينحل الشعاع

في ظلمة الليل العميق

ويلوح ظلّك من بعيد وهو يومئ بالوداع،

وأظلّ وحدي في الطريق!

1948

أساطير

وقف اختلافهما في المذهب حائلاً بينهما وبين السعادة.. فآلى هو أن يلعن الأوثان!
[قصة حب في اليونان الوثنية]

أساطيرُ مِنْ حَشرجاتِ الزمان

نسيجُ اليد البالية،

رواها ظلامٌ من الهاوية

وغنَّى بها ميِّتَان.

أساطيرُ كالبِيد، ماجَ السراب

عليها، وشعَّتْ بقايا شِهاب،

وأبصرتُ فيها بريقَ النُّضَار[95]

يُلاقي سدًى[96] مِن ظِلال الرغيف،

وأبصرتُني والستارُ الكثيفُ

يُواريكِ عني فضاع انتظار،

وخابت مُنًى، وانتهى عاشقان.

* * *

أساطيرُ مثل المُدى[97] القاسيات

تَلاوينُها من دم البائسين،

فكمْ أَومضَت في عيون الطّغاة

بما حُمِّلَتْ من غبار السنين،

يقولون: وحيُ السماء؛

فلو يسمعُ الأنبياء

لما قَهقَهَتْ ظُلمة الهاوية

بأسطورةٍ بالية،

تجرُّ القرون

بمركبةٍ من لظًى، في جنون

لظًى كالجنون!

* * *

وهذا الغرامُ اللَّجوج

أيرتدُّ من لمسةٍ باردة...

على إصبعٍ من خيال الثلوج

وأسطورةٍ بائدة؟

وعرَّافةٍ أَطلَقَت في الرمال

بقايا سؤال،

وعينَين تستطلعان الغيوب،

وتستشرفان الدروب،

فكان ابتهالٌ... وكانت صلاة

تُعَفِّرُ وجهَ الإله،

وتحثو عليه انطباق الشفاه.

* * *

تعالَيْ فما زالَ نجم المساء

يُذيب السنا في النهار الغريق،

ويغشى سكونَ الطريق

بِلونَين من ومضةٍ وانطفاء.

وهمسُ الهواءِ الثقيل

بِدفءِ الشذى واكتئاب الغروب،

يُذكِّرني بالرحيل:

شراعٌ خلال التحايا يذوب،

وكفٌّ تُلوِّحُ. يَا للعذاب!

* * *

تعالَيْ فما زالَ لون السحاب

حزيناً ... يُذكِّرني بالرحيل

رحيل؟!

تعالَي، تعالَي ... نُذيب الزمان،

وساعاته، في عناقٍ طويل،

ونصبغ بالأرجوان

شراعاً وراء المدى،

وننسى الغدا

على صدركِ الدافئِ العاطر

كتهويمة الشاعرِ.

تعالَيْ؛ فملء الفضاء

صدًى هامسٌ باللقاء،

يوسوسُ دون انتهاء.

* * *

على مُقلتَيكِ انتظارٌ بعيد

وشيءٌ يريد:

ظلال

يُغمغم في جانبيها سؤال،

وشوقٌ حزين

يريد اعتصار السراب،

وتمزيق أسطورة الأَوَّلِين

فيا للعذاب!

جناحان خلف الحجاب.

شِراعٌ ...

وغَمغمةٌ بالوداع!

1948/3/24

اتبعيني

اتبعيني

فالضحى رانتْ به الذكرى على شطٍّ بعيد

حالم الأغوار بالنجمِ الوحيد،

وشراع يتوارى، و«اتبعيني»

همسة في الزرقة الوَسنَى... وظلٌّ

من جناحٍ يَضمَحلُّ،

في بقايا ناعساتٍ مِن سكونِ،

في بقايا من سكونِ

في سكونِ!

* * *

هذه الأغوارُ يغشاها خيالُ

هذه الأغوار لا يَسبرها إلّا ملالُ

تعكس الأمواجَ في شبه انطفاءِ

لونَهُ المهجور في الشطِّ الكئيب،

في صباحٍ ومساء

وأساطيرُ سُكارى ... في دروبِ

في دروبٍ أطفأ الماضي مداها

وطواها

فاتبعيني ... اتبعيني

* * *

اتبعيني ... ها هي الشُّطآن يعلُوها ذُهولُ[98]

ناصلُ الألوانِ كالحلمِ القديمِ

عادَت الذكرى به، ساجٍ كأشباحِ نجومِ

نسَي الصبحُ سَناها والأفولُ

في سُهادٍ ناعسٍ ... بين جُفون!

في وجوم الشاطئ الخالي، كعينيكِ انتظارُ

وظلالٌ تصبغُ الريح ... وليلٌ ونهارُ.

صفحةٌ زرقاء تجلو، في بُرود

وابتسامٍ غامض، ظلَّ الزمان

لِلفراغِ المُتعَب البالي على الشطِّ الوحيد.

اتبعيني ... في غدٍ يأتي سِوانا عاشقان،

في غدٍ، حتى وإن لم تتبعيني،

يعكسُ الموجُ، على الشطِّ الحزين

والفراغ المُتعب المخنوق، أشباحَ السنين.

* * *

أمس جاء الموعدُ الخاوي ... وراحا

يطرق الباب على الماضي ... على اليأسِ ... عليَّا!

كنتُ وحدي ... أرقب الساعةَ تقتاتُ الصباحَا

وهي ترنو مثل عين القاتل القاسي إليَّا[99]

أمس ... في الأمس الذي لا تذكُرينه

ضوَّأ الشطآن مصباحٌ كئيب ... في سفينة

واختفى في ظُلمة الليل قليلًا فقليلًا

وتناءَتْ، في ارتخاءٍ وتوانِ

غمغماتٌ مُجهَدات، وأغاني

وتلاشَتْ، تتبعُ الضوءَ الضئيلَا.

أقبِلِي الآن ... ففي الأمس الذي لا تذكُرينه

ضوَّأ الشُّطآن مصباحٌ كئيب في سفينه

واختفى في ظُلمة الليل قليلاً فقليلا.

1948/4/21

رئةٌ تتمزّق

الداءُ يُثلِجُ راحتيَّ ويُطفِئ الغد في خيالي

ويشلُّ أنفاسي، ويُطْلِقها كأنفاسِ الذبالِ

تهتزُّ في رئتَين يرقُص فيهما شبَح الزَّوالِ

مشدودتَين إلى ظلامِ القبر بالدَّمِ والسُّعالِ

* * *

وا حسرَتاه؟! كذا أموتُ؟ كما يجفُّ ندى الصباحِ؟

ما كادَ يلمع بين أفْوَافِ الزنابق والأقاحِي

فتضوعُ أنفاسُ الربيعِ تهزُّ أفياءَ الدوالي

حتى تلاشَى في الهواءِ كأنه خَفقُ الجناحِ![100]

* * *

كم ليلةٍ ناديتُ باسْمِكَ أيها الموت الرهيبُ

ووددتُ لا طلع الشروقُ عليَّ إن مال الغروبُ

بالأمس كنتُ أرى دُجاك أحبَّ من خفَقات آلِ

راقصن آمال الظِّماءِ فبلَّها الدمُ واللهيبُ!

* * *

بالأمس كنتُ أصيح: خذني في الظلام إلى ذراعِك

واعبر بيَ الأحقاب يَطْوِيهِن ظِلٌّ من شراعِك

خُذني إلى كهفٍ تُهوّمُ حوله رِيحُ الشمالِ

نامَ الزمانُ على الزمانِ، به، وذابا في شعاعِك

* * *

كان الهوى وهماً يُعذِّبُني الحنينُ إلى لقائِه

ساءلتُ عنه الأمنياتِ، وبِتُّ أحلُم بارتمائه

زهراً ونوراً في فراغٍ من شكاةٍ وابتهالِ

في ظُلمةٍ بين الأضالِعِ تَشرئِبُّ إلى ضيائِه

* * *

واليوم حبَّبت الحياةَ إليَّ وابتسم الزمانُ

في ثغرِها، وطفا على أهدابها الغدُ والحنانُ

سمراء تلتفت النخيل الساهمات إلى الرمالِ

في لونها ... وتفرُّ وَرْقاءٌ ويأرج أقحُوانُ

* * *

شَعَّ الهوى في ناظرَيْـها فاحتواني واحتواها

وارتاحَ صدري، وهو يخْفِقُ باللحون، على شذاها

فغفوتُ أستَرِقُ الرؤى والشاعرية مِن رؤاها

وأغيبُ في الدفءِ المعطَّرِ كالغمامةِ في نَداها

* * *

عينانِ سوداوانِ أصْفَى من أماسيِّ اللقاءِ

وأَحَبُّ من نجمِ الصَّباحِ إلى المراعي والرِّعاءِ

تتلألآن عن الرجاء كلَيلةٍ تُخفي دُجاها

فجراً يُلوِّنُ بالندى دَربَ الربيع، وبالضياءِ

* * *

سمراءُ يا نجماً تألَّقَ في مسائي ... أبغِضيني

واقسِي عليَّ ولا تَرِقِّي للشكاة وعذِّبيني

خلِّي احتقاراً في العُيونِ، وقطِّبي تلك الشفاهَا

فالداءُ في صدري تحفَّزَ لافتراسِكِ في عيوني!

* * *

يا موت يا رَبَّ المَخَاوِفِ والدياميسِ الضريرَة

اليوم تأتي؟! مَن دعاكَ؟ ومن أرادكَ أن تزورَه؟

أنا ما دعوتُكَ أيُّها الْقَاسي فتَحرمَني هواهَا

دعني أعيشُ على ابتسامَتِها وإن كانت قصيرَة

* * *

لا! سوف أَحيَا سوف أشْقَى، سوف تُمهلني طويلَا

لن تُطفِئ المصباح لَكِنْ سوف تُحرقه فتيلَا

في ليلة في ليلتَيْنِ سيلتقي آهًا فآهَا

حتى يفيضَ سَنَى النهارِ فيُغرِق النور الضئيلَا!

* * *

يا للنهاية حين تُسْدل هذه الرئة الأكيلُ

بين السعال، على الدماءِ، فيُختمُ الفصلُ الطويلُ

والحفرة السوداء تفْغرُ، بانطفاء النور، فاهَا

إني أخافُ أخافُ مِن شَبحٍ تُخبِّئه الفصولُ!

* * *

وغداً إذا ارتجَفَ الشتاءُ على ابتساماتِ الربيعِ

وانحلَّ كالظلِّ الهزيـلِ وذاب كاللحن السريعِ

وتفتَّحَتْ بين السنابِلِ، وهي تحلُم بالقطيعِ

والناي زَنْبَقَةٌ، مَدَدْتُ يدي إليها في خشوعِ

* * *

وهوَيتُ أنشقها فتصْعَد كلما صَعِد العبيرُ

مِن صدريَ المهدوم حشْرَجةً فتحترقُ العطورُ

تحت الشفاهِ الراعشاتِ ويُطفأُ الحقلُ النضيرُ

شيئاً فشيئاً في عُيُوني ثم يَنفلِت الأسيرُ!

1948

سوفَ أمضي

سوف أمضي. أسمعُ الريح تُناديني بعيداً

في ظلام الغابة اللفَّاء ... والدَّربُ الطويلُ

يتمطَّى ضَجَراً، والذئبُ يعوِي، والأُفولُ

يسرقُ النجم كما تسرق روحي مُقلتاكِ،

فاتركيني أقطعُ الليلَ وحيداً

سوف أمضي فهي ما زالت هناكَ.

في انتظاري.

* * *

سوف أمضي. لا هديرُ السيل صخَّاباً رهيباً

يُغرِقُ الوادي، ولا الأشباحُ تُلقيها القُبورُ

في طريقي تسأل الليلَ إلى أين أسير؟

كلُّ هذا ليس يُثنيني، فعودي واتركيني،

ودعيني أقطعُ الليل غريباً.

إنها ترنو إلى الأُفق الحزينِ

في انتظاري.

* * *

سوف أمضي. حوّلي عينيكِ لا تَرْنِي إليَّا!

إن سحراً فيهما يأبى على رِجلي مسيرا.

إن سرّاً فيهما يستوقف القلبَ الكسيرا.

وارفعي عني ذراعيكِ ... فما جدوى العناق

إن يكن لا يبعث الأشواقَ فيَّا؟

اتركيني، ها هو الفجرُ تبدَّى، ورفاقي

في انتظاري.

1948/2/30

هوى واحد[101]

على مقلتيكِ ارتشفتُ النجوم وعانقتُ آماليَ الآيبهْ

وسابقتُ حتى جناحَ الخيال بروحي إلى روحكِ الواثبهْ

أطلَّت فكانت سنًا ذائبًا بعينيكِ في بسمةٍ ذائبهْ

* * *

أأنتِ التي ردَّدَتْها مُناي أناشيدَ تحت ضِياءِ القمر

تُغني بها في ليالي الربيع فتحلُم أزهاره بالمطر

ويمضي صداها يهزُّ الضياء ويغفو على الزورقِ المُنتَظَر؟

* * *

خُذي الكأس بُلِّي صداكِ العميق بما ارتجَّ في قاعها من شراب

خُذي الكأس لا جفَّ ذاك الرحيق ولم يَبقَ إلا جنونُ السَّراب

وإلا صدًى هامسٌ في القرار: ألا ليتَني ما سَقَيتُ التراب

* * *

خُذي الكأس إني زرعتُ الكرومَ على قبر ذاك الهوى الخاسر

فأعراقها تستعيدُ الشراب وتَشتَفه من يدِ العاصِر

خُذي الكأس إني نسيتُ الزمان فما في حياتي سوى حاضِر

* * *

أنا الدوح ماتت ليالي الشتاء فأوفى عليه الربيع السعيد[102]

نسيت الفصول الثلاث البطاء على خفقة من شذاك الوليد

كأني - وآذار في ساعدي يعد الأزاهير - خلق جديد

* * *

وكان انتظاراً لهذا الهوى جُلوسي على الشاطئِ المُقفِر

وإرسالُ طَرفي يجوبُ العُباب ويرتدُّ عن أُفقه الأَسمَر

إلى أن أهَلَّ الشراعُ الضحوكُ وقالت لكِ الأمنيات: انظُرِي

* * *

أأنكرتِ حتى هواكِ اللَّجوج وقلبي وأشواقَكِ العارمه؟

وضلَّلتِ في وهدةِ الكبرياءِ صداها فيا لكِ مِن ظالمه

تجنَّيْتِ حتى حسبتِ النعاس ذبولًا على الزهرةِ النائمه

* * *

أتنسَينَ تحت التماعِ النجوم خُطانا وأنفاسَنا الواجفة

وكيف احتضنَّا صدًى في القلوبِ تُغنِّي به القُبلةُ الراجفة

صدًى لجَّ قبل احتراقِ الشِّفاه وما زال في غَيهبِ العاطفة

* * *

ورانَتْ على الأَعيُن الوامقات ظِلالٌ من القُبلةِ النائية

تُنادي بها رغبةٌ في الشفاه ويمنعها الشكُّ والواشية

فترتجُّ عن ضغطةٍ في اليدَين جمعنا بها الدهرَ في ثانية

* * *

«شقيقةُ روحي ألا تذكرين» نداءً سيبقى يجوبُ السنين

وهمساً من الأنجُمِ الحالمات يهزُّ التماعاتها بالرنين

تسلَّلَ من فجوةٍ في الستار إليكِ وقال: ألا تذكُرين؟

* * *

تعالَيْ فما زال في مُقلتَيَّ سَنًا ماجَ فيه اتِّقَاد الفؤاد

كما لاح في الجدول المُطْمئِنِّ خيالُ اللَّظى والنجوم البعاد

فلا تزعُمي أنَّ هذا جليد ولا تزعُمي أنَّ هذا رماد

1948/2/16

أهواء[103]

«إلى المنتظرة...»

أطلّي على طرفيَ الدامع ... خيالاً من الكوكب السّاطعِ

وظلاً من الأغصن الحالمات ... على ضفّة الجدول الوادعِ

وطوفي أناشيد في خاطري ... يناغين من حُبّيَ الضائع

يفجِّرْنَ من قلبي المستفيض ... ويقطرْنَ في قلبي السامع

* * *

لعينيكِ، للكوكبين اللذين ... يصبان في ناظريّ الضياءْ

لنبعين، كالدهر، لا ينضبان ... ولا يسقيان الحيارى الظماء

لعينيك ينثال بالأغنيات ... فؤاد أطال انثيال الدماء

يودُّ، إذا ما دعاك اللسانُ ... على البُعدِ، لو ذاب فيه النداء

* * *

يطول انتظاري، لعلّي أراك ... لعلّي: ألاقيكِ بين البَشَرْ

سألقاكِ. لا بدّ لي أن أراك ... وإن كان بالناظر المحتضر

فديْتُ الّتي صوّرتها مناي		وظلُّ الكرى في هجير السَّهرْ

أطلّي على من حباكِ الحياة		فأصبحت حسناء ملء النظرْ!

* * *

أطلّي فتاةَ الهوى والخيال		على ناظرٍ بالرؤى عالقِ

بعشرينَ من ريّقاتِ السنين		عَبَرنَ المدارات في خافقي

بعشرين كُلّاً وهبتُ الربيعَ		وما فيه، من عُمري العاشقِ

فما ظلّ إلّا ربيعٌ صغير		أُخبّيه للموعد الرائقِ

* * *

سأروي على مسمعَيكِ الغداةَ		أحاديث سمّيتهُنّ الهوى

وأنباءَ قلبٍ غريق السراب		شقيِّ التداني، كئيب النوى

أصيخي.. فهذي فتاة الحقول		وهذا غرامٌ هناك انطوى

أتدرين عن ربّة الراعيات؟		عن الريف؟ عما يكونُ الجوى؟

* * *

هو الريف، هل تبصرين النخيل؟		هذي أغانيه، هل تسمعين؟

وذاك الفتى شاعرٌ في صباه		وتلك الّتي علّمته الحنين

هي الفنُّ من نبعه المستطاب،		هي الحبُّ من مُستقاهُ الحزين

رآها تغني وراء القطيع ... كـ (بَنلوبَ) تستمهل العاشقين

* * *

فما كان غيرُ التقاء الفؤادَينِ ... في خَفقةٍ منهما عاتِيه

وما كان غيرُ افترار الشفاه ... بما يُشبه البسمةَ الحانيه

وكان الهوى، ثمّ كان اللقاء ... لقاء الحبيبَين في ناحيه

فما قال: أهواكِ، حتّى ترامى ... عياءً على ضفة الساقيه

* * *

وأوْفى على العاشقَيْن الشتاء ... ويومٌ دجا في ضُحاه السحاب

خلا الغابُ ما فيه إلّا النّخيل ... وإلا العصافير، فهو ارتقاب

وبين الحبيبين في جانبيه ... من السَّعف في كلّ ممشى، حجاب

فما كان إلّا وميضٌ أضاءَ ... ذُرى النخل، وانحلّ غيمٌ وذاب

* * *

ويا سدرةَ الغاب كيف استجارا ... بأفنانك الناطفاتِ المياه

رآها وقد بلّ من ثَوْبها ... حياً زخّ، فاستقبلتها يداه

على الجذع يستدفئان الصدور ... على مَوعدٍ، كلُّ آهٍ بآه

سلي الجذع كيف التصاق الصدور ... بهزّاتها، وابتعادُ الشفاه؟

* * *

أشاهدتَ يا غابُ رقص الضياء		على قطرةٍ بينَ أهدابها؟

تُرى أهي تبكي بدمع السماء		أساها وأحزان أترابها؟

ولكنها كلُّ نَوْر الحقول		ودفءِ الشذى بين أعشابها

وأفراحُ كلّ العصافير فيها		وكلّ الفراشات في غابها

* * *

وذاك الخصام الّذي لو يُفدى		لفدّيتُ ساعاته بالوئام

أفدِّيه من أجل يومٍ ترفّ		يدٌ فيه أو لفتةٌ، بالسلام

ومن أجل عينين لا تستطيعان		أن تنظرا دون ظلّ ابتسام

تذوب له قسوة في الأسارير،		كالصحو ينحلُّ عنه الغمام

* * *

خصاماً ولمّا نعلّ الكؤوس؟		أحطّمتِها قبل أن نسكرا؟

خصاماً، وما زال بعض الربيع		نديّاً على الصيف مخضَوْضرا؟

خصاماً؟ فهل تمنعين العيونَ		إذا لألأ النُّورُ، أن تنظرا؟

وهل تُوقفين انعكاس الخيالِ		من النهر، أن يملك المعبرا؟

* * *

أغانيَّ شبّابتي تَستبيكِ		وتُدنيكِ مني، ففيمَ الجفاء؟

كأنّ قوى ساحرٍ تستبدُّ بأقدامك البيض، عند المساء

ويُفضي بك الدَّرْب حيثُ استدار، إلى مَوْعدي بين ظلٍّ وماء

على الشطّ، بين ارتجاف القلوع وهمس النخيل، وصمت السماء

* * *

وحجّبتِ خدّيك عن ناظريّ بكفّيكِ حيناً، وبالمروحات

سأشدو، وأشدو، فما تصنعين إذا احمرّ خدّاكِ للأغنيات؟

وأرخيتِ كفّيكِ مبهورتَين وأصغيتِ، واخضلّ حتّى الموات

إلى أن يموت الشعاعُ الأخيرُ على الشرق، والحب، والأمنيات

* * *

وهيهات، إنّ الهوى لن يموت ولكنّ بعض الهوى يأفلُ

كما تأفل الأنجمُ الساهرات، كما يغرب الناظِرُ المُسبَلُ،

كما تستجمُّ البحارُ الفساح مليّاً، كما يرقد الجدول

كنَوْمِ اللظى، كانطواء الجناحِ كما يصمتُ النايُ والشمألُ!

* * *

أعامٌ مضى والهوى ما يزالُ كما كان، لا يعتريه الفتورْ؟

أهذا هو الصّيفُ يوفي علينا فنلقاه، ثانيةً، كالزهور؟

ولكنّهن زهور الخلود | فلا أظمأتْ ريّهنّ الحرور
ولا نال من لونهن الشتاءُ | ولا استنزَفت عطرَهُنّ الدهور

أغانيَ، والغاب قَفرُ الوكون | حبيسُ النسائم تحت الدوالي
ترى ماءه، لاتّقاد الهجير، | حريقاً بما فوقه من ظلال
وفوق التعاشيب، حيث الغصون | ينؤنَ بأفيائهنّ الثقالِ،
لها مضجعٌ هدْهدْته العطور؛ | أأبصرت كيف اضطجاع الجمالِ؟

* * *

أأمسيتُ أستحضر الذكرياتِ | وما كان بالأمسِ كلّ الحياه؟
أضاعت حياتي؟ أغاب الغرامُ؟ | أماتتْ، على الأغنياتْ، الشفاه؟
أنُمسي، وما زال غابُ النخيل | خضيلاً وما زال فيه الرعاه
حديثاً على مَوقد السامرين: | أحبّا، وخابا، فوا حسرتاه؟!

* * *

أُناديك، لو تسمعين النداء | وأدعوكِ ـ أدعوكِ؟! يا للجنون!
إذا رنّ في مسمعَيك الغداة | من المهد صوتُ الرضيع الحنون
ونادى بك الزّوجُ أن ترضعيه | ونادى صدىً أخفتته السنون
فما نفعُها صرخةً من لهيب | أدوِّي بها؟ من عساني أكون؟!

* * *

أعقّرتُ من كبرياء النداء؟ وأرْجعتُ آمادي القهقرى؟

نسيتُ الّتي صوّرتها مُناي ونادَيتُ أنثى ككل الورى؟!

وأعرضتُ عن مسمَعٍ في السماء إلى مسمع في تُراب القرى!

أتُصغي فتاةُ الهوى والخيالِ وأدعو فتاة الهوى والثرى!؟

* * *

.. وودَّعتُ سجواءَ بين الحقول ودنيا عن الشرّ في معزل

وخلفتُ، في كلّ ركن خضيلٍ من الريف، ذكرى هوىً أوّلِ

قصاصاتِ أوراقي الهامساتِ بشِعري، على ضفّة الجدولِ

وجِذْعاً كتبتُ اسمها الحُلوَ فيه ونايا يغني مع الشمألِ

* * *

فمنْ هذه المسترقُ القلوبَ صبىً ملؤها روحُه الطافره

أما كنتُ ودّعتُ تلك العيونَ الظليلاتِ والخصلة النافرة؟

كأني ترشّفتُ قبل الغداة سنى هذه النظرة الآسرة!

أما كان في الريف شيءٌ كهذا؟ أما تُشبه الربّة الغابرة؟!

* * *

مشى العُمرُ ما بيننا فاصلاً فمن لي بأن أسبق الموْعدا؟

ولكنه الحبُّ منه الزمانُ ثوان، ومما احتواهُ المدى

أراها فأنفض عنها السنين كما تَنْفِضُ الريحُ بَردَ الندى

فتغدو وعمري أخو عُمرها ويستوقفُ المولِدُ المؤلدا

* * *

وهل تسمع الشعرَ إنْ قُلته وفي مسمعيها ضجيجُ السنين

أطلّت على السبعِ من قبل عشرين عاماً، وما كنت إلّا جنين؟

وأمسى - ولم تدرِ أنت الغرام - هواها حديث الورى أجمعين

لقد نبَّأوها بهذا الهوى فقالت: وما أكثر العاشقين؟!

* * *

أمن قلبهِ انثال هذا النشيدُ إليها، إلى الذئبة الضاريه؟

ولو لم يكن فيه طعمُ الدماءِ ما استشعرت رنّة القافيه

وما زال تسبيه غمّازتان تبوحان بالبسمةِ الخافيه

وما زالتا تُذكران الخيال بما كان في الأعصُر الخاليه:

وبالحُبّ والغادةِ المستبد صباها به، يلعبان الوَرَقْ

وكيف استكان الإله الصغير فألقى سهامَ الهوى والحَنَقْ

رهانٌ، رمى فيه غمّازتيه وَوَرْدَ الخدود، ونور الحدق؛

لكِ الله، كيف اقتحمت القرونَ ولم يخب في وجنتيكِ الألق؟

* * *

كأنّ ابتسامتها والربيعَ شقيقان، لولا ذبول الزَّهر

أآذارُ ينثر تلك الورودَ على ثغرها؟ أم شُعاع القمر؟

ففي ثغرها افترَّ كلُّ الزمانِ وما عُمرُ آذار إلّا شَهر

وبالروحِ فدّيت تلك الشفاه وإن أذكرَتْني بكأس القدر!

* * *

أطلي على طرفيَ الدامع خيالاً من الكوكب الساطع

وظلاً من الأغصن الحالمات على ضفّة الجدول الوادع

وطوفي أناشيد في خاطري يناغين من حُبّيَ الضائع

يفجّرن من قلبي المستفيض ويقطرن في قلبي السامع

1947/2/1

لن نفترق[104]

هبَّتْ تُغمغِم سوفَ نفترقُ
روحٌ على شفتيكِ تحترقُ

صوتٌ كأنَّ ضرام صاعقة
يندا حُ فيه وقلبيَ الأفقُ

ضاقَ الفضاءُ وغامَ في بصري
ضوء النجوم وحطِّمَ الألَقُ

فعلى جُفوني الشاحبات وفي
دَمعي شظايا مِنه أو مِزَق

فيمَ الفِراق؟ أليس يجمعنا
حبٌّ نظل عليه نعتنقُ؟

حبٌّ ترقرق في الوعود سنًا
منهُ ورفَّ على الخُطَى عَبَقُ

* * *

أختاهُ، صمتُكِ ملؤه الريب؟
فيمَ الفراق؟ أما له سببُ؟

الحزنُ في عينيكِ مُرتجِفُ
واليأسُ في شفتيكِ يضطربُ

ويداكِ باردتان مثل غَدي
وعلى جبينكِ خاطرٌ شجِبُ

ما زال سرُّك لا تُجنّحه
آهٍ مؤَجَّجَةٌ ولا يثِبُ

حتى ضجِرتُ به وأَسأَمَه
طولُ الثَّواء وآدَه التعَبُ

«إني أخافُ عليكَ.» واختلجَتْ
شفةٌ إلى القُبلاتِ تَلتهِبُ

* * *

ثم انثنيتِ مَهيضةَ[105] الجلَد | تتنهَّدِينَ وتعصُرينَ يدي
وتُردِّدِينَ وأنتِ ذاهلةٌ | «إني أخافُ عليكَ حزن غدِ»
فتكاد تَنتثِر النجوم أسىً | في جوّهِنَّ كذائب البردِ
لا تتركي، لا تتركي لغدي | تعكير يومي، ما يكون غدي؟[106]
وإذا ابتسمت اليوم من فرحٍ | فلتعبسنَّ ملامحُ الأبدِ[107]
ما كان عُمري قبل مَوعدِنا | إلا السنين تدبُّ في جسَدِ[108]

* * *

أُختاهُ لذَّ على الهوى ألمي | فاستمتِعي بهواكِ وابتسمي
هاتي اللهيبَ فلَستُ أرهبُهُ | ما كانَ حبُّكِ أوَّل الحمَمِ
ما زلتُ مُحترقاً تَلَقَّفُنِي | نارٌ من الأوهامِ كالظُّلَمِ
سوداءُ لا نور يضيء بها | كرقاد حُمَّى دونما حُلمِ
هي ومضة ألقى الوجود بها | جذلان يرقص عاري القدم[109]
هاتي لهيبكِ إنَّ فيه سَنًا | يَهدي خُطايَ ولو إلى العَدمِ

1948/2/21

سراب

بقايا من القافلة

تُنيرُ لها نجمةٌ آفلة

طريقَ الفناء

وتُؤنسها بالغناءْ

شِفاهٌ ظِماء؛

تهاويلَ مرسومةً في السراب

تُمزِّق عنها النقاب

على نظرةٍ ذاهلة

وشوق يُذيب الحدود.

* * *

ظِلالٌ على صفحةٍ باردة،

تُحرِّكهُا قبضةٌ ماردة،

وتدفعها غِنوةٌ باكية،

إلى الهاوية.

ظِلالٌ على سُلَّمٍ من لهيب

رَمى في الفراغِ الرهيبِ

مراتبه البالية

وأَرخَى على الهاوية

قناعَ الوجود.

سنمضي ... ويبقى السَّراب

وظلُّ الشفاه الظماءْ.

يُهوِّم خلف النقاب

وتمشي الظلال البِطَاء

على وقعِ أقدامكِ العارية

إلى ظُلمةِ الهاوية

وننسى على قِمةِ السُّلَّمِ

هوانا ... فلا تحلُمي

بأنَّا نعود!

1948/3/27

وداع[110]

أريقي على ساعديَّ الدموع وشدِّي على صدريَ المُتعَبِ

فهيهاتَ ألَّا أَجوبَ الظلام بعيداً إلى ذلك الغيهبِ

فلا تهمسي: غابَ نجمُ السماء [111] ففي الليل أَكثرُ من كوكبِ

* * *

وهلْ كانَ حُلمٌ بغير انتهاء وهل كانَ لحنٌ بلا آخرِ؟

لكي تحسبي أن هذا الغرام أَبِيدُ الرؤى خالدُ الحاضِرِ

وأنَّا سنبقى نعدُّ السنين مواعيد في ظِلّهِ الدائرِ؟

* * *

على مُقلتيكِ ارتماءٌ عميق وذِكرى مساء تقول ارجعي!

نداءٌ بُعيدُ الصدى كالنجوم يراها حبيبانِ في مَخدعِ!

يكادُ اشتياقي يَهزُّ الحجاب وتُومي ذراعايَ: هيَّا معي!

* * *

سأمضي فلا تحلُمي بالإياب على وَقعِ أقدامِيَ النائيةْ

ولا تتبعيني إذا ما التفتُّ ورائي إلى الشمعةِ الخابيةْ

يُرَنِّحُها في يديكِ النحيبُ فتهتزُّ من خلفِكَ الرابيةْ

* * *

ستنسَين هذا الجبينَ الحزين كما انحلَّتِ الغيمة الشاردةْ

وغابت كحُلمٍ وراء التلال بعيداً سوى قطرةٍ جامدةْ

ستنثرها الريح عمَّا قليل وتشربها التُّربَةُ الباردةْ

* * *

ورُبَّ اكتئابٍ يُسيل الغروب على صمته الشاحبِ الساهِم

وأغنيةٍ في سكون الطريق تلاشَتْ على هدأَةِ العالمِ

أثارا صدًى تهمس الذكريات إذا ما انتهى همسةَ الحالمِ

* * *

غداً حين يَبلى وراء الزجاج كتابٌ عليه اسميَ الذابلُ

وتنفض كفَّاكِ عنه الغُبار ويخلو بكِ المَخدَع القاحِلُ

سيلقَاكِ وجهي خلال السطور كما يسطَعُ الكوكبُ الآفِلُ

* * *

إذا ما قرأتِ «اللقاءَ الأخير» تمنَّيْتِ، في غفلةٍ هاربة

لو استرجعَتْ قبضتاكِ السنين لو استرجعَتْ ليلةً ذاهبة!

ولكنَّ شيئاً حواه الجِدار تحدَّى أمانيَّكِ الكاذبة

* * *

تلفَّتِّ عن غير قصدٍ هُناك فأبصرتِ يالانتحار الخيال!

حروفاً من النار، ماذا تقول؟ لقد مرَّ ركبُ السنينَ الثِّقال

وقد باح تقويمهن الحزين بأن اللقاء المُرجَّى مُحال!

1948/4/5

لا تزيديه لوعة[112]

لا تزيديه لوعةً فهو يلقاكِ لِينسى لديكِ بعضَ اكتئابه

قرِّبِي مُقلتَيكِ من وجهه الذاوِي تَرَي في الشحوبِ سرّ انتحابِه

وانظري في غضونِهِ[113] صرخة اليأس أشباحَ غابرٍ من شبابه

لهفةٌ تسرق الخُطَى بين جفنَيهِ وحُلمٌ يموتُ في أهدابِه

* * *

واسمعيه إذا اشتكى ساعة البَيْنِ وخافَ الرحيل يوم اللقاءِ

واحجبي ناظريه في صدركِ المِعْطارِ عن ذلك الرصيف المُضَاءِ

عن شراعٍ يراهُ في الوهمِ ينسابُ وموجٍ يُحِسُّه في المساءِ

الوداع الحزين! شُدِّي ذراعَيكِ عليهِ، على الأَسى والشَّقاءِ

* * *

حدِّثِي، حدِّثيه عن ذلك الكوخِ وراء النخيل بين الروابي

حُلم أيامه الطِّوَالِ الكئيباتِ فلا تحرميه حُلم الشبابِ

أوهِمِيه بأنه سوف يلقاكِ على النَّهرِ تحت سِتر الضبابِ

وأضيئي الشموع في ذلك الكُوخِ وإن كان كله من سرابِ

* * *

كُلَّما ضجَّ شاكياً في ذراعيْكِ انتهاءَ الهوى صرختِ انتهارا

فارتمى، أين يرتمي صدره الجيَّاشُ حُزنًا وحَيرةً وانتظارا؟

اغضَبي وادفعيهِ عن صدركِ القَاسِي وأَرخي على هواهُ السِّتارا

أَوصدِي الباب خَلفَه واتركيهِ مثلما كان للدُّجَى والصحارَى!

1948/4/8

عبير

عطَّرتِ أحلامي بهذا الشَّذى من شَعركِ المُسترسِل الأسودِ

الجوُّ من حولي ربيعٌ حبا من خِدره النائي إلى الموعدِ

هذا عبيرُ الحبِّ فجَّرتِه يبحثُ عن مجرى لهُ في غدِ

نبعٌ أثيريٌّ الخُطَى حالمٌ بالظلَّةِ الخضراء والمسندِ

والعاشق السّكران يُحصي على ثَغرِك ما في الليلِ من فَرقدِ

أوقدتِ مِصباحَ الهوى بعدما خبا ولولا أنتِ لم يُوقَدِ

هبَّتْ عليهِ الريحُ مجنونةً محلولةَ الشَّعر خضيبَ اليدِ

الزّيتُ من هذا الشَّذى واللَّظى من قُبلةٍ في الغيبِ لم تُولَدِ

تطفو على العِطرِ خيالًا فلا تَرسُب إلا في الفؤادِ الصَّدِي

* * *

أهمُّ أن أهتف: أنتِ التي مثَّلتُها في أمسِيَ الأَبعدِ

وأنتِ من تحلُمُ روحي بها على ضفافِ الزمن المُزبِدِ

تُسائِل الموج وتُومي إلى كُلّ شراعٍ علَّهَا تهتدِي

أهمُّ أن أهتف لولا خُطًى عابرةٌ في الخاطر المُجْهَدِ

أطيافُ حسناواتيَ استيقظَتْ هاتفةً: يا ذكرياتُ اشهَدي؟

ما نالَ مِنَّا غير أسمائنا تسخرُ من آماله الشُّرَّدِ

مكتوبة بالنّارِ في شِعره كالصورةِ الخرساءُ في مَعبدِ

1947/10/21

عينان زرقاوان

عينان زرقاوان ينْعَسُ فيهما لونُ الغديرْ

أَرْنُو فينسابُ الخيالُ ويُنْصِتُ القلبُ الكسيرْ

وأغيبُ في نَغَمٍ يذوبُ وفي غمائمَ من عبيرْ

بيضاء مِكسال التلوّي تستفيقُ على خَريرْ

ناءٍ يموتُ وقد تَثَاءَبَ كوكبُ الليل الأخيرْ

يَمضِي على مهلٍ وأَسْمَعُ همستَين وأستديرْ

فأذوبُ في عينَينِ ينْعَسُ فيهما لونُ الغديرْ

* * *

حسناءُ، يا ظلَّ الربيعِ، مللتُ أشباح الشتاءْ

سُوداً تُطِلُّ من النوافِذِ كُلما عَبَسَ المساءْ

حسناءُ، ما جدوى شبابي إن تقضّى بالشقاءْ

عيناكِ، يا للكوكبَيْنِ الحالمَيْن بلا انتهاءْ

لولاهُمَا ما كنتُ أعْلَمُ أنَّ أضواءَ الرجاءْ

زرقاءُ ساجيةٌ وأنَّ النور مِنْ صُنع النساءْ

هي نَظرةٌ من مُقلتَيْكِ وبَسمةٌ تَعِد اللقاءْ

ويُضيء يومي عن غَدِي وتفِرُّ أشباحُ الشتاءْ

* * *

عيناكِ أم غابٌ ينامُ على وَسائدَ من ظِلالْ؟

ساجٍ تلثَّمَ بالسكونِ فلا حَفيفَ ولا انثيالْ

إلا صدىً واهٍ يسيلُ على قَياثرَ في الخيالْ

إني أُحسُّ الذكرياتِ يَلفُّها ظلُّ ابتهالْ

في مقلتَيكِ مَدىً تَذُوبُ عليه أحلامٌ طِوالْ

وغفا الزمانُ فلا صَباحَ ولا مساءَ ولا زوالْ!

أني أَضيعُ مع الضبابِ سوى بقايا من سُؤالْ

عيناكِ أم غابٌ ينامُ على وَسائدَ من ظلالْ؟!

1948/1/6

في ليالي الخريف

في ليالي الخريف الحزين،

حين يطغى عليَّ الحنين،

كالضباب الثقيل،

في زوايا الطريق،

في زوايا الطريقِ الطويل،

حين أَخلو وهذا السكونَ العميق

تُوقَد الذكريات،

بِابتساماتِكِ الشاحبات،

كُلُّ أضواءِ ذاك الطريقِ البعيد

حيثُ كان اللقاء.

* * *

في سكون المَساء

هل يعود الهوى من جديد؟

عاهِديني إذا عاد ... يا للعذاب!

عاهِديني ... ومرَّتْ بقايا رياح

بالوُرَيقات، في حَيرةٍ واكتئاب،

ثُمَّ تهوِي حِيالَ السِّراج الحزين.

انتهَينا ... أما تذكُرين؟

انتهَينا ... وجاء الصَّباح

يسكُبُ النورَ فوقَ ارتخاءِ الشفاه

وانحلالِ العناقِ الطويل،

أين آلام يوم الرحيل؟

أين: لا «لستُ أنساكِ»، وا حسرتاه؟

* * *

في ليالي الخريف

حين أُصغي، ولا شيء غيرُ الحفيف

ناحلاً كانتحابِ السجين

خافَ أن يُوقظ النائمِين،

فانتحى في الظَّلام،

يرقُبُ الأنجُمَ النائيات،

حجَبَتها بقايا غَمام،

فاستبدَّتْ به الذِّكريات؛

الغناءُ البعيدُ البعيد

في ليالي الحَصَاد،

أوجُه النسوةِ الجائعات...

ثُم يَعلو رنينُ الحديد

يَسلُب البائسَ الرُّقاد!

في ليالي الخريف

حين أُصغي وقد مات حتى الحَفيف

والهواء

تعزف الأمسيات البِعاد

في اكتئابٍ يُثير البكاء،

شهرزاد[114]

في خيالي فيطغى عليَّ الحنين،

أين كُنَّا؟! أما تَذكُرِين؟

أين كُنا؟! أما تَذكُرِين المساء؟!

* * *

في ليالي الخريفِ الطِّوال،

آهِ لو تَعلمِين

كيف يَطغى عليَّ الأسى والمِلال؟!

في ضلوعي ظلامُ القُبورِ السجين،

في ضلوعي يصيح الرَّدَى

بالتراب الذي كان أمي: «غداً

سوف يأتي، فلا تُقلقي بالنحيب

عالمَ الموتِ، حيثُ السكونُ الرهيب!»

سوف أمضي كما جئتُ وا حسرتاه!

سوف أمضي ... وما زال تحت السماء

مُستَبِدُّونَ يستنزفون الدماء،

سوف أمضي وتبقى عيون الطُّغاة

تستمدُّ البريق

من جذى كل بيتٍ حريق

والتماعُ الحراب

في الصحارَى، ومن أعين الجائعين،

سوف أمضي ... وتبقَي، فيا للعذاب!

سوف تحيَين بعدي، وتستمتعِين

بالهوى من جديد،

سوف أنسى وتَنسَين، إلَّا صدًى

من نشيد

في شفاهِ الضحايا، وإلَّا الردى.

1948/9/17

أغنيةٌ قديمة[115]

1

في المقهى المزدحم النائي، في ذاتِ مساء،

وعيوني تنظرُ في تعبٍ

في الأوجهِ، والأيدي، والأرجل، والخشبِ[116]

والساعة تهزأ بالصَّخَبِ.

وتدقُّ، سمعتُ ظِلال غناء ...

أشباحَ غناء

تتنهَّدُ في الحاكي، وتدور كإعصار

بالٍ مَصدور،

يتنفَّسُ في كهفٍ هارٍ

في الظُّلمةِ مُنذ عُصور!

2

أُغنية حب ... أصداء

تنأى ... وتذوبُ ... وترتجفُ

كشِراعٍ ناءٍ يجلو صورته الماء

في نصف الليل ... لدى شاطئِ إحدى الجُزر،

وأنا أُصغي ... وفؤادي يعصره الأسفُ:

لم يسقط ظِلٌّ يدُ القدرِ

بين القلبَين؟! لم أنتزع الزمنَ القاسي

من بين يديَّ وأنفاسي

يُمناكِ؟ وكيف تركتُكِ تبتعدين ... كما

تتلاشى الغنوة في سمعي ... نغماً نغما؟!

3

آهٍ ما أقدم هذا التسجيلَ[117] الباكي

والصوت قديم؛

الصوت قديم

ما زال يُولوِلُ في الحاكي.

الصوتُ هُنَا باقٍ، أمَّا «ذات» الصوت:

القلب الذائب إنشاداً

والوجهُ الساهمُ كالأحلام، فقد عادا

شبحاً في مملكةِ الموت -

لا شيءَ - هُنالِكَ في العدم[118].

وأنا أصغي ... وغدًا سأنامُ عن النغمِ!

أصغيتُ ... فمثَّلَ إصغائي

لي وجهَ مُغنيةٍ كالزهرةِ حسناء[119]

يتماوج[120] في نبرات الغنوة، كالظلّ

في نهرٍ تُقلقه الأنسامُ،

في آخرِ ساعاتِ الليلِ،

يصحُو ويَنَام.

أأثور؟! أأصرخ بالأيّام؟! وهل يُجدي؟!

إنَّا سنموت

وسنَنْسَى، في قاع اللَّحْدِ؟

حُبًّا يَحيا معنا ... ويموت!

4

ذرَّات غبار

تهتزُّ وترقصُ، في سأم،

في الجوِّ الجائشِ بالنغمِ،

ذرَّات غبار!

الحسناءُ المعشوقة مثل العشّاق[121]

ذرَّات غبار!

كم جاء على الموتى - والصوت هنا باقٍ -

ليلٌ ... ونهار

هل ضاقَتْ، مِثلي، بالزمنِ

تقويمًا خُطَّ على كفنٍ،

ذرَّاتُ غُبار؟!

1948/7/20

سِتار

1

عيناكِ؛ والنّورُ الضّئيلُ من الشّموعِ الخابياتِ

والكأسُ، واللّيلُ المُطِلُّ مِن النّوافذ، بالنّجومِ

يبحَثْنَ في عينيَّ عن قلبٍ وعن حُبٍّ قديمِ

عن حاضرٍ خاوٍ، وماضٍ في ضباب الذّكرياتِ

ينأى، ويصغُر، ثم يَفْنَى، إنه الصّمتُ العميقْ

والبابُ تُوصِدُه وَرَاءَكِ في الظّلام يدا صديقْ!

2

كالشّاطئ المهجور قلْبِي، لا وميضَ ولا شِراعْ

في ليلةٍ ظلماءَ بلَّ فضاءَها المطرُ الثقيلْ

لا صرخةَ اللُّقْيَا تُطيفُ بهِ ولا صمتُ الرَّحيلْ

يُمناكَ والنّورُ الضّئيلُ أكانَ ذاك هو الوداعْ؟!

بابٌ وظِلٌّ يدين تفْتَرِقانِ ثم هوى الستارْ

ووقفتُ أنظرُ، في الظلامِ، وسِرتِ أنتِ إلى النهار!

3

في ناظرَيكِ الحالمَيْنِ رأيتُ أشباحَ الدموعْ

أنأَى من النَّجمِ البعيدِ، تمرُّ في ضوءِ الشموعْ

واليأسُ مدَّ على شِفاهِكِ، وهي تهمسُ في اكتئابْ

ظِلًّا كما تُلقي جبالٌ نائياتٌ من جليدْ

أطيافَهن على غديرٍ تحت أستار الضبابْ

لا تسألي: ماذا تُريدُ؟ - فلستُ أَملِكُ ما أريدْ!

4

بابٌ وظلٌّ يدَين تفْتَرِقانِ - ليتكِ تعلمينْ

أن الشّموع سيَنطفِينَ، وأن أمطار الشتاءْ

بيني وبينكِ سوف تَهْوِي كالستار فتصرخينْ

الريحُ تُعوِلُ عند بابي، لستُ أسمعُ من نداءْ

إلَّا بقايا من حديثٍ ردَّدَتْه الذكرياتْ

وسنانَ هوَّمَ كالسَّحابَةِ في خيالي ثُم ماتْ!

5

أنا سوفَ أمضي، سوف أنْأَى، سوف يُصبحُ كالجمادْ

قلبٌ قضيتِ الليلَ باحِثةً، على الضوء الضئيلْ

عن ظِلِّه في مُقْلتَيَّ فما رأيتِ سوى رمادْ!

أنا سوفَ أمضي - رُبما أنسى، إذا سال الأصيلْ

بالصّمتِ، أنكِ في انتظارِي تَرقُبين وتَرقُبينْ

أو ربما طافت بِيَ الذِّكْرَى فلم تُذكِ الحنينْ

6

الزّورقُ النّائي وأنَّاتُ المجاديفِ الطِّوالْ

تدنو على مهلٍ وتدْنو - في انخفاضٍ وارتفاعْ

حتى إذا امتدت يَدَاكِ إليَّ في شبهِ ابتهالْ

وهمستِ: «ها هو ذا يعود!» - رَجعتِ فارغةَ الذِّراعْ!

وأفقتِ في الظّلماءِ حَيْرَى، لا تَرينَ سِوى النجومْ

تَرنُو إليكِ من النّوافِذِ في وُجومٍ، في وجومْ!

7

قد لا أَؤوبُ إليكِ إلّا في الخيال، وقد أَؤوبْ

لا أمسِ في قلبي، ولا في مُقلتَيَّ هوًى قديمْ

كفَّانِ ترتجفانِ حَوْلَ الموقِد الخابي وكُوبْ

تتراقصُ الأشباحُ فيهِ وتنظُرِين إلى النجومْ

حَذرَ البُكاءِ و«كيف أنْتِ؟» تهزُّ قلبَكِ في ارتخاءْ

- «عاد الشتاء...» - فتهمِسِينَ: «وسوفَ يرجع في الشتاء!».

1948/10/8

سجين

ذراعا أبي تُلقيان الظلالَ على روحيَ المُستَهَامِ الغريب

ذراعا أبي والسراجُ الحزين يُطاردنني في ارتعاشٍ رتيب

وحفَّتْ بي الأوجهُ الجائعات حَيارى فيا للجدار الرهيب!

ذراعا أبي تُلقيان الظلالَ على روحي المُستهام الغريب

* * *

وطال انتظاري كأنَّ الزمانَ تَلاشَى فلم يبقَ إلا انتظار!

وعيناي ملءُ الشمال البعيد فيا ليتني أستطيعُ الفِرار

وأنتِ التقاءُ الثَّرى بالسَّماء على الآلِ في نائياتِ القِفَار

وطالَ انتظاري كأنَّ الزمان تَلاشى فلم يبقَ إلّا انتظار!

* * *

أألقاكِ؟ تأتي عليَّ النجوم وتمضي وما غيرُ هذا السؤال

تُغنّيه في مِسمعيَّ الرياح وتُلقيه في ناظريَّ الظلال

وترنو على جَرْسه الأمنياتُ إلى ذكريات الهوى في ابتهال

أألقاكِ؟ تأتي عليَّ النجوم وتمضي وما غير هذا السؤال

* * *

أصيخي! أما تسمعين الرنين تُدوِّي به الساعة القاسية؟

أصيخي فهذا صَليلُ القيود وقهقهة الموت في الهاوية!

زمان ... زمان يهزُّ النداءُ فؤادي فأدعوك يا نائية

أصيخي! أما تسمعين الرنين تُدَوِّي به الساعة القاسية؟!

* * *

أما تُبصرين الدخانَ الثقيل يَجُرُّ الخُطَى من فَمِ المَوقِدِ؟!

تَلَوَّى فأبصرتُ فيه الظهور وقد قوَّسَتْها عصا السيّدِ

وأبصرتُ فيه الحجابَ الكثيفَ على جبهةِ العالم المُجهَدِ

أما تُبصرين الدخان الثقيل يجرُّ الخُطَى من فمِ المَوقِد؟!

* * *

ولا بد من ساعةٍ، من مكانٍ لِرُوحَين ما زالتا في ارتقاب!

سألقاكِ، أين الزمان الثقيل إذا ما التقينا، وأين العذاب؟!

سينهارُ عن مُقلتَيكِ الجدار وتفنى ذراعا أبي كالضباب

ولا بدَّ من ساعةٍ من مكان لِرُوحَين ما زالتا في ارتقاب!

* * *

وكيفَ التلاقي، وبين المُنى　　　وإدراكِهِنَّ الدُّخَانُ الثقيل؟

تموجُ الأساطيرُ في جانبَيه　　　ويحبُو على صدره المستحيل

ونحنُ الغريقان في لُجِّهِ　　　سننسى الهوى فيه عمَّا قليل

وكيفَ التلاقي، وبين المُنَى　　　وإدراكِهِنَّ الدُّخَانُ الثقيل؟

* * *

لِينهدَّ هذا الجدار الرهيب　　　وتندك حتى ذراعا أبي!

أحاطتْ بي الأعينُ الجائعات:　　　مرايا من النارِ في غَيْهَبِ

إذا استطَعت مَهرباً مُقلتاي　　　تصدَّى خيالان في مَهربي

فأبصرتُ ظلَّين لي في الجدار　　　أو استوقفَتني ذراعا أبي

* * *

سأبقى وراء الجدارِ البغيض　　　وعيناايَ لا تَبرحان الطريق

أعدُّ الليالي خلال الكوى　　　وأَرعى نجومَ الظَّلامِ العميق

فلا تيأسي أن تمرَّ السنون　　　ويُطفِين في وجنتَيكِ البريق

سأبقى وراء الجدارِ القديم　　　وعيناايَ لا تبرحان الطريق

1947/7/27

ذكرى لقاء[122]

قد انتصف الليل، فاطوِ الكتاب عن الريح والشمعةِ الخابية

فعيناكَ لا تقرآن السطور ولكنَّها العلةِ الواهية

فأنتَ تَرَى مُقلتَيها هُناك وذكرى من الليلة الماضية

فتطوِي على رُكبتيك الكتاب وتَرْنُو إلى الأنجُم النائية

* * *

هنا أنتَ بين الضياء الضئيل وبين الدُّجَى في الفضاء الرحيب

وكمْ من مصابيح تَفنَى هُناك تُنير الثَّرى والفراغَ الرهيب

مصابيح كانت تذوب
وتنحلُّ في شَعرها
خُطانا ولون الغروب
وما ضاع من عِطرها

وتُلقي على ذكريات الشتاء ستاراً من الأدمُع الراجفة

فتخبو مصابيحهن البعاد بطيئاً كما تبرُد العاطفة

كما افترقَتْ يومَ حانَ الرحيل يدٌ صافحتها يدٌ واجفة

كرجع الخُطَى في الطريقِ البعيد   كما انحلَّت الرغبة الخائفة

* * *

وتُصغي ولا شيء إلّا السكون   وإلّا خُطَى الحارس المُتعَبِ

وإلّا ارتعاش الضياء الضئيل   وخفقُ الظلالِ على المَكتَب

وأسفارك البالية

كأشباحُ موتى تسير

حَيارَى إلى الهاوية

- وحُلم ادكارٍ قصير -

وتنسابُ مثل الشراعِ الكئيب   وراء الدُّجَى رُوحك الشاردة

ترى وجهها كالتماعِ النجوم   وتطويه عنك اليد الماردة

إلى أن يذوب الضبابُ الثقيل   وتنهارَ ألوانُه الجامدة

فها أنتَ ذا تستعيد اللقاء   كما عادَت الجُثَّة الباردة

* * *

وتمتدُّ يُمناك نحو الكتاب   كمن يَنشُد[123] السلوة الضائعة

فتبكي مع العبقري المريض[124]   وقد خاطبَ النجمةَ الساطعة:

«تمنيتُ يا كوكبُ

ثباتاً كهذا، أنام

على صدرها في الظلام

وأفنى كما تغربُ»

ويَغشى رُؤاك الضياءُ القديم بطيئاً، كما سارتِ القافلة

تَرَى البابَ مثل انعكاس المَغِيب على صفحةِ الجدولِ الناحلة

ويَغشى رؤاك الضياءُ القديم يُنيرُ لك الغرفةَ الآفلة

ويَغشَى رُؤاكَ الضياء القديم فيا لانتفاضتِك الهائلة!

* * *

تَرَى الباب ألقى عليه الأصيلُ ظِلالاً من الكرمة العارية

فما كان غيرُ اعتناقٍ طويل عصَرنا به القوة الباقية

وألقيتُ عبءَ السنين

ورأسي، على صدرها

فشدَّتْ عليه اليمين

وأدنَتْهُ من ثغرها ...

وأيقنتُ أن الحياة؛ الحياة - بغيرِ الهوى - قصةٌ فاترة

وأني بغير التي ألهبَتْ خيالِي بأنفاسها العاطرة

شريدٌ يَشُقُّ ازدحام الرجال وتَخنُقه الأعيُن الساخرة[125]

ملال

ليلان غاما بالنجومِ الآفلاتِ على سُهادِي

يومان. لا وعدٌ ولا لُقيا وتَخفِقُ يا فؤادِي؟!

وغداً سيمتلئُ انتظارِي بالظلامِ ولا أراها

وتجولُ عيني في الطرِيقِ وتستقرُّ على كتابي

وأكيلُ بالأقداح ساعاتي وأسخرُ باكتئابي

وأنامُ أحلم بالشتاءِ وأستفيقُ على هواها

* * *

سأمٌ ومصباحٌ وحيدٌ رانَ في أقصى الطريق

مرَّتْ وُجوه العابرِينَ به فلوَّنها قليلَا

مرَّتْ وغابت في الظلامِ، وليس يبرح في حريق

سأمٌ ونافذةٌ يُطيلُ فضاؤها الدرب الطويلَا

سأمٌ ومرآة تثاءبَ في قرارتها الوجوم

الغُرفة الجوفاء والْأَقداحُ والبابُ القديم

* * *

بالأمسِ كان هوًى وكان وكان، وَيحَ الذكريات

«وافرحتاهُ أتَصدُقِينَ؟» وقادنا نجم المساء

في ذلك الدربِ البعيدِ وألفُ نجوى واشتكاء[126]

تخبُو وتنأى، والعناقُ يَعُدُّ أضواء الطريق

بالأمس كان هوىً وكانَ، وخيَّمَ الصمتُ العميق

* * *

دبَّ الملال إلى فؤادِك مثلَ أوراق الخريف

«أهواك»؟ ماذا تهمسينَ؟ أتلك حشرجةُ الحفيف

في دوحةٍ صفراء يُقلِق ظلها روح الشتاء؟!

لا تنظري! في مقلتَيْكِ سحابتان من الجليد

تتألَّقَان ولا لهيبَ وتزحفان ولا فضاء

فلَّ العناق على الجفونِ وحطَّمَ الدرب البعيد!

1948/5/3

نـهاية

«سأهواك حتّى تجف الأدمع في عيني
وتنـهار أضلعي الواهية..»
«هي»

1

أضيئي لغيري فكلُّ الدروب

سواءٌ على المقلة الشاردة،

سأمضي إلى مجهلٍ لا أَؤوب

فإن عادت الجثة الباردة،

فألقِي على الأعيُن الخاويات

طيب[127] السماء.

لعلَّ الرؤى الخابيات

إذا مسَّ أطرافَهن الضياء،

يُخبِّرْنَ عن ذلك المجهلِ:

عن الريح والغاب والجدولِ

أضيئي لها يا نجوم!

2

«سأهواك حتى ...» نداءٌ بعيد

تلاشَتْ على قهقهات الزمان

بقاياه. في ظلمةٍ، في مكان،

وظلَّ الصدى في خيالي يُعيد:

«سأهواك حتى سأهوى» نواح

كما أعولَتْ في الظلام الرياح،

«سأهواك حتى ... سـ...» يا للصدى

أصيخي إلى الساعة النائية:

«سأهواك حتى ...» بقايا رنين

تحدَّينَ دقَّاتها العاتية،

تحدَّينَ حتى الغدا،

«سأهواك» ما أَكذبَ العاشقِين!

«سأهوا...» نعم ... تَصدُقِين.

3

ظلامٌ وتحت الظلام المخيف

ذِراعان تستقبلان الفضاء

أبعد اصفرار الخريف

تُريدين ألَّا يَجيء الشتاء؟

لقاءٌ وأين الهوى يا لقاء؟!

عَويلٌ من القرية النائية،

وشيخٌ ينادى فتاة الغريق،

بهذا الطريق وذاك الطريق،

ويمشي إلى الضفة الخالية

يُسائل عنه المياه،

ويصرخ بالنهر ... يدعو فتاه،

ومصباحه الشاحبُ

يُغني «سُدى» زيته الناضبُ

«مُحالٌ يراه!»

ويحنو على الصفحة القاتمة

يُحَدِّقُ في لهفةٍ عارمة،

فما صادفت مُقلتاه

سوى وجهه[128] المكفَهرُّ الحزين

تُرجرجه رعشةٌ في المياه

تُغمغم «لا لن تراه.»

4

أحقًّا نسيتِ اللقاء الأخير

أحقًّا نسيتِ اللقاء ...؟

أكان الهوى حُلم صيفٍ قصير

خبا في جليد الشتاء؟

خبا في جليد

وظلَّ الصدى في خيالي يُعيد:

«خبا في جليد ... خبا في جليد.»

ويا رُبَّ حُلمٍ يُهيل الزمان

عليه الرؤى والسنين الثقال

فتمضي ويبقى شُحوب الهلال

يلون بالأرجوان

شحوبَ النجوم وصمتَ القمر،

ويُومض في كلِّ حُلم جديد،

شُحوب الهلال وظل الشجر

وطيف الشراع البعيد؟

1948/5/26

في القرية الظلماء

1

الكوكب الوسنان يُطفئ ناره خلف التلال،

والجدول الهدَّار يُسبره الظلام

إلَّا وميضاً، لا يزال

يطفو ويرسب مثل عينٍ لا تنام،

ألقَى به النجم البعيد

يا قلب ما لكَ، لستَ تهدأُ ساعة؟ ماذا تريد؟

النجم غاب وسوف يُشرِقُ من جديدٍ، بعد حين،

والجدول الهدَّار هَينَم ثم نام،

أمَّا الغرام، دع التشوُّق يا فؤادي والحنين!

2

أأظلُّ أذكرها ... وتنساني؟

وأبيتُ في شِبه احتضار، وهي تنعم بالرُّقاد؟

شعَّتْ عيونُ حبيبها الثاني

في ناظرَيها المُسبَلَيْن على الرؤى، أمَّا فؤادي

فيظل يهمسُ، في ضلوعي،

باسم التي خانت هواي ... يظل يهمس في خشوع.

إني سأغفو ... بعد حينٍ سوف أحلُم في البحار:

هاتيك أضواء المرافئ وهي تلمعُ من بعيد ...

تلك المرافئ في انتظار ...

تتحرَّقُ الأضواء فيها ... مثلَ أصداءٍ تبيد.

3

القرية الظلماء خاوية المعابر والدروب،

تتجاوب الأصداء فيها مثل أيام الخريف

جوفاء ... في بطءٍ تذوب،

واستيقظ الموتى ... هناك على التلال، على التلال

الريح تُعوِل في الحقول، ويُنصِتون إلى الحفيف.

يتطلَّعُون إلى الهلال

في آخر الليل الثقيل ... ويرجعون إلى القبور

يتساءلون متى النشور!

والآن تُقرَع في المدينة ساعة البرج الوحيد.

لكنني في القرية الظلماء ... في الغابِ البعيد.

4

دعها تُحِبُّ سواي، تقضي في ذراعَيه النهار

وتراهُ في الأحلام يعبسُ أو يُحَدِّثُ عن هواه،

فغداً سيهوِي ساعداه

مثل الجليد، على خطوطٍ باهتات، في إطار،

وعلى الرفوف الشاحبات رسائل

عادت تلفُّ، على نسيج العنكبوت، بها الوعود

والريح تهمس: لن يعود،

ويُلَوِّنُ المرآة ظِلٌّ من سِرَاجٍ ذابل،

وحِيالَه امرأةٌ تُحَدِّقُ في كتاب

بالٍ، وتبسُمُ في اكتئاب.

5

الكوكب الوسنان يُطفئ ناره خلف التلال.

والجدول الهدَّار يُسبره الظلام

إلا وميضاً، لا يزال

يطفو ويرسب مثل عينٍ لا تنام؛

ألقى به النجم البعيد.

يا قلبُ، مالك في اكتئابٍ، لستَ تعرف ما تُريد؟!

1948/6/20

لقاءٌ.. ولقاء

لستِ أنت الّتي بها تحلم الروح، ولستِ الّتي أغني هواها،

كان حبٌّ يشدّ، حولي، ذراعيك، ويدني من الشفاه الشفاها؛

واشتياق كأنما يسرق الروح - فما في العيون إلّا صداها!

وانتهينا، فقلتِ «إني سأنساه» وغمغمت «سوف ألقى سواها»

* * *

أمس طال اللقاء؛ حتّى تثاءبتِ، وشاهدتُ في يديك الملالا،

في ارتخاء النسيج تطويه يمناك وعيناك ترمقان الشمالا،

في الغياب الطويل؛ والمقعد المهجور ترمي يدي عليه الظلالا،

في الشفاه البطاء تدنو من الكوب.. وترتدّ ثمّ تلقي سؤالا

* * *

التقينا - أهكذا يلتقي العشّاق؟ أم نحن وحدنا البائسان؟

لا ذراعان في انتظاري على الباب، ولا خافق يعدّ الثواني

في انتظاري؛ ولا فمٌ يعصر الأزمان في قبلة، ولا مقلتان

تسرقان الطريق والدمع من عينيَّ؛ والداء والأسى من كياني

* * *

قد سئمت اللقاء في غرفة أغضى[129] على باب اكتئاب الغروب:

الضياء الكسول، والمزهريات تراءى بهن خفق اللهيب

كالجناح الثقيل في دوحة صفراء في ضفّة الغدير الكئيب[130]

* * *

واحتشاد الوجوه مثل التماثيل احتواهنّ معبد مهجور،

سمّرت قبلة التلاقي على ثغري... فعادت كما يطلّ الأسير

من كوى سجنه إلى بيته النائي - كما يخفق الجناح الكسير

للغدير البعيد - كالموجة الزرقاء جاشت فحطّمتها الصخور!

* * *

عزّ حتّى الحديث بين الأحاديث، وحتى التقاؤنا بالعيون،

في فؤادي الشقيّ مثل الأعاصير، وفي ساعديّ مثل الجنون

التقينا؟ أكان شوقي للقياك اشتياقاً إلى الضياء الحزين،

واحتشاد الوجوه في الغرفة الجوفاء؛ والشاي، والخطى، واللحون،

* * *

الخطى واللحون، من فجوة الباب تسلّلن والضياء الضئيلا،

والأزاهير تشرب النور في بطء ويعكسنه ابتساماً ذليلاً

كابتساماتي الحيارى وإطراقي برأسي وقد ذكرت الحقولا،

والغناء الطروب، والمعبر المغمور بالنور والشذى؛ والنخيلا

* * *

لستِ أنت الّتي بها تحلم الروح - ولكنه الغرام المضاع:

الخطى العابرات في النور والأنداء؛ والشطّ والضحى والشراع -

التقينا: يدٌ تُمَدُّ إلى أخرى، وللنور في الشفاه التماع

ترقص القبلة المرجاة فيه - ثمّ يدنو فمٌ وتطوى ذراع!

* * *

لستِ أنت الّتي بها تحلم الروح - ولكنه انتظار اللقاء:

انتظار الّتي تحلم بها الروح إذا لفّها اكتئاب المساء،

واستبدّ الحنين، وانثالت الأصداء من كلّ ضفّة قمراء

لا تراها العيون، في عالمٍ ناءٍ؛ ومن كلّ باب كوخ مضاء

* * *

إنها الآن في انتظاري، تجيل الطرف حيرى، على امتداد الطريق،

والمساء الكئيب قد ماجَ بالأصداء تنساب من مكان سحيق:

«اتبعينا... فإنّ في الشاطئ النائي شراعاً يهيم[131] بالتصفيق

والحبيب المجهول ناداك؛ وامتدت ذراعاه في انتظار عميق»

1948/12/14

هل كانَ حُبّاً[132]

هل تُسمّين الذي ألقى هياماً؟

أم جنوناً بالأماني؟ أم غراما؟

ما يكون الحبُّ؟ نَوْحاً وابتساما؟

أم خُفوقَ الأضلع الحرَّى، إذا حان التلاقي

بينَ عينينا، فأطرقتُ، فراراً باشتياقي

عن سماء ليس تسقيني، إذا ما؟

جئتها مُستسقياً، إلّا أواما

* * *

العيون الحور، لو أصبحنَ ظِلّاً في شرابي

جفّت الأقداحُ في أيدي صحابي

دون أن يحظين حتّى بالحباب.

هيّئي، يا كأسُ، من حافاتكِ السكرى، مكانا

تتلاقى فيه، يوماً، شَفتانا

في خفوقٍ والتهابِ

وابتعادٍ شاعَ في آفاقه ظلُّ اقتراب

* * *

كم تمنّى قلبيَ المكلومُ لو لم تستجيبي

من بعيدٍ للهوى، أو من قريبِ؛

آهِ لو لم تعرفي، قبل التلاقي، من حبيب!

أيُّ ثغرٍ مسّ هاتيك الشِّفاها

ساكباً شكواهُ آهاً.. ثمّ آها؟

غير أنّي جاهل معنى سؤالي عن هواها:

أهو شيءٌ من هواها يا هواها؟

* * *

أحسدُ الضوء الطروبا

مُوشكاً، مما يلاقي، أن يذوبا

في رباطٍ أوسع الشَّعرَ التثاما،

السماء البكرُ من ألوانه آناً، وآنا

لا يُنيلُ الطرْفَ إلّا أرجوانا.

ليتَ قلبي لمحةٌ من ذلك الضوء السجين؛

أهو حبٌّ كلُّ هذا؟! خَبّريني.

1946/11/29

الموعدُ الثّالث

فرّ النهارُ من البيوتِ النائياتِ، إلى السحابِ...

من شُرفةٍ زرقاءَ تحلم بالكواكب والضباب،

من مقلتين على الطريق. ومقلتين على كتاب

* * *

الدربُ تحرقه النوافذُ والنجوم المُستسرة

سكرانُ تزحمه الظلالُ وتشرب الأوهام خمره

هيهات، لا تأتي. وتهمس «فيم تأتي؟» شبهُ فكرة[133]

* * *

قد أذكرتني مقلتاكِ رؤىً رسبنَ إلى الظلامِ

زرقاءَ تسبح في ضبابٍ من شحوبٍ وابتسام:

الليلةَ القمراءَ تركض بين أشباح الغمام.

* * *

أفق يذوبُ على الحنين، يكاد يَغرقُ في صفائه

يطويه ظلٌّ من جناحٍ، ضاع فيه صدى غنائه

أهدابُكِ السوداء تحملني، فأومِضُ في انطفائه

* * *

من أنت؟! سوف تمرُّ أيامي وأنسجها ستارا[134]

هيهات تُحرقه شفاهُكِ وهي تستعر استعارا؛

لا تَلمسيه.. فأنت ظِلٌّ ليس يخترقُ القرارا

* * *

مات الفضاءُ، سوى بقايا من مصابيح الطريقِ

مبهورةِ الأضواء، تنضبُ في جداولَ من بريقِ

صفراء تخنقها الظلالُ على فمِ الليل العميقِ

* * *

فيمَ انتظاريَ كالفراغ؟ وفيمَ يأسي كالرماد؟

لن يسمع الدربُ الملولُ - وإن أصاخَ - سوى فؤادي

أمّا فؤادُكِ...

ويح نفسي! أين أنت؟ ومن أنادي؟

ديوان شعر 135

ديوان شعر، ملؤه غزل بين العذارى بات ينتقل

أنفاسي الحرى تهيم على صفحاته، والحبّ والأمل

وستلتقي أنفاسهنّ بها وترفُ في جنباته القُبَل

ديوان شعر، ملؤه غزل بين العذارى بات ينتقل

* * *

وإذا رأينَ النوح والشكوى كلّ تقول: من الّتي يهوى؟

وسترتمي نظراتهنّ على الصفحات بين سطوره نشوى

ولسوف ترتجّ النهود أسى ويثيرها ما فيه من نجوى

ولربما قرأته فاتِنَتي فمضت تقول: من الّتي يهوى؟

* * *

ديوانَ شعري.. رُبّ عذراء أذكرتَها بحبيبها النائي

فتحسست شفة مقبلة وشتيت أنفاسٍ وأصداء

فطوتك فوق نهودها بيد واسترسلت في شبه إغفاء

ديوانَ شعري.. رُبّ عذراء   أذكرتَها بحبيبها النائي

* * *

يا ليتني أصبحت ديواني   لأفرّ من صدرٍ إلى ثانِ

قد بِتُّ من حسد أقول له: يا ليت من تهواك تهواني

ألكَ الكؤوس ولي ثمالتها   ولكَ الخلود وإنني فانِ

يا ليتني أصبحت ديواني   لأفرّ من صدرٍ إلى ثانِ

* * *

سأبيت في نوحٍ وتسهيد   وتبيت تحت وسائد الغيد

أوَلستَ مني؟ إنني نكد   ما بال حظّك غير منكود؟

زاحمتَ قلبي في محبته   وخرجت منها غير معمود

أأبيت في نوح وتسهيد   وتبيت تحت وسائد الغيد؟

* * *

بغداد 26 - 3 - 1944

نـهرُ العذارى[136]

يا نـهر، لولا مُنْحَنَاكَ وما يُشابكُ من فروعِ

ما كانت البسمات في عينيَّ تُطفأ بالدموعِ[137]

* * *

حجَّبْتَ، بالشأوِ البعيدِ تسدُّ بابَيه الظلالُ

وجهًا تلاقَى في مُحيَّاهُ الوداعةُ والجمالُ

* * *

مرآتُكَ الخضراءُ[138] منْذُ جَلَوْتَها تحتَ السماءِ

ما لاحَ فيها مثل ذاكَ الوجه في ذاك الصفاءِ[139]

* * *

إن أوقدَ الليلُ العميقُ نجومه في جانبَيكِ

لمَّاحةَ الأضواءِ تغْمُر بالأشعة ضفتَيكِ

* * *

ناشدتَ ألحاظَ الكَوَاكِبِ وهْي تخترقُ الظلامْ

ألَّا ينَمْنَ - وإن تشهَّيْنَ الكَرَى - حتى تنام

* * *

«أنتُنَّ أسعد ما أظلَّ الكونُ يا زهرَ النجومِ

أنتُنَّ أبصرتُنَّ ذاكَ الوجهَ في الليلِ البهيم!»

* * *

حتى إذا ما رنَّح النَّجْمَ الأخيرَ سنا الصباحِ

فانقَضَّ تحتَ القُبَّةِ الزَّرْقاءِ مقصوصَ[140] الجناحِ[141]

* * *

أصبحتُ فوق المعبر الْمَهْجُورِ أرقبُ مُنحَناكِ

فأبوحُ بالشكوى وتَسْكُتُ عن شكاتي ضفَّتاكِ[142]

* * *

الفتنةُ السمراءُ تسْرِقُها مياهُكِ بعد حين

الشَّعرَ، والعينَين والثَّغْر المُنضَّرَ والجبين[143]

* * *

فإذا الهجيرة أطلقتْها زُرقةُ الأفق البعيدِ

فالظلُّ مقصوصُ الجَنَاحِ يفرُّ من عُودٍ لعودِ

* * *

سارَتْ إليكَ بطيئة الْخطواتِ ذابلة الشِّفاه

جاءَتْكَ ظَمأى بالبنانِ الرَّخْص تغترفُ المياه[144]

* * *

كم عُدْتُ مخمورَ الفؤادِ بموعدِ المدِّ القريبِ

جذلانَ أقتحمُ الظهيرةَ بالتطلُّعِ والوثوبِ

* * *

التوتُ فوق الشاطئ الْغَربي، والسَّعَفُ الصَّموت

لا يجهلان تنهُّداتِي، وهي بينهما تموت

* * *

والغاب ساعتيَ الحبيبةُ من ظِلالٍ عَقرباها

كم أنبآني أن طرْفِي بعد حينٍ قد يَرَاها

* * *

واليومَ يسقي مدُّكَ الْـعَاتي أواخرَ كل جَزْرِ

لا ذاك يجلوها، ولا هذا بما أرجوه يجرِي

* * *

واليومَ إن سكِر الخريرُ وعاد يحتضنُ الجِرارا!

لم أَلقَ عَذْرائي فكيْفَ الصَّبرُ يا نهرَ العَذارَى؟!

1946/4/28

مُلْحَقٌ بقصائد مُستثناة من «أساطير»

يا ليالي

«إلى السمراء ذات الغلالة الزرقاء»

واعذاباه من خطاكِ الثقالِ وانتظاري لوقعِها، يا ليالي!

قَرِّبي موعدَ الهوى، والتحايا من أليفيْنِ أَلحَفا بالسؤال؛

ينفضان السماء نجماً فَنجما بين بحثٍ عن الضحى وابتهال

الخريفُ الكئيبُ ما زالَ خلف التلّ عريانَ لائذاً بالظلال

فانزعي عن يمينه صبغةَ الموتى ..ورشّي بها اخضرارَ الدوالي

إنّ يومَ اصفرارها موعدُ اللقيا على غير موعدٍ بالوصال

واملئي، بالنجوم مصهورةَ الأضواء ما اسوَدَّ من فراغ الهلال!!

قربي موعد الهوى يا ليالي

أين حقلٌ على الليالي حصانُ ماج فيه الشعاعُ والألوانُ

راوحته الفصول في الموكب الرقّاف، يحدوه كوكب أضحيان

لوَّنَتْ كلّ خطوةٍ من خطاها زهرةٌ، حين هاجهن الرهان

حار فيه الربيع لا يعرف التاريخَ فالدهر كله (نيسان)؟؟

أين حقل هناك منّي له الإنشادُ والبث.. وهو منه الحنان

واتكائي على الأزاهير نشوانَ ومن حولي الوجوه الحسان

كم تسلمتُ موعداً في حناياه فغنيتُ واستعادَ الزمان:

قربي موعد الهوى، يا ليالي!

أيها الريفُ، ما ذممتُ المقاما في مغانيكَ، لو وجدتُ الغراما

ليس حقلي هناك أندى عبيرا منكَ - لو لم يعطر الأقداما

وَهْيَ تسعى إلى لقاء، ولو لم يجمعِ العاشقيْنِ عاماً فعاما

إنّما جنةُ الهوى حيث حواءُ، وإن كانت الجحيمَ اضطراما

أنتَ نبهتَ غافياً من خيالي ناسجاً حول جرحيَ الأحلاما

خلوة في الظلال، يا ريفُ هزَّتْ من أمانيّ فانتزعتُ اللثاما

سافراتٍ تقول منهن عذراءُ لأخرى أما سئمتِ الظلاما؟؟

قربي موعد الهوى، يا ليالي!

خلوة في الظلال.. والأشقياءُ بين باكٍ وغائبٍ، يا سماءُ؟؟

خلوة.. تذهب الليالي وتأتي ما لها بالمتيّمين امتلاءُ..

يا لحرّ الغليلِ، إنْ فاضت الأقداحُ نوراً، وغابتِ الصهباء!

واكتئابي وحسرتي كلما رانت على الريفِ ليلةٌ قمراء!!

فالضياءُ الظلامُ، إن كان لا يطوي على الدفءِ ساعديَّ الضياء:

إنّ شوكاً يدوسه الحبُّ أغلى من أزاهيرَ رفُّهُنَّ الجفاء..

خلوة في الظلال في غابك النائي .. كأنّ السكونَ، فيها، نداء

قربي موعد الهوى، يا ليالي!

قد سئمتُ الربى.. مللتُ الضفافا أحسبُ الموجَ أو أعدُّ الخرافا

مثلما عدَّ أنجم الليل عرَّافٌ فأنبتْ، بموته؛ العرّافا

أيها الشاطئان، أَوْهَى جليدُ الموت كفّي، فأرختِ المجذافا

وكأني أرى بعينيَّ غوراً قاتماً أحتسي دجاه ارتجافا

أهبطُ الموجَ سُلّماً باردَ الألوان حتّى أعانقَ الأصدافا

يا لمثوايَ أعظماً قضقضتهن الأعاصيرُ والعبابُ اجترافا

حيث لا نادبٌ سوى اللجِّ زخَّاراً على أضلعي يعيد الهتافا

قربي موعد الهوى يا ليالي

عاشق ينسجُ الرؤى من عناقٍ يتمناه بعد طولِ الفراقِ!!

حالم جَنَّحَ الأساطير بالأشواقِ   واصطادهُنَّ بالإطراق

هكذا كان حاله، قبل لقياها   على غير موعدٍ بالتلاقي

كان عبد المنى.. فلما رآها   صاح: يا أمنيات حلّي وثاقي

تلك حوائي الّتي حَدَّثَ الفردوسُ   عنها، ففاض بالأشواق

يا معيناً يقطر، الحب من قلبي   وذوب الشباب في أعراقي

يا حياة تدفقت ملء صحرائي   تبلَ احتراقها واحتراقي

قربي موعد الهوى يا ليالي

في المساء الكئيب، دَوَّى نداءُ   ضاقتِ الأرضُ فاحتوته السماءُ

بين تلك التلالِ، حيث السواقي   تعتريهن وحشةٌ وانطفاء

والضباب الشفيف ينحَلُّ   كالأطيافِ في خاطر طواه الفناء

علقتْ فيه نجمةٌ، فهو ظلّ   ألهبته الفراشة البيضاء

وهو رؤيا، توهّجتْ بالهوى فيها   وبالوجدِ، قبلةٌ عذراء

بين تلك التلالِ ناديتُ، يا سمراء   حتّى وَهَى وبُحَّ النداء

لم يجبني سوى صدى حائرِ   الإيقاعِ باكٍ، يصيح: يا سمراء!

واختفى موعد الهوى في الليالي

أين ألقاكِ؟! ضجَّ أمسي يناديكِ وألهيتِ حاضري بالسؤالِ

كلما أشرقتْ، على قلبي المقرورِ عيناكِ من سماء الخيال

قلبي الراكد الّذي انداح فيه صوتُكِ الناحلُ الصدى كالظلال

ذلك الجدولُ الّذي جمّدتْه في الشتاء الحزين، ريحُ الشمال

كلما أشرقتْ، على قلبي المقرور عيناك - في ظلام الليالي

ذاب غلٌّ الجليدِ من صوتك الفضيِّ سكرانَ بالصبى والجمال

أنتم الخائنون كلّ الرجال

سائلي أنجم الدجى عن هوانا أيُّنا أخلفَ العهود وخانا

منذ أن مزقَ الظلام اتقادٌ صاغ من هزةِ السكون الزمانا

واسألي «شاعر الليالي»[145] غناءً هز (فينيسَ) رقّةً وحنانا

يرقب (البرجَ) عدّت الساعةُ الثكلى عليه الخطوبَ والأحزانا

أين ثغر يعدّ بالقُبَلِ الحَرّى عليه الوجيبَ والخفقانا؟

أين من أقسمتْ له، وهْي سكرى في ذراعيه نشوةً واحتضانا

السراج الكئيب ولا ريحُ والتقويمُ ينسجنَ حوله الأكفانا

وهي سكرى تعبُّ كأس الوصال

واعذاباه كم أطلّتْ عيونُ	من ظلامِ الثرى، ترى من تكونُ
نحن مَنْ لم تصدّنا حرمةُ الموتى	فجئنا نقولُ: كانتْ تخون!!
هذه البيد مزقت برقع الآلِ[146]	فهبَّتْ من الرقاد القرون
وانثنتْ تقتفي على رملها الناس	خطىً غلّ وقعهن السكون
نقلتها على الثرى أرجلٌ حيرى	طواهنَّ داؤُهُن الزمين
أنظريهنَّ واقفاتٍ.. حيارى	مطرقاتٍ تذيبهنَ الشجون..
واسمعيهنّ: ها هنا ماجتِ الدنيا	وخرَّ المعذَّبُ (المجنون)[147]

أين «ليلاه»؟؟ خبري يا ليالي؟

عافَ كلّ الحياة إلّا هواها	ليته خانَ ودَّها أو جفاها
أين ما تدَّعي؟؟ أجَنَّتْ كما	جنَّ اشتياقاً وذاب آها فآها؟
الهوى بيتُ عاشقيْنِ اطمأنّا	لا سؤالٌ: أأنتَ قبّلتَ فاها[148]؟؟!
يشرف الحبُّ جامعاً بين زوجين	بصفو الحياةِ أو في شقاها
ينسجان الزمانَ من قبلةٍ سكرى	... يكنُّ الغدُ المرجَّى صداها
كلما صوَّرا، من العطف، أختاً	صَوَّرا بين ساعديها أخاها،
يغرسان الورود في قلب «قابيل»	فيحيي «هابيل» طيبُ شذاها

ضامداً بالإخاء جرح القتال

واعذاباه من خطاكِ الثقالِ   وانتظاري لوقعها، يا ليالي

قربي موعد الهوى، والتحايا،   من أليفيْن ألحَفَا بالسؤال..

الخريف الكئيب ما زال خلف التلّ   عريانَ لائذاً بالظلال..

فانزعي من يمينه صبغةَ الموتى   ورشّي بها اخضرارَ الدوالي

قرّبي موعد الهوى، يا ليالي!

1947/9/20.

خطابٌ إلى يزيد

إرمِ السّماءَ بنظرةِ استهزاءِ	واجعلْ شرابَكَ من دمِ الأشلاءِ

واسحقْ بظِلّك كلّ عرضٍ ناصعٍ	وأبِحْ لنعلكَ أعظمَ الضعفاءِ

واملأ سراجَك إن تقضّى زيتهُ،	ممّا تدرُّ نواضبُ الأثداءِ

واخلعْ عليه كما تشاء ذُبالةً	هدبَ الرضيعِ وحلمةَ العذراءِ

واسدرْ بغيِّك يا يزيدُ فقد ثوى	عنك «الحسينُ» ممزَّقَ الأحشاءِ

والليلُ أظلمَ والقطيعُ كما ترى:	يرنو إليك بأعينٍ بلهاءِ

أحنى لسوطِكَ شاحباتِ ظهورِهِ	- شأنَ الذليلِ - ودبَّ في استرخاءِ

وإذا اشتكى فَمَنِ المغيثُ؟ وإنْ غفا	أين المهيب به إلى العلياء؟!

مثَّلتُ غدرَكَ.. فاقشعرَّ لهولِهِ	قلبي وثارَ وزُلزلتْ أعضائي

واستقطرتْ عيني الدموعَ ورنقتُ	فيها بقايا دمعةٍ خرساءِ

يطفو ويرسبُ في خيالي دونها	ظلٌّ أدقُّ من الجناحِ النائي

حيران في قعر الجحيمِ معلقٌ	ما بين ألسنةِ اللظى الحمراءِ!

أبصرتُ ظلّك يا «يزيد» يرجُّه	موجُ اللهيبِ وعاصفُ الأنواءِ

رأس تكلَّلَ بالخنا، واعتاضَ عن ذاك النضار[149] بحيّةٍ رقطاءِ

ويدانِ موثقتانِ بالسوطِ الّذي قد كان يعبثُ أمسِ بالأحياءِ!

قمْ واسمعِ اسمَكَ وهو يغدو سُبّةً وانظر لمجدِك وهو محضُ هباءِ

وانظر إلى الأجيالِ يأخذُ مقبلٌ عن ذاهبٍ ذكرى أبي الشهداءِ

كالمشعلِ الوهّاج - إلّا أنّها نور الإلهِ يجلُّ عن إطفاءِ

غصَّتْ[150] بي الذكرى، فألقتْ ظلّها في ناظريَّ، كواكبُ الصحراءِ

مبهورةَ الأضواءِ يغشَى ومضَها أشباحُ ركبٍ لجَّ في الإسراءِ

أضفى عليه الليلُ ستراً حِيكَ من غُرَفِ الجِنانِ ومن ظلالِ حِراء

أسرى ونام.. وليس إلّا همسةٌ باسمِ (الحسين) وجهشةُ استبكاءِ

تلك (ابنةُ الزهراء) وَلْهَى راعَها حلم ألّم بها معَ الظلماءِ

تُنبي أخاها وهي تُخفي وجهَها ذعراً، وتلوي الجيدَ من إعياءِ

عن ذلك السهلِ الملبَّدِ يرتمي في الأُفقِ مثل الغيمةِ السوداءِ

يكتظّ بالأشباح ظمأى حشرجتْ ثم اشرأبَّتْ في انتظارِ الماءِ

مفغورةَ الأفواه - إلّا جثة من غير رأسٍ لُطِّختْ بدماءِ

زحفتْ إلى ماءٍ تراءى، ثمّ لم تبلغْه - وانكفأتْ على الحصباءِ

غير (الحسين) تصدُّه عمّا انتوى رؤيا.. فكُفّي يا ابنةَ الزهراءِ

من للضعافِ إذا استغاثوا والتظَتْ عينا (يزيدَ) سوى فتى الهيجاء؟

بأبي عطاشى لاغبين، ورضّعاً صفرَ الشفاهِ خمائصَ الأحشاء

أيدٍ تُمدُّ إلى السماءِ، وأعينٌ ترنو إلى الماءِ القريبِ النائي

طامٍ، أحلّ لكلّ صادٍ وِرْدَه: من سائبٍ[151] يعوي ومن رقطاء

عزَّ الحسينُ وجلَّ عن أن يشتري رِيَّ الغليل بخطةٍ نكراءِ

ألا يموت ولا يوالي مارقاً جمَّ الخطايا، طائشَ الأهواءِ

فليصرعوه كما أرادوا.. إنّما ما ذنبُ أطفالٍ وذنبُ نساءِ

عاجتْ بيَ الذكرى عليها ساعةً مرّ الزمانُ بها على استحياءِ

خفقتْ لتكشفَ عن رضيعٍ ناحلٍ ذبُلَتْ مراشفه، ذبولَ خباءِ

ظمآن بين يديْ أبيه كأنه فرخُ القطاةِ يدفُّ في نكباءِ

لاح الفراتُ له فأجهشَ باسطاً يمناه نحو اللجَّةِ الزرقاءِ

واستشفعَ الأبُ حابسَيهِ على الصدى بالطفلِ يومئ باليد البيضاءِ

رجَّى الرواة فكان سهماً حزّ في نحر الرضيع وضحكةَ استهزاءِ

فاهتزَّ واختَلَجَ اختلاجةَ طائرٍ ظمآنَ رفَّ وماتَ قربَ الماءِ

ذكرى ألمَّتْ فاقشعرَّ لهولِها قلبي وثار وزُلزلَتْ أعضائي

واستقطرتْ عيني الدموعَ ورنقت فيها بقايا دمعةٍ خرساءِ

يطفو ويرسبُ في خيالي دونها ظلٌّ أدقُّ من الجناحِ النائي

حيران في قعرِ الجحيمِ معلّقٌ ما بينَ ألسنةِ اللَّظى الحمراء

إلى حسناءِ القصر

حسناء يهنئكِ الشبابُ الغضُّ والمالُ العميم

يهنئكِ يا بنتَ القصور الشمِّ أنّك في نعيم

إنْ مَسَّ ظلّ القصر بالأقدام بانيه اللئيم

الحاطمُ الصخرَ العَصيَّ بحدِّ معوله الأثيم

العامل العربيد يسفر عن محيَّاه السقيم

ورأيتِ آثار الغويِّ ببسمةِ الثغر النظيم

أو طاف بالكوخ البعيد تَنهُّدُ الطفلِ اليتيم

فظّاً يدنِّسُ وقعُه المسؤومُ هزاتِ النسيم

طهرتِ سمعَكِ بالغناء العذب والصوت الرخيم

حسناء. يهنئكِ الشبابُ الغضُّ والمالُ العميم

* * *

يهنئكِ يا حسناء هاتيك اللآلي والثياب

لم يضرِب الغوّاصُ مهتاجَ الخواطر في العباب

أو يقطع الأنفاسَ والأمواجُ ترقص في ضباب

إلّا ليخطي[152] جيدُكِ الوسنانُ بالنطفِ الرطاب

يقطعنَ أنفاسَ المحبين الظماء إلى السراب

لم يشرب الفلاحُ وَسْطَ الحقل عريانَ الإهاب

والشمس تحرقُ، في رحاب الأفق، أشتاتَ السحاب

إلّا ليلبسكِ الدمقسَ يضوع بالعطر المذاب

وسنان، يحرقُ أكبد العشاق في نار العذاب

فإذا عريتِ فعن دلالٍ عابث هَتْكَ الحجاب

يهنيكِ يا حسناء هاتيك اللآلئ والثياب

* * *

لم تَسْرِ بنتُ الكوخ في أسمالها، تحت الظلام

مذعورةَ الألحاظ، عاثرة الخطى، بين الرجام

حيرى تودع خِدْرَهَا المهجور، بالدمع السجام

عذراءَ.. تطرحُ جسمَها المنهوك في دار الآثام

إلّا لِتُمْسِي أنت طاهرةً، مصفات الغرام

أو تسهر الليل الطويل، على ذراع المستهام

فظُّ يجرِّعُها العذابَ وقد تخطّفه الغرام

إلّا ليسقيك الكرى، مما يعصِّرُ، ألف جام

ما دمتِ هانئةَ الجفون، إلى الضحى، دون الأنام

فلتَسْرِ بنتُ الكوخ في أسمالها تحت الظلام..

* * *

إنْ حَوَّمَ الموتُ المروَعُ فوق هاماتِ الجنود

وجرى الدم المسفوكُ يخضب، بالأسى، بيض البنود

وهوى الرجالُ على الأسنةِ والنساءُ على اللحود

ولمحتِ أعناقَ الشعوب مصفداتٍ في القيود..

فامضي إلى النار العتية بالأزاهرِ والورود!

ما شأنُهُنَّ إذا تألّقت الأساور والعقود؟

تسعَى من الشرق المخلف، وهو منتهكُ الحدود

قد بات مخضوبَ القبور، وبتِّ خاضبةَ الخدود

فلتحلمي بالعطرِ، والذهب المصفّى والبرود

إنْ حَوَّمَ الموتُ المروَعُ فوق هاماتِ الجنود

* * *

يهنيك أنّك قد ملكتِ على رضاك العالمين

خَلّفتِ أربابَ الفنون، حيال خِدْرك ساجدين

والكادحون لغير حسنكِ لم يعودوا كادحين

فالناي، مثل المنجل الجبار، مأسورٌ، سجين

والنغْمةُ المطرابُ، كاللون المقيد في الجبين

أو فوق هاتيك الشفاهِ اللعسِ والطرف الضنين

في صورةٍ ظلّت تلونها دماءُ البائسين..

والشاعر النشوان، يَقْبِسُ من جمالك كلّ حين

فنّاً يحلق فوق أوهامِ العراة الجائعين

يهنيك أنّك قد ملكتِ على رضاك العالمين

* * *

حسناء إنْ دام الشبابُ فإنّ مالَكِ لا يدوم

والقصرُ ينفضُ بعدَ حينٍ، عنه، أذرعةَ النجوم

فيعود أنقاضاً مصدعةً يجلّلها الوجوم..

يمشي عليه الثائر الغضبان بسَّامَ الكلوم

الحاطم المستعبدين، وكل جبار ظلوم..

العامل الموتور، يأخذ بالترات من الخصوم

يحنو على الطفل اليتيم، كأنه الأم الرؤوم

فإذا اكتئابُ الكوخ بِشْرٌ لا ترنقه الهموم

وإذا التنهد أغنيات، في جوانبه تحوم..

حسناء إنْ دام الشبابُ فإنّ مالَكِ لا يدوم

* * *

إنّ اللآلئ سوف تنزعها الأكفُّ الداميات

فيقر قلبٌ، في المقابرِ أو عيونٍ مطفآت

قلب تَنَقّلَ، في البحار، على زئير العاصفات

وعيون غواص هتكنَ دجى الليالي المظلمات

وبحثن في الأغوار، والأمواج كالحة الثياب

عن كلِّ ما حَوَتِ القلائدُ، من لآلئ لامعات

حسناء والدنيا بأجمعها تفيق من السبات

قد آن أن تنسَلّ أثواب الدمقس العاطرات

من جسمك الكاسي، إلى تلك الجسوم العاريات

فإذا أبيتِ فسوف تنزعها الأكفُّ الداميات

* * *

حسناء والشعبُ المقيَّدُ، ليسَ يبخل بالدماء

تجري سيولاً، تجرفُ الأصفادَ صاخبةَ الحداء

وحناجر الأبطال تقتحم العواصف بالنداء

يا أيها المستعمرونَ إلى الجلاء.. إلى الجلاء

لن تشهدي والليلُ مختنقُ الكواكب في عماء

عذراءَ تطرح جسمها المنهوك في نار البغاء

فالجوعُ والعريُ اللذان تجاذباها في المساء

ذابا على نور الصباح، وذاب أصحابُ الثراء

في موكب الشعب المفيق يسير خفّاقَ اللواء

لا يبخل الشعب المقيد، بالضحايا والدماء

* * *

إن قَطَّبَ الموت المروِّعُ، في وجوه الثائرين

وجرى دم المظلوم يسبَحُ في دماء الظالمين

فالأُفْق مختصم العواطف، مكفهر لا يبين

شد الهتاف على هتافٍ، والأنين على أنين

وطغى دُخَانٌ في اليسار على دخان في اليمين

فلتعلمي أنّ الأساور سوفَ تنزع بعد حين

أنّ السجين نَزَا فَحَطّم عنه أغلال السجين

والشرق محميُّ الحدود بكلّ محميِّ العرين...

ولتعلمي أنّ الأسير يخط لَحْدَ الآسرين..

إنّ قطب الموت المروع، في وجوه الثائرين

* * *

والفن أثمر واستحالَ إلى سواعدَ لا تلين

غضبى، تموجُ لتستقر على رقاب الظالمين،

هو دمعة الثكلى، وقفقفة العراة الجائعين

وتَمُّرغُ المكلومِ في دمه، وأحلام السجين

وهو ابتسامات الضحايا، وانتفاض الثائرين

فلتنبتِ الأرضُ الخرابُ[153] على سنا النجم الحزين

صبَّارَها.. إنا سنملأ عالَمَ الغدِ ياسمين

ولتَلْظَ أحداقُ الطغاة فسوف تطْفَأ بعد حين

إنّ رنّحْتَها، حيثما اتقدتْ، سواعدُ لا تلين

غضبى، تموج لتستقرّ على رقاب الظالمين

أنشودة المَطر
(1960)

إشارة

هذا الديوان نسخة طبق الأصل عن الطبعة الأولى لديوان «أنشودة المطر» الصادر عن دار «مجلة شعر»، بيروت (1960)، مع ضبط للنصوص ومطابقة مع المتوفر من أصول القصائد، وما نشر منه في الصحف والمجلات، فضلاً عن طبعات الدور الأخرى، وقد أجريتُ تثبيتاً لبعض الملاحظات التحريريّة والاختلافات الجديرة بالتوثيق يجدها القارئ في هوامش مرفقة مع كل حالة.

المحقق

غريبٌ على الخليج

الريح تلهثُ بالهجيرة، كالجثام، على الأصيلِ

وعلى القلوع تظلّ تُطوى أو تُنشَّرُ للرحيل

زحم الخليجَ بهنّ مكتدحون جوّابو بحار

من كلّ حافٍ نصف عاري.

وعلى الرمال، على الخليج

جلسَ الغريبُ، يسرِّح البَصَر المحيَّر في الخليج

ويهدُّ أعمدة الضّياء بما يُصعِّد من نشيجِ

أعلى من العبّاب يهدر رغوُهُ ومن الضجيجِ

صوتٌ تفجَّرَ في قرارةِ نفسيَ الثكلى: عراق،

كالمدّ يصعدُ، كالسحابة، كالدموع إلى العيون

الريح تصرخُ بي: عراق،

والموج يُعوِلُ بي: عراق، عراق، ليسَ سوى عراق!

البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما تكون

والبحر دونك يا عراق.

بالأمسِ حين مررتُ بالمقهى، سمعتك يا عراقُ...

وكنتَ دورة أسطوانهْ

هي دورة الأفلاك من عُمُري، تكوِّر لي زمانه

في لحظتين من الزّمانِ، وإنْ تكن فقدت مكانه.

هي وجه أُمُّي في الظلامِ

وصوتُها، يتزلّقان مع الرؤى حتّى أنام؛

وهيَ النّخيل أخاف منه إذا ادلهمَّ مع الغروب

فاكتظّ بالأشباحِ تخطفُ كلّ طفلٍ لا يؤوبُ

من الدروب؛

وهي المفلّيةُ العجوز وما توشوش عن «حزامَ»[154]

وكيف شُقَّ القبر عنه أمام «عفراء» الجميلهْ

فاحتازها.. إلّا جديلهْ.

زهراءُ، أنت.. أتذكرين

تنّورَنا الوهّاجَ تزحمه أكفُّ المصطلين؟

وحديثَ عمتيَ الخفيضَ عن الملوك الغابرين؟

ووراء بابٍ كالقضاء

قد أوصدته على النساء

أيدٍ تُطاع بما تشاء؛ لأنها أيدي رجال -

كان الرجال يعربدون ويسمرون بلا كلال.

أفتذكرينَ؟ أتذكرين؟

سعداءَ كنا قانعينَ

بذلك القَصَصِ الحزين لأنهُ قصص النساء.

حَشْدٌ من الحَيوات والأزمان، كنا عُنْفوانهْ،

كنا مَداريْه اللذين ينال بينهما كيانهْ.

أفليس ذاك سوى هباء؟

حُلُمٌ ودورة أسطوانهْ؟

إنْ كان هذا كلّ ما يبقى فأين هو العزاء؟

أحببتُ فيكِ عراقَ روحي أو حببتُكِ أنتِ فيه؛

يا أنتما، مصباح روحي أنتما ـ وأتى المساء

واللّيلُ أطبقَ فلتشعّا في دُجاه فلا أتيه.

لو جئتِ في البلدِ الغريبِ إليَّ ما كمُلَ اللقاء!

الملتقى بكِ والعراقُ على يديَّ... هو اللقاء!

شوقٌ يَخضُّ دمي إليهِ، كأنّ كُلَّ دمي اشتهاء،

جوعٌ إليه... كجوع كلّ دم الغريق إلى الهواء.

شوق الجنين إذا اشرأبَّ من الظلام إلى الولادهْ!

إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون!

أيخون إنسانٌ بلادهْ؟

إنْ خان معنى أن يكون، فكيف يمكن أن يكون؟

الشمس أجملُ في بلادي من سواها، والظلامْ

- حتّى الظلام - هناك أجملُ، فهو يحتضن العراق.

واحسرتاه، متى أنامْ

فأحسّ أنّ على الوسادهْ

من ليلك الصيفي طَلّاً فيه عطرُك يا عراق؟

بين القرى المتهيّباتِ خطاي والمدنِ الغريبه

غنَّيْتُ تُربتكَ الحبيبه.

وحملتُها فأنا المسيحُ يجرُّ في المنفى صليبهْ،

فسمعتُ وقع خطى الجياع تسيرُ، تدمى من عثار

فتذرُّ في عينيَّ، منكَ ومن مناسمها، غُبار.

ما زلتُ أضرب، مُترِبَ القدمين أشعثَ، في الدروب

تحت الشموس الأجنبيّة،

متخافق الأطمار، أبسُطُ بالسؤال يداً نديّهْ

صفراءَ، من ذُلٍّ وحُمّى: ذلّ شحّاذٍ غريبِ

بين العيون الأجنبية،

بين احتقارٍ. وانتهارٍ، وازورارٍ... أو «خطيّه»[155]،

والموت أهون من «خطيهْ»،

من ذلك الإشفاق تعصره العيونُ الأجنبيهْ

قطراتِ ماءٍ... معدنيّهْ!

فلتنطفي، يا أنتِ، يا قطراتُ، يا دمُ، يا... نقودُ،

يا ريحُ، يا إبراً تخيط ليَ الشراعَ - متى أعودُ

إلى العراق؟ متى أعودُ؟

يا لمعةَ الأمواجِ رنَّحهنَّ مجذافٌ يرودُ

بيَ الخليجَ، ويا كواكبَه الكبيرةَ... يا نقودُ!

* * *

ليتَ السفائنَ لا تُقاضي راكبيها عن سِفارِ

أو ليت أنّ الأرضَ كالأفق العريضِ، بلا بحار!.

ما زلتُ أحسب يا نقودُ، أعدُّكنَّ وأستزيد،

ما زلت أُنقِصُ، يا نقود، بكنَّ من مُدَدِ اغترابي،

ما زلتُ أُوقدُ بالتماعتكنَّ نافذتي وبابي

في الضفّة الأخرى هناك فحدثيني يا نقودُ

متى أعود؟ متى أعودُ؟

أتُراه يأزف، قبل موتي، ذلك اليوم السعيدُ؟

سأفيقُ في ذاك الصباح، وفي السماء من السحابِ

كِسَرٌ، وفي النسمات بَرْدٌ مُشبَع بعطور آبِ؛

وأُزيح بالثُؤَباء بُقيا من نعاسي كالحجابِ

من الحرير، يشفُّ عما لا يبينُ وما يبينْ:

عما نسيتُ وكدتُ لا أنسى، وشكّ في يقين.

ويضيءُ لي - وأنا أمدُّ يدي لألبسَ من ثيابي -

ما كنتُ أبحثُ عنه في عتَمات نفسي من جواب

لِمَ يملأ الفرحُ الخفيُّ شعابَ نفسي كالضباب؟

اليوم - واندفقَ السرورُ عليَّ يفجأُني - أعودُ!

* * *

واحسرتاه... فلن أعودَ إلى العراق!

وهل يعودُ

من كان تُعْوِزُهُ النقود؟ وكيفَ تُدَّخَرُ النقودُ

وأنت تأكلُ إذْ تجوع؟ وأنتَ تُنفقُ ما يجودُ

بهِ الكرام، على الطعام؟

لتبكينَّ على العراقِ

فما لديكَ سوى الدموع

وسوى انتظارك، دون جدوى للرياحِ وللقلوع!

الكويت 1953

مرحى غيلان

- «بابا... بابا...»

ينسابُ صوتُكَ في الظلام، إليّ، كالمطر الغضيرِ،

ينسابُ من خَلَل النُعاس وأنت ترقد في السريرِ

من أيّ رؤيا جاء؟ أيّ سماوةٍ؟ أيّ انطلاقِ؟

... وأظلُّ أسبحُ في رشاشٍ منه، أسبحُ في عبير.

فكأنّ أوديةَ العراقِ

فتحتْ نوافذَ من رؤاكَ على سهادي: كلّ وادِ

وهبته عشتارُ الأزاهرَ والثمار. كأنّ روحي

في تربةِ الظلماءِ حبةُ حنطةٍ وصداكَ ماءُ.

أعلنتِ بعثي يا سماءُ.

هذا خلودي في الحياة تكنُّ معناه الدماءُ.

* * *

«بابا...» كأنّ يد المسيح

فيها، كأنّ جماجم الموتى تُبرعِمُ في الضريحِ.

تموز عادَ بكل سنبلةٍ تُعابثُ كلّ ريحِ.

* * *

«بابا... بابا...»

أنا في قرار بُوَيْبَ[156] أرقد، في فراشٍ من رمالِهْ،

من طينه المعطور، والدم من عروقي في زلالهْ

ينثال كي يهبَ الحياة لكل أعراق النخيلِ.

أنا بَعْلُ: أخطر في الجليلِ...

على المياه، أنثُّ في الورقات روحي والثمارِ

والماءُ يهمسُ بالخرير، يصلّ حولي بالمحار

وأنا بوَيْبُ أذوبُ في فرحي وأرقدُ في قراري.

* * *

«بابا... بابا...»

يا سُلّم الأنغام، أيّةُ رغبةٍ هي في قرارِكْ؟

«سيزيف» يرفعها فتسقط للحضيض مع انهيارِك.

يا سُلّمَ الدم والزمان: من المياه إلى السماءِ

غيلانُ يصعد فيه نحوي، من تراب أبي وجدي

ويداه تلتمسان، ثَمّ، يدي وتحتضنان خدِّي

فأرى ابتدائي في انتهائي.

«بابا... بابا...»

جيكور[157] من شفتيكَ تولَد، من دمائِكَ، في دمائي

فتُحيل أعمدةَ المدينهْ

أشجار توتٍ في الربيع. ومن شوارعها الحزينهْ

تتفجَّرُ الأنهار، أسمع من شوارعها الحزينه

ورَقَ البراعم وهو يكبر أو يمصُّ ندى الصباحِ

والنُّسغَ في الشجرات يهمس، والسنابلَ في الرياح

تَعِدُ الرَّحى بطعامهنّ.

كأنّ أوردةَ السماءِ

تتنفّسُ الدمَ في عروقي والكواكبَ في دمائي.

يا ظلّيَ الممتدَّ حين أموت، يا ميلاد عمري من جديد:

الأرضُ (يا قفصاً من الدم والأظافر والحديدِ

حيث المسيح يظلُّ ليس يموت أو يحيا.. كظلّ،

كيدٍ بلا عَصَبٍ، كهيكل ميّتٍ، كضُحى الجليد،

النور والظلماءُ فيه متاهتان بلا حدودِ)

عشتارُ فيها دون بَعْلِ

والموت يركض في شوارعها ويهتف: يا نيامُ

هبّوا، فقد وُلِدَ الظلامُ[158]

وأنا المسيح، أنا السلامُ.

والنار تصرخ: يا ورود تفتَّحي، وُلِدَ الربيعُ

وأنا الفُرات؛ ويا شموعُ

رشّي ضريحَ البَعْل بالدم والهُباب وبالشحوبِ.

والشمس تُعْوِل في الدروبِ:

بردانةٌ أنا، والسماء تنوء بالسُّحُب الجليد.

* * *

«بابا... بابا...»

من أيِّ شمس جاء دفؤُك أيِّ نجمٍ في السماء؟

ينسلُّ للقَفَص الحديدِ، فيورقُ الغدُ في دمائي؟

أغنيةٌ في شهر آب[159]

تمّوزُ يموتُ على الأفقِ

وتغور دماهُ مع الشفَقِ

في الكهف المعتمِ والظلماءْ

نقّالة إسعافٍ سوداء

وكأن الليل قطيع نساء:

كحلٌ وعباءاتٌ سودُ

الليل خِباء

الليل نهارٌ مسدودُ.

ناديتُ مربية الأطفال الزنجيةْ:

الليل أتى يا مرجانهْ

فأضيئي النور. وماذا؟! إني جوعانهْ

و.. نسيتُ - أما من أُغنيّهْ؟

بم يهذر هذا المذياعُ؟!

في لندنَ موسيقى جازٍ، يا مرجانهْ

فإليها... إني فرحانه

والجاز من الدم إيقاعُ

* * *

تموز يموت ومرجانهْ

كالغابة تربض بردانهْ...

* * *

وتقول، ويخذلها النفَسُ:

«الليلُ»، الخنزير الشرسُ

الليل شقاء!»

مرجانةُ.. هل قرع الجرسُ

فتقول، ويخذلها النفَسُ

«في الباب نساء».

وتعدُّ القهوةَ مرجانهْ

* * *

وعلى الأكتاف البيضِ فراء:

الذئب يدثّر إنسانهْ

وعلى الأثداء من النَمِرِ

شرق يتسلل، ملء الغاب، من الشجر

والليل يطول مع السمر

الليل كتنّورٍ - من أشباح البشرِ

خُبزٌ يَتنشّقُ نيرانهْ

والضيفةُ تأكل جوعانهْ

من هذا الزاد. ومرجانهْ

كالغابة تربض بردانهْ

والضيفةُ تضحك وهي تقول: «خطيب سعاد

جافاها، وانطوت الخِطبهْ!

الكلب تنكّر للكلبهْ...»

تمّوز يموت بدون معاد

والبرد ينثُّ من القمر

فتلوذ بمدفأة من أعراض البشر!

سيعود إذا انتصف الليلُ[160]،

زوجي سيعود إلى الدارِ

من بيت صديق أو بارِ

لا شوقَ يعلِّق بالرقّاص ولا بالعقرب أبصاري

لا آهةَ - من رهَبٍ - تعلو:

من رنة مفتاح في البابْ

وضياء من شِقٍّ ينساب

كالماء المالح أشربه حتّى تتفطّر أغواري!

ولقد يتأخر أو يأتي

قبل الميعاد إلى البيتِ

لكن سيعود

لا لوم عليه، فقد أعطى ما أطلب منه، ولا عتبُ!

خدمٌ، ورياشٌ ملء البيت، وأبهةٌ. دنيا، ونقود

«.. ماسٌ، وبقيَّتُها ذهبُ:

وهدية والدها؟! االله هدية والدها.. عجب:

صياد بين يديه شِباك

تتلامح ملأى بالأسماك

ذهب وزعانفُ من فضهْ

ولآلئ توهم أنّ هياكلها تثبُ

وبأنّ لصائدها خضّهْ!»

تموز يموت ومرجانه

تتعوَّذ، من عُقَد السحرِ

والليل الراكد، بالخُضْر

والليل يطفِّئُ شطآنهْ

والضيفة تقبع بردانه

وفراء الذئب تغطيها

وتطفَّأت النيران اللاتي كانت بالدم تذكيها.

* * *

ليلٌ وجليد

يتساقط عبرهما صوتٌ، رناثُ حديد

وعواء ذئابٍ يخفيها...

الصوت بعيد،

والضيفة مثلي بردانه.

* * *

فتعال وشاركني بردي

بالله تعال...

يا زوجي، ها إني وحدي

- والضيفة مثلي بردانه -

فتعال، تعال

فأمامك وحدك أقدر أن أغتاب الناس بلا استثناء

بالله تعال

فالناس كثير... والظلماء

نقّالةُ موتى سائقها أعمى، وفؤادك جبَّانهْ!

غارسيا لوركا

في قلبه تنُّور

النار فيه تطعم الجياع

والماء من جحيمه يفور:

طوفانه يطهّر الأرض من الشرور

ومقلتاه تنسجان من لظىً شراع

تجمِّعان من مغازل المطر

خيوطه، ومن عيونٍ تقدح الشررْ

ومن ثديِّ الأمّهات ساعة الرضاعْ

ومن مُدى تسيل منها لذة الثَّمَرْ

ومن مُدى للقابلات تقطع السُّرَرْ

ومن مدى الغزاة وهي تمضغ الشعاع

شراعُه النديُّ كالقمرْ

شراعه القويّ كالحجرْ

شراعه السريع مثل لمحة البصرْ

شراعه الأخضر كالربيع

الأحمر الخضيب من نجيع

كأنّه زورق طفل مزّق الكتاب

يملأ مما فيه، بالزوارق النهَر،

كأنه شراع كولمبسَ في العبابْ

كأنه القدر.

تعتيم

حين يذرّ النُّورْ

- يلقي به التنور -

عن وجهكِ الظلماء

ويهمس الديجورْ

آهاتِه السمراء

على محيَّاكِ،

تهجس عيناكِ

بكلّ حزن الدهور

وكل أعيادها:

أفراح ميلادها

وغمغمات النذور

وزهرها والخمور!

* * *

النورُ والظلماء

أسطورةٌ منحوتة في الصخورْ:

كم ذادَ بالنّارِ،

من أسدٍ ضاري

وكم أخاف النمور،

إنسان تلك العصور

بالنُّور والنّارِ!

فأطفئي مصباحنا أطفئيه

ولنطفئ التنورْ

وندفن الخبز فيه،

كي لا تعيد الصخورْ

أُسطورةً للنار، ظلّت تدور

حتّى غدا أوّل ما فيها

آخرَ ما فينا ـ وليلُ القبور

أوّلُ ما فيها ـ

ولنبق في الديجور

كي لا ترانا نمور

تجوس في الظلماء

لترجم الأحياء

ـ من غابة في السماء ـ

بالصخر والنار

وتستبيح القبور!

المخبر 161

أنا ما تشاء: أنا الحقيرْ

صبَّاغُ أحذية الغزاة، وبائع الدم والضمير

للظالمين. أنا الغراب

يقتات من جثث الفراخ. أنا الدمار، أنا الخراب!

شفة البغيِّ أعفّ من قلبي، وأجنحة الذباب

أنقى وأدفأ من يديَّ. كما تشاء... أنا الحقير!

لكنَّ لي من مقلتيَّ - إذا تتبَّعتا خطاك

وتقرّتا قسمات وجهك وارتعاشك - إبرتينِ

ستنسجان لك الشراكْ

وحواشيَ الكفن الملطَّخ بالدماء، وجمرتين

تروّعان رؤاك إنّ لم تحرقاكْ!

وتحول دونهما ودونك بين كفيَّ الجريدهْ

فتندّ آهتك المديدهْ

وتقول: «أصبح لا يراني»... بيد أنّ دمي يراك

إني أحسّك في الهواء وفي عيون القارئين.

لِمَ يقرأون: لأنّ تونسَ تستفيق على النضال؟

ولأن ثوّار الجزائر ينسجون من الرمالْ

ومن العواصف والسيول ومن لهاث الجائعين

كفنَ الطغاة؟ وما تزال قذائف المتطوعين

يصفرن في غسق القنال؟

لِمَ يقرأون وينظرون إليّ حيناً بعد حين

كالشامتين؟

سيعلمون من الّذي هو في ضلالْ

ولأيّنا صدأُ القيود... لأيِّنا صدأ القيود...

لأيِّنا... -

نهض الحقير

وسأقتفيه فما يفرُّ، سأقتفيه إلى السعير.

أنا ما تشاء: أنا اللئيم، أنا الغبيّ، أنا الحقود

لكنَّما أنا ما أريد: أنا القويّ، أنا القدير.

أنا حامل الأغلال في نفسي، أقيِّد من أشاءُ

بمثلهنّ من الحديد، وأستبيح من الخدود

ومن الجباه أعزَّهنَّ. أنا المصير، أنا القضاء.

الحقد كالتنور فيّ: إذا تلهَّب بالوقود

- الحبر والقرطاس - أطفأ في وجوه الأمَّهاتْ

تنورهنّ، وأوقف الدم عن ثُديِّ المرضعات.

في البدء كان يطيف بي شبَحٌ يقال له: الضمير

أنا منه مثل اللص يسمع وقع أقدام الخفير.

شبَحٌ تنفّس ثمّ مات

واللص عاد هو الخفيرْ.

في البدء لم أكُ في الصراع سوى أجير

كالبائعات حليبهنّ، كما تؤجَّر - للبكاء

ولندبِ موتى غير موتاهنّ - في الهند النساء.

قد أمعن الباكي على مضضٍ، فعاد هو البكاء!

* * *

الخوف والدمُ والصّغارِ. فأيُّ شيء أرتجيه؟

فعلى يديَّ دمٌ وفي أذنيّ وهْوهة الدماء

وبمقلتيَّ دمٌ، وللدّم في فمي طعمٌ كريه!

أثقلْ ضميرك بالآثام فلا يحاسبْك الضمير

وانسَ الجريمة بالجريمة والضحية بالضحايا.

لا تمسح الدم عن يديك فلا تراه وتستطير

لفرط رعبك أو لفرط أساك...

واحتضن الخطايا

بأشدّ ما وسع احتضانٌ تنجُ من وخز الخطايا.

* * *

قوتي وقوتُ بنيَّ لحمٌ آدميٍّ أو عظام

فليحقدنّ عليّ كالحمم المسعّرة الأنام

كي لا يكونوا إخوةً لي آنذاك، ولا أكون

وريثَ قابيل اللعين سيسألون

عن القتيل فلا أقول:

«أأنا الموكّل، ويلكم بأخي؟» فإنّ المخبرين

بالآخرين موكّلون!

* * *

قدماي متعبتان من فرط ارتكاضي كالخيول[162]

لأجرّ مركبة الوباء، ومقلتاي مُضبَّبَتانِ

لفرط ما تتنّقلان على الوجوه، وتَنْفِضانِ

مفارق الطرقات

والهَلَعُ الكبيرُ من الزمان.

يمتصُّ روحي، فهي أوشالٌ من الدم والوحول.

* * *

سحقاً لهذا الكون أجمعَ وليحلّ به الدمارْ!

ما لي وما للناس؟ لست أباً لكلّ الجائعين

وأريد أن أروى وأشبع من طوًى كالآخرين

فلينزلوا بي ما استطاعوا من سباب واحتقار

لي حفنة القمح الّتي بيدي ودانية السنين

- خمسٌ وأكثر... أو أقلّ - هي الربيع من الحياة

فليحلموا هم بالغد الموهوم يبعث في الفلاة

روحَ النماء، وبالبيادر وانتصار الكادحين

فليحلموا إنْ كانت الأحلام تشبع من يجوع.

إني سأحيا لا رجاء ولا اشتياق ولا نزوع،

لا شيء غير الرعب والقلق الممض على المصير

ساء المصير!

ربّاه إنّ الموت أهون من تَرقُّبِهِ المرير

ساء المصير:

لِمَ كنت أحقر ما يكون عليه إنسانٌ حقير؟!

عرسٌ في القرية[163]

مثلما تنفض الريحُ ذرَّ النُضارْ

عن جناح الفراشة، مات النهار -

النهار الطويلْ.

فاحصدوا يا رفاقي، فلم يبق إلّا القليل.

كانَ نقْرُ الدَّرابك منذ الأصيل

يتساقط، مثلَ الثمار،

من رياح تهوِّم بين النخيل -

يتساقط مثل الدموع

أو كمثلِ الشرار:

إنها ليلة العُرس بعد انتظار!

مات حبٍّ قديمٌ، ومات النهار

مثلما تُطفئُ الريح ضوءَ الشموع.

الشموع... الشموع،

مثل حقل من القمح عند المساء،

من ثغور العذارى تعبُّ الهواء،

حين يرقصنَ حول العروس

منشدات: «نوارُ، اهنئي يا نوار!

حلوةٌ أنتِ مثل الندى، يا عروس».

يا رفاقي، سترنو إلينا نوار

من علٍ في احتقار.

زهَّدتها بنا حفنةٌ من نُضار:

خاتمٌ أو سوار، وقصرٌ مشيدْ

من عظام العبيد...

وهي، يا ربِّ، من هؤلاء العبيد!

ولو أنّا وآباءنا الأولين

قد كدحنا طوال السنين

وادَّخرنا - على جوع أطفالنا الجائعين -

ما اكتسبناه في كدِّنا من نقود،

ما اشترينا لها خاتماً أو سوار!

خاتمٌ ضمَّ في ماسه الأزرقِ

من رفات الضحايا مئات اللحود

اشتراها به الصيرفيُّ الشقي.

* * *

مثلما تنثر الريح عن الأصيل

زهرةَ الجلّنار -

أقفر الريفُ لمّا تولّت نوار.

بالصبابات، يا حاملاتِ الجرار

رحْنَ واسألْنَها: «يا نوار

هل تصيرين للأجنبي الدخيل؟

للذي لا تكادين أن تعرفيه؟

يا ابنةَ الريف، لم تنصفيه!

كم فتىً من بنيه

كان أولى بأن تعشقيه؟

إنهم يعرفونك منذ الصغرْ

مثلما يعرفون القمر...

مثلما يعرفون حفيف النخيلْ

وضفاف النهر

والمطر

والهوى، يا نوار...».

احصدوا يا رفاقي، فإنّ المغيب

طاف بين الروابي يرشُّ اللهيب

من أباريقَ مجبولةٍ من نضار؛

والزغاريد تصْدى بها كلّ دار:

أوقد القصر أضواءه الأربعين،

فاتبعوني إليها مع الرائحين.

اتركوني أغني أمام العريس

وأراقص ظلي كقردٍ سجين

وأمثِّل دور المحبّ التعيس

ضاحكاً من جراحات قلبي الحزين،

من هواي المضاع،

من قلوب الجياع

حين تهوى، ومن ذلّة الكادحين.

سوف آكل حتّى ينزَّ الدمُ

من عيوني... فما زال عندي فمُ:

كلّ ما عندنا نحن، هذا الفمُ!

كان وهماً هوانا، فإنّ القلوب

والصبابات وقفٌ على الأغنياء!

لا عتابٌ... فلو لم نكن أغبياء

ما رضينا بهذا، ونحن الشعوب.

* * *

فاشهدي يا سماء[164]

واشهدي يا سهولَ الجنوب:

ما بقينا فهيهات يبقى شقاء -

إننا الأقوياء...

مرثيّة الآلهَة[165]

بلينا وما تبلى النجومُ الطوالعُ[166]

ويبقى اليتامى بعدنا والمصانعُ

ويبقى «كربٌّ»[167] الجالب الكربَ: كالصدى

يغصّ المنادي بالردى، وهو راجعُ

كأنّ الأميبي[168] توأمٌ وهو توأمٌ

لها، فهو في منجىً من الموت قابعُ

ولكنه الفرد الّذي يزحف الورى

إلى حيث ترمي مقلتيه المطامعُ

أعنقاءُ من صحراء نجدٍ تقحَّمت

بها مغربَ الشمس البعيدَ الزعازعُ

أم انسلّ من أهرام فرعونَ هاجعٌ

وقتْه انتقاصَ الدود منه، المباضعُ؟

ومن ليس يحيا لن يرى وهو هالكٌ

فلو كان يحيا ما عدته الفواجعُ

وما كان إلّا اسماً «كربٌّ» ابن مثله

به يُدمغ اثنانِ: الورى والبضائعُ

ولكنه اسْمٌ بالأساميِّ يغتذي

تهجَّاه زفّار اللّظى والمدافعُ

تمنَّيتُ أني آلةٌ: لا يُصيبها

كلالٌ ولا وقتٌ بها مرّ ضائعُ

لها من دماء الناس قوتٌ وخلفها

من المال عن أن ينفد القوتَ مانعُ

وما تخطئ الآلات في الجمع تارةً

وفي الطّرح، إن يخطئْ من الناس جامعُ

ولا عاقبتها عصبةٌ من ورائها

علينا عقابٌ بُرِّئوا منه، واقعُ

ألا كم رفعنا من إلهٍ وكم هوى

إلهٌ وأضحى ثالث وهو رابعُ

فما جاوزتْنا صورةٌ منه خطّها

على غفلةٍ منا مُجيعٌ وجائعُ

وما كان معبوداً سوى ما نخافه

ونرجوه أو ما خيَّلته الطبائعُ

فتمّوزُ مثل اللّاتِ، والرعدُ ما رمى

بغير الّذي تُطوى عليه الأضالعُ

وكم ألّه التمرَ التهاميّ معشرٌ

لما ليس يحيا دونه الناس راكعُ

قلّما شكا بعد الأثافيّ قِدْرها

وضنَّت على الشَّدق الخفيِّ المراضعُ

كفى كلّ ثغرٍ كان يدعوه جوعه

إلهٌ أحاطته المدى والأصابعُ

دمي هذه الخمر الّتي تشربونها

ولحمي هو الخبز الّذي نال جائعُ

ولما تشظّى قلب نرسيسَ وانثنى

يلمُّ الشظايا منه شارٍ وبائعُ

وغذّى بها القلب الّذي حين ذاقها

نما فيه نابا كوسجٍ فهو قاطعُ

هوى كلُّ عالٍ من إلهٍ وسافلٍ

إلى حيث ما من راحلٍ ثمّ راجعُ

وأفضى إلى العرش السديميّ معدنٌ

بما امتاحَ من أحداق «ميدوزَ»[169] لامعُ

هو الشمس إلّا أنّ في زمهريره

من الموت ظلّا حجّبته البراقعُ

جزى أمّه الأرض الّتي من عروقها

ربا واغتذى في جوفها وهو هاجعُ

بشرِّ الّذي يُجزى به شرّ من غذا

وأروى، ويُجزاه العدوُّ المنازعُ

فأدمى بنيها وارتعى من بناتها

حقولاً ترجَّى، فهي شوهٌ بلاقعُ

كقابيل يغتال الأشقاء، راكلٌ

- كأوديب - للخبز الإلهيِّ صافِعُ

وهذا الإله الأملس الفظّ ما جَلا

لنرسيسَ يجثو عنده وهو خاشعُ

سوى وجه نرسيسَ الرخاميِّ، شابه

شحوبٌ يهوذيٌّ التلاوين ناقعُ

وأوفى من الأرباب جيل يؤمُّه

على قمَّة الأولمب ربٌّ مخادعُ

ترى «فحمَ» إذ يلقاه يَلقاه راجفاً

و«فولاذُ» من تلماح عينيه مائعُ[170]

ويا عهد كنّا كابن حلّاج: واحداً

مع الله إنْ ضاع الورى فهو ضائعُ

أكَلّ الرّجالَ الجوف أن يملأوا به

خواءَ الحشا هذا الإلهُ المضارعُ

فعادَ الفقيرَ الرّوح من ليس كاسياً

به ظاهراً منّا... فحلّ التنازعُ

من رؤيا فوكاي

(فوكاي، كاتب في البعثة اليسوعية في هيروشيما، جُن من هول ما شاهده غداة ضربت بالقنبلة الذرية).

1 - هياي... كونغاي، كونغاي[171]

ما زال ناقوسُ أبيكِ يُقلق المساءْ

بأفجع الرثاء:

«هياي.. كونغاي، كونغايْ».

فيفزع الصغارُ في الدروبْ

وتخفق القلوب،

وتغلق الدُّور ببكّينَ وشنغهايْ

من رَجع: كونَغاي، كونَغاي.!

فلتُحرقي وطفلكِ الوليد،

ليَجمَعَ الحديدَ بالحديد

والفحمَ والنحاسَ بالنُّضار

والعالَم القديمَ بالجديد

آلهةُ الحديدِ والنحاس والدّمار،

أبوك رائدُ المحيطِ، نامَ في القرار:

من مقلتيه لؤلؤٌ يبيعه التجار[172]...

وحظكِ الدُّموع والمحار

وعاصفٌ عاتٍ من الرصاص والحديد.

و«أريل» الجديد[173]

الهدرجين[174]، واهب المياه للقفار

ومنجب اللهيب، عاد يرسل الوعيد

يهز شنغهاي

يُرجع «كونغاي، كونغاي».

وذلك المجلجلُ المُرِنُّ من بعيد:

لمن، لمن يدق: «كونغاي، كونغَاي»؟

أهمَّ بالرّحيلِ في «غرناطة» الغجرْ؟

فاخضرَّت الرياحُ، والغديرُ، والقمرْ[175]؟

أم سُمِّرَ المسيحُ بالصليب فانتصرْ

وأنبتتْ دماؤه الورودَ في الصخَرْ؟

أم أنّها دماءُ كونَغاي؟

ورغمَ أنّ العالَم استسرَّ واندثر[176]،

ما زالَ طائرُ الحديد يذرعُ السماء،

وفي قرارةِ المحيطِ يعقد الكرى

أهداب طفلكِ اليتيم - حيثُ لا غِناءْ

إلّا صراخَ (البابيون): «زادُكَ الثرى،

فازحفْ على الأربع... فالحضيض والعلاء

سيّان، والحياة كالفناء!»

سيّان «جنكيزُ»، و«كنَغايْ»

هابيلُ قابيلُ، وبابلٌ كشنغَهاي،

وليست الفضّة كالحديد!

هياي.. كونغاي، كونغاي!

الصّينُ حقلُ شايْ،

وسوقُ شنْغهاي

يعجُّ بالمزارِعين قبلَ كلّ عيد.

هياي.. كونغاي. كونغاي!

2 - تسديد الحساب

تلك الرواسي كم انحطّ النهارُ على

أقصى ذُراها، وكم مرَّت بها الظلَمُ

فما فرحن بآلاف الشموسِ، ولا

من ألفِ نجمٍ تردى مسَّها ألم

صمَّاءُ، بكماء، لم تأخذ، ولا وهبتْ

ولا ترصَّدها موتٌ ولا هرم

لو أودع الله إياها أمانته

لنالهنَّ على استيداعها ندمُ

ولأقتسمنَ مع الأحياء ما دفعت

من جزيةٍ لا تُوفّى حين تُقتسم:

عن كلّ قهقهة من صرخةٍ ثمنٌ

وما استجدَّ دمٌ إلّا وضاع دمُ

وما تحمَّل آلامَ المخاض ولم

يقرب من النور إلّا الفكرُ والرحمُ

وإن يكن أسعدَ الأحياء أكملها

فإنما هو أشقاهنَّ لا جَرَمُ؟

«قابيلُ» باقٍ وإن صارت حجارته

سَيفاً، وإن عادَ ناراً سيفُه الخذم

وردَّ «هابيلُ» ما قاضاه بارئه

عن خَلقهِ، ثمّ ردَّت باسمه الأُمَمُ

واليومَ، في حين وفّى الدَّينَ غارمه

إلّا بقايا وكادت تخلص الذِّمم

وكاد يُرجع للدنيا بشاشتها

ما قرَّبته الضحايا وهي تبتسمُ

مشى على الأرض خلقٌ عاش في دمه

من وحشها في المخاض الأوّلِ الضرمُ

خَلقٌ تراءى لـ«يحيى»[177] ساعة افترستْ

عينيه رؤيا لها من هؤلاء فمُ

لو يُقبض النورُ بالأيدي لسوَّره

دونَ الورى... ولتعمَّ العالم الظّلم

ريّانُ عطشانُ لا يروى، بلا فرحٍ

جذلانُ، بادٍ عليه الجوع والبشمُ

كأنّه - وهو ماض في غوايته -

من نفسه اقتصَّ، فهو الماءُ والحممُ

تفجر الضَّحِكُ المسلوبُ من رئةٍ

منخوبةٍ بعد أخرى هدَّها السقم

عن ضحكة أطلقوها فهي صاعقةٌ

أصابهم والورى من رجعها صمم

واستنزفوا متعةَ الأحياء: ما دفعوا

عنها، ولا غارماً ما استنزفوا رحموا

ثمّ استزادوا... فإنْ لم يذهبوا ديةً

أو يقصروا عن طماحٍ يرجحِ العدمُ!

3 - حقائق كالخيال[178]

ماذا تريد العيونُ السود من رجلٍ

قد حاش زهر الخطايا حين لاقاها

زهراً على جسميَ المحمومِ أقطفه

في باقةٍ من جراحٍ بثُّ أصلاها:

هذا الربيع الّذي تهدي شقائقه

ريحَ المنايا إلى قلبي بريَّاها

أزهارُ تموزَ[179] ما أرعى: أُسلِّمه

في عتمةِ العالم السُّفليِّ إياها؟

أم صِلُّ حوّاء بالتفّاح كافأني

وهو الّذي أمسِ بالتفاح أغواها؟

ماذا تريد العيون السود؟ إنّ لها

ما لستُ أنساه منها حين أنساها

ما بالهن استعَضنَ البوم أوعيةً

عن أوجه الغيد... حتّى ضاع معناها

أين المناقير من لُعْسٍ مراشفُها

ربِّي؟ وأين ابتسام كان يغشاها

من هذه الخربةِ الظلماء محدقةً

بي أعين البومِ من أجداثِ موتاها؟

قفراءُ من غيرِ ثكلى شفَّ مئزرها

عن وهج فانوسها الكابي وأخفاها

تسعى كما اصطادَ في ليلٍ يراعتَه[180]

طفلٌ، وطارت وقد ألوى جناحاها

محنيّة تتقرَّى كلّ شاهدةٍ

من كلّ قبرٍ، كما لو كان طفلاها

في كلّ قبرٍ يذوقان الردى: ديةً

عمَّن يؤاوي وعن أحياء دنياها

نادتهما فانبرى يزقو لصيحتها

- من حيث ردّ الصدى - بُومٌ وناداها:

«أُمّاه إنا هنا. ريحٌ بنا عصفت

لم ندرِ أين انتهينا بعد لقياها»

وانشقّ من خلفها قبرٌ ليبلعها

واحتازها واشرأبّت منه كفّاها

يختضَّ فانوسها التَّمتامُ بينهما

والريحُ خرساء تعبى...

غيرَ «ها. ها.. ها..»

* * *

وَيْلُمَ سازاك[181] كيف اندكّ حائطه

حتّى تعرَّى ليَ السهلُ الّذي حجبا؟

سهلٌ يكنُّ الصلالَ الرّقْطَ، أجهضه

عادٍ من المحل حتّى يفزع العطبا

وانبحَّت التربةُ العجفاء - من عطش -

عن أشدُقٍ فاغراتٍ تنبح السحبا

والشمس كالأطلس[182] المسعور تنهشه

والريحُ تصليه من تنورها لهبا

الريح؟ لا ليست الريح الّتي ركضت

بيضاء سوداء رقطاء القفا عجبا

عنقاء[183] في مِسعر الجوزاء أعينُها

والصخر يرفضّ من أظلافها شهبا

تلك الزرافات[184] في السهل العقيم لها

مرعى روَى من سرابٍ، ينبت السّغبا

ما روّعتها سوى ضوضاء خشخشة

في كفِّ أبرص يعدو خلفها خببا

تخفيه عنها ضماداتٌ، ويظهره

ما نزَّ من قيحه الدامي وما شخَبا

نادى، وكفّاه تختضّان، «واحربَا»

فاستعبر العاصف المصدور «واحربا»!

«ماءَ اسْقِ يا ماءُ..» تلهاثٌ مقاطعه

منزوعة من لسان يشبه الخشَبا

حتّى استجاب السحاب الجوْن فانعقدت

في الجوّ حبّاته الغبراء فاحتجبا

وانهلْ: لا عن ندىً صافٍ ولا مطر

بل عن دم، من ثُديٍّ مُزّقت حُلبا

أو عن مشاشٍ من الأحداق فقّأها

سِيخٌ لجنكيزَ[185] دامٍ ينفث اللهبا

«ماءَ، اسق يا ماءُ..» والغيثُ الرهيب كلى

مفريَّةٌ سحَّت الآجال والكُرَبا

لم يبقَ من مرتوٍ أو ظامئ، بفمٍ

أو دونَ...، إلّا ومن ماء الردى شربا

* * *

ويلٌ لسازاكَ! ماذا ينْتوي بدمي

من نيّةٍ... فهو يستصفي ويمتار؟

تلك الزجاجات أشلاء مجزأة

مني، دمي مختزٍ فيهنّ موّار!

لم تثن سازاك عن شحذٍ لمديته

آهات مرضى، ولا ألهاه زوار

إني لدارٍ بأني حين يشرعها

رانٍ إليها، فملدوغٌ، فمُنْهار

هل تبتغي شفرتاها غير آنيةٍ

فيها دمي راجفٌ، والداء والعار؟

ما كنت يوماً ولا المرضى سوى عَرضٍ

- في عين سازاك - يُجبى منه إيجار

ست وعشرون: أعدادٌ على سررٍ

أمّا الأصحاء والمرضى فأصفار!

فالرقْم «عشرون» لا يسقى سوى لبنٍ

والرقْم «عشرٌ» نعاه اليومَ محرارُ

واليوم لم يبقَ ما أعطيه عن مرضٍ

إلّا دعائي وقولي «نِعمتِ الدارُ»!

فليلْقَ سازاكُ من يسمى «ثمانية»

غيري، ويستوفِ أجرَ القبر حفارُ!

قافلةُ الضياع[186]

أرأيت قافلة الضَّياع؟ أما رأيت النازحين؟

الحاملين على الكواهل، من مجاعات السنين

آثامَ كلّ الخاطئين

النازفين بلا دماءْ

السائرين إلى وراءْ

كي يدفنوا «هابيل» وهو على الصليب ركام طين؟

«قابيل، أين أخوك، أين أخوك؟»

جمّعت السماءْ

آمادَها لتصيح. كُوّرت النجوم إلى نداءْ:

«قابيل، أين أخوك؟»

- «يرقد في خيام اللاجئين

السلُّ يُوهن ساعديْه، وجئتُه أنا بالدواءْ

والجوع لعنة آدمَ الأولى وإرثُ الهالكين

ساواه والحيوانَ ثمّ رماه أسفل سافلين

ورفعته أنا بالرغيف، من الحضيض إلى العلاءْ».

* * *

الليل يُجهض، والسفائن مثقَلاتٌ بالغزاه:

بالفاتحين من اليهود،

يلقين في حيفا مراسِيَهنّ - كابوسٌ تراه

تحت التراب محاجرُ الموتى فتجحظ في اللحود.

الليل يُجهَضُ، فالصباحُ من الحرائق.. في ضحاه

الليل يُجهَض، فالحياه

شيء ترجَّح لا يموت ولا يعيش بلا حدودْ

شيء تفتّحَ جانباه على المقابر والمهود

شيء يقول «هنا الحدود!

هذا لكل اللاجئين، وكل هذا.. لليهودْ!»

* * *

النار تصرخ في المزارع والمنازل والدروب

في كلّ منعطفٍ تصيح: «أنا النضار، أنا النضار!»

من كلّ سنبلة تصيح ومن نوافذ كلّ دارْ:

«أنا عجلُ «سَيْناءَ» الإلهُ، أنا الضمير، أنا الشعوب

أنا النضار!»

النار تتبعنا، كأنّ مدى اللصوص وكل قطّاع الطريقْ

يلهثن فيها بالوباء، كأنّ ألسنةَ الكلاب

تلتزُّ منها كالمبارد وهي تحفر في جدار النور بابْ

تتصبّب الظلماء كالطوفان منه؛ فلا ترابْ

ليُعادَ منه الخلق، وانجرف المسيح مع العبابْ

كان المسيح بجنبه الدامي ومئزره العتيقِ

يسدّ ما حفرته ألسنة الكلاب

فاجتاحه الطوفان: حتّى ليس ينزف منه جنبٌ أو جبين

إلّا دجىً كالطين تبنى منه دورُ اللاجئين.

النار تركض كالخيول وراءنا. أهمُ المغولُ

على ظهور الصافنات؟ وهل سألت الغابرينَ

أروَّضوا أمسِ الخيول؟

أم نحن بدء الناس: كلّ تراثنا أنصابُ طينْ.

* * *

النار تصهل من ورائي والقذائف لا تنامُ

عيونُها وأبي على ظهري، وفي رحمي جنينْ

عريانُ دون فمٍ ولا بصرٍ، تكوّر في الظلامْ

في بركة الدم وهو يفرك أنفه بيدٍ. وكالجرس الصغيرِ

يرنُّ ملءَ دمي صداه - تكاد تومض كلّ روحي بالسلام

حتّى أكاد أراه في غبش الدماء المستنير

عريانُ دون فمٍ كأفقر ما يكون: بلا عظامْ

وبلا أب، وبدون حيفا دون ذكرى - كالظلام!

أسْريتُ أعبر، تحت أجنحة الحديد به الزمان

من الحقول إلى المراعي فالكهوف

والأرض تطمس من وراء ظهورنا، كالأبجديه

الدُورُ فيها والدوالي شاخصات كالحروف

فكأنّ أمس غدٌ يلوح وليس بينهما مكانْ.

لم يخرجونا من قرانا وحدَهنّ ولا من المدن الرخيّه:

لكنّهم قد أخرجونا من صعيد الآدميّه!

فاليوم تمتلئ الكهوف بنا ونعوي جائعين

ونموت فيها لا نخلّف للصغار على الصخورِ

سوى هبابٍ ما نقشنا فيه من أسدٍ طعين!

ونموت فيها لا نخلّف بعدنا حتّى قبور

ماذا نخطّ على شواهدها؟ أ«كانوا لاجئين»؟

اليوم تمتلئ الكهوف بنا: تُظلّل بالخيامِ

وبالصفيح، وقد تغلفهنَّ بالآجر دور

والنور كالتابوت فيها، ليس فيه سوى ظلامْ.

* * *

بين الكهوف وبين حيفا من ظلامٍ ألفُ عام أو يزيدْ

بين الكهوف وبين أمسِ هناك بئرٌ لا قرارَ

لها، كهاوية الجحيم تلزّ فاها دون نارْ

تتعلّق الأجداث فيها كالجلامد في جدارْ

لحداً على لحدٍ، أُزيحَ الطينُ عنها والحجارْ

من يدفن الموتى وقد كُشفوا وماتوا من جديدْ؟

من يدفن الموتى

ليولد، تحت صخرةِ كلّ شاهدةٍ، وليدْ؟

من يدفن الموتى لئلا يزحموا باب الحياةِ

على أكفّ القابلاتْ؟

من يدفن الموتى لنعرف أنّنا بشر جديدْ!

في كلّ شهر من شهور الجوع يومئ يوم عيدْ

فنخفّ نحمل من «تذاكرنا» صليبَ اللاجئين:

- «يا مكتباً للغوث في سيناء هبْ للتائهين

مَنّاً وسلوى من شعيرٍ، والمشيمة للجنين

واجعل له المطّاط سُرّهْ

وارزقْه ثدياً من زجاجٍ واحْشُ بالأدريج صدره!».

* * *

وبأيّما لغةٍ نقول فيستجيب الآخرون

ونوّرث الدم للصغار؟

أعلمتَ - حين نقول: دار أو سماء - أيّ دار

أو سماء تخطران على العيون؟

هيهات، ليس للاجئين ولاجئاتٍ من قرار

أو ديار،

إلّا مرابع كان فيها أمسِ معنى أن نكون

سنظلّ نضرب كالمجوس نجسّ ميلاد النهار!

كم ليلةٍ ظلماء كالرّحم انتظرنا في دجاها

نتلمسُ الدم في جوانبها ونعصرُ من قواها

شعّ الوميض على رتاج سمائها مفتاحَ نار

حتّى حسبنا أنّ باب الصبح يفرج - ثمّ غار

وغادر الحرسُ الحدود.

واختضّ رعدٌ في مقابر صمتها يعد القفار،

ثمّ اضمحل إلى غبار بين أحذية الجنود.

الليل أُجهِضَ: ناره الحمى وديمته انتحاب الضائعين،

الليل أُجهض: ليس فيه سوى مجوس اللاجئين،[187]

الليل... كلا! ما هناك؟ انظرْ - تضوَّأت السماءُ

بنور نجم كالصليب، هو الخلاص! هو الفداء!

وُلد (الفدائيون)، بابُ غد،

فلا غدَ لليهود!

يومُ الطغاةِ الأخير

«أغنية ثائر عربي من تونس لرفيقته»

- «إلى الملتقى...»، وانطوى الموعدُ

وظلّ الغدُ:

غدُ الثائرين القريبْ.

يداً بيدٍ من غمار اللهيب

سنرقى إلى القمّة العاليه

وشعرك حقلٌ حباه المغيب

أزاهيرَه القانيه.

* * *

نرى الشمسَ تنأى وراء التلالْ

وبين الظلال،

وقد رفّ، مثل الجناح الكسير -

على كومةٍ من حطام القيود

على عالم بائدٍ لن يعود -

سناها الأخير.

* * *

تقولين لي: «هل رأيت النجوم؟

أأبصرتها قبل هذا المساء

لها مثل هذا السّنا والنّقاء؟»

تقولين لي: «هل رأيت النجوم

وكم أشرقت قبل هذا المساء

على عالم لطّخته الدماء:

دماء المساكين والأبرياء!»

تقولين لي: «هل رأيت النجوم

تُطلّ على أرضنا وهي حرّه

لأول مرّه؟»

نعم. أمس حين التفتّ إليك

تراءيْنَ كالهجس في مقلتيك.

* * *

وإذ يستضيءُ المدى بالحريق،

فيندكُّ سجن ويُجلى طريقْ،

ويُذكي بأطيافه الدافئه

محيّاك باللهفة الهانئه؟

تقولين «نحن ابتداء الطريق

ونحن الذين اعتصرنا الحياه:

من الصّخر تدمى عليه الجباه

ويمتصّ ريّ الشفاه،

من الموت في موحشات السجون

من البؤس، من خاويات البطون؛

لأجيالها الآتيهْ.

لنا الكوكبُ الطالعُ

وصبح الغد الساطعُ

وآصاله الزاهيه!»

إلى جميلة بوحيرد

لا تسمعيها.. إنّ أصواتنا

تخزى بها الريحُ الّتي تنقلُ،

بابٌ علينا من دمٍ مُقْفَلُ

ونحن في ظلمائنا نسأل:

«من مات؟ من يبكيه؟ من يُقتلُ؟

من يصلب الخبز الّذي نأكلُ؟

نخشى إذا واريتِ أمواتنا

أن يُفزِعَ الأحياء ما يُبصرونْ،

إذ يُقفِر الكهف الّذي يأهلون؛

إنّ عربدَ الوحشُ الّذي يطعمون

من أكبُد الموتى، فمن يبذلُ؟

يا أُختنا المشبوحةَ الباكيه،

أطرافُك الداميه

يقطرْن في قلبي ويبكين فيه.

يا من حملتِ الموتَ عن رافعيه

من ظلمة الطين الّتي تحتويه

إلى سماوات الدم الواريه،

حيث التقى الإنسان والله، والأموات والأحياء في شهقةٍ،

في رعشةٍ للضربة القاضيه.

الأرضُ، أمُّ الزهر والماء والأسماك والحيوان والسنبلِ،

لم تبلُ في إرهاصها الأوّلِ

من خضّةِ الميلاد ما تحملينْ:

ترتجُّ قيعان المحيطات من أعماقها، ينسحُّ فيها حنين،

والصّخر منشدٌّ بأعصابه - حتّى يراها - في انتظار الجنين.

الأرض؟ أم أنت الّتي تصرخين؟

في صمتك المكتظّ بالآخرين؟

في ذلك الموت، المخاض، المحب، المبغض، المنفتح، المقفلِ.

ونحن؟ أم أنت الّتي تولدين؟

أسخى من الميلاد ما تبذلين،

والموت، أقسى منه، من كلّ ما عاناه أجيالٌ من الهالكين،

أنّ الّذي من دونه الجُلْجله

والسوطَ والسجَّان والمقصله،

أنّ الّذي يفديكِ أو تفتدين،

غيرُ الّذي آذاه بالنار أو بالعار والماء الّذي تشربين:

عبءٌ من الآجال ما أثقله!

كم حاولَ الجلاد أن ينزله،

كم ودَّ أن تُلقيه إذ تعجزين.

مشبوحةُ الأطراف فوق الصليبْ،

مشبوحة العينين عبر الظلام،

يأتيك من وهرانَ - يا للزحام!

حَشْدٌ مُشعّ باشتعال المغيب،

يأتيك كلّ الناس، كلّ الأنام،

يرجون، مما تبذلين، الطعام

والأمنَ والنعماء والعافيه.

وأنتِ مثلُ الدوحةِ العاريه،

لم يُبق منك البغيُ إلّا الجذور

الموتُ واهٍ دونها، والنشور

فيها وتجري دونكِ الساقيه.

ما شبَّ في وهرانَ من بُرعُم

أو أزهرت في أطلسٍ عَوسجة،

إلّا ودبّت في مسيل الدمِ

نمنمةٌ منعشةٌ مبهجه

توحي بأنّ الأرض ظلّت تدور

طاحونةٌ للقاتل المجرمِ

تسحق منه واهنَ الأعظُمِ،

وأنّ ألوان الأذى والعذاب

ذُخرٌ لنا، نجلوه يومَ الحساب

نسقي به الباغين، نروي التراب

من لَفْحِهِ - أنّ الهوى والشباب

لم يذهبا - أنّ البعاد اقتراب -

أنّ من الدمع الّذي تسكبين

أسلحةً في أذرع الثائرين.

جاء زمانٌ كان فيه البشرْ

يفدون من أبنائهم للحجر:

«يا ربّ عطشى نحن. هات المطر!

روِّ العطاشى منه، روِّ الشَّجَر».

وجاء حينٌ عاد فيه البشر

يفدون بالأنعام ما تحبس السماء في أعماقها من قدر.

وجاء عصرٌ سار فيه الإله

عريانَ، يدمى، كي يروِّي الحياه.

واليوم ولّى محفلُ الآلهه،

اليومَ يفدي ثائرٌ بالدماءْ

الشيبَ والشبانَ، يفدي النساء،

يفدي زروع الحقل، يفدي النماء،

يفدي دموع الأيّم الوالهه.

بالأمس دوّى في ثرى يثربِ

صوتٌ قويٌّ من فقيرٍ نبي،

ألوى ببغي الصَّخْر. لم يضربِ،

وحطّم التيجانَ. أيُّ انطلاقْ

في مصرَ، في سوريّةٍ، في العراق،

في أرضكِ الخضراء. كان انعتاق!

بالأمس وارى قومك الآلهه.

عشتار، أمُّ الخِصْب، والحب، والإحسان، تلك الربّة الوالهه

لم تُعطِ ما أعطيتِ، لم تُرْوِ بالأمطارِ ما روّيتِ: قلبَ الفقير،

لم يعرف الحقد الّذي يعرفونْ

والحسَدَ الآكلَ حتّى العيون.

نحن بنو الفقر الّذي يزعمون

في كلّ عصر أنّهم وارثوه.

قابيل فينا ما تهاوى أخوه

من ضربة الحقد الّتي يضربون.

يوم ابتدأنا كان عبءُ السماء

ملقىً على أطلسٍ،

يزحمه بالمنكب الأملسِ.

ثمّ ارتقى «إيفل»[188]، تمّ البناء

فانحطّ ذاك العبءُ حيناً عليه،

ثمّ انطلقنا نحن من جانبيه

حتّى حملنا عبئها، كلّ ما فيها من الأبراج والأنجمِ،

يا أختنا المشبوحةَ الباكيه،

أطرافك الداميه

يقطرن في قلبي ويبكين فيه.

لم يلقَ ما تلقين أنتِ المسيح -

أنتِ الّتي تفدين جُرح الجريح

أنتِ الّتي تُعطين.. لا قبضَ ريح،

يا أُختنا، يا أمَّ أطفالنا

يا سقفَ أعمالنا

يا ذروةً تعلو لأبطالنا.

ما حزَّ سوط البغي في ساعديْك

إلّا، وفي غيبوبة الأنبياءْ،

أحسستِ أنّ السوط، أنّ الدماء،

أنّ الدجى، أنّ الضحايا.. هباء

من أجل طفل ضاحكته السماء

فرحانَ في أرضهِ

وبعضُه فرحانُ من بعضِه،

أحسستِه يحبو على راحتيْك،

سمعتِه يضحكُ في مسمعَيك،

يهتف: «يا جميله

يا أختي النبيله،

يا أختيَ القتيله،

لك الغد الزاهي كما تشتهين»

وأنت إذا أحسستِ، إذ تسمعين،

تعلو بكِ الآلام فوق الترابْ

فوق الذرى، فوق انعقاد السحاب،

تعلين حتّى محفل الآلهه

كالربّة الوالهه،

كالنسمة التائهه.

لا تسمعيها.. إنّ أصواتنا

تخزى بها الريحُ الّتي تنقلُ،

بابٌ علينا، من دمٍ، مقفلُ

ونحن نُحصي، ثَمَّ، أمواتنا.

الله لولا أنتِ يا فاديه

ما أثمرت أغصاننا العاريه

أو زنبقت أشعارنا القافيه.

إنّا هنا.. في هوةٍ داجيه

ما طافَ لولا مُقلتاك الشعاعْ

يوماً بها. نحن العراة الجياع؛

لا تسمعي ما لفّقوا، ما يُذاع،

ما زيَّنوا، ما خطّ ذاك اليراع.

إنّا هنا كومٌ من الأعظمِ

لم يبقَ فينا من مسيل الدمِ

شيء نروّي منه قلبَ الحياة.

إنّا هنا موتى، حفاة، عراة.

لا تسمعيها، إنّ أصواتنا

تخزى بها الريحُ الّتي تنقلُ،

بابٌ علينا، من دمٍ، مقفلُ

ونحن في ظلمائنا نسأل:

«من مات؟ من يبكيه؟ من يُقتلُ؟»

يا نفحةً من عالم الآلهه

هبَّت على أقدامنا التائهه،

لا تمسحيها من شواظ الدماء،

إنّا سنمضي في طريق الفناء؛

ولترفعي «أوراسَ» حتّى السماء

حتّى تروّى من مسيلِ الدماء

أعراقُ كلّ الناس، كلّ الصخور،

حتّى نمسَّ الله.

حتّى نثور!

رسالةٌ مِن مقبرة[189]

«إلى المجاهدين الجزائريّين»

من قاعِ قبري أصيحْ

حتّى تئنَّ القبورْ

من رَجع صوتي، وهو رملٌ وريحْ

من عالمٍ في حفرتي يستريح،

مركومةً في جانبيه القصورْ،

وفيه ما في سواه

إلّا دبيبَ الحياه،

حتّى الأغاني فيه، حتّى الزُّهور

والشمسُ، إلّا أنّها لا تدور

والدُّود نخّارٌ بها في ضريح.

من عالمٍ في قاع قبري أصيح:

«لا تيأسوا من مؤلدٍ أو نشور!»

* * *

النور من طينٍ هنا أو زجاجْ،

قُفلٌ على باب سورْ.

النور في قبري دجىً دون نور.

النور في شُبّاك داري زجاج،

كم حدّقتْ بيَ خلفه من عيونْ

سوداءَ كالعارِ

يجرحن بالأهداب أسراري

فاليوم داري لم تعدْ داري

والنور في شبّاك داري ظنونْ

تمتصُّ أغواري.

وعند بابي يصرخ الجائعون:

«في خُبزِكَ اليوميِّ دفءُ الدِّماء

فاملأ لنا، في كلّ يومٍ، وعاء

من لحمك الحيِّ الّذي نشتهيه،

فنكهةُ الشمس فيه

وفيه طعم الهواء!»

وعند بابي يصرخ الأشقياءْ:

«أُعصرْ لنا من مقلتيكَ الضياء

فإنّنا مُظلمون!»

وعند بابي يصرخ المخبرون:

«وَعرٌ هو المرقى إلى الجلجله[190]،

والصَّخرُ، يا سيزيفُ، ما أثقله.

سيزيف... إنّ الصخرةَ الآخرون!»

* * *

لكنَّ أصواتاً كقرع الطبولْ

تنهلَ في رمسي

من عالم الشمسِ

هذي خُطى الأحياء بين الحقول

في جانب القبر الّذي نحن فيه.

أصداؤها الخضراء

تنهلُّ في داري

أوراق أزهارِ

من عالم الشمس الّذي نشتهيه.

أصداؤها البيضاء

يَصدعنَ من حولي جليدَ الهواء

أصداؤها الحمراء

تنهلُّ في داري

شلالَ أنوارِ،

فالنور في شبَّاك داري دماء

ينضَحنَ من حيث التقى، بالصخورْ

في فُوهة القَبر المغطّاةِ، سور.

هذا مخاضُ الأرض لا تيأسي؛

بُشراكِ يا أجداث، حانَ النشورْ!

بشراكِ.. في «وهران» أصداءُ صورْ.

سيزيفُ ألقى عنه عبءَ الدُّهور

واستقبلَ الشمسَ على «الأطلسِ»!

* * *

آهٍ لوهران الّتي لا تثور!

في المغرب العربيّ[191]

قرأتُ اسمي على صخره

هنا، في وحشة الصّحراءْ،

على آجرّةٍ حمراء،

على قبرٍ. فكيفَ يحسُّ إنسانٌ يرى قبرهْ؟

يراهُ وإنه ليحارُ فيه:

أحيٌّ هو أم ميّتٌ؟ فما يكفيه

أنْ يلقى له ظلّاً على الرملِ،

كمئذنةٍ مُعفّرةٍ

كمقبرةٍ

كمجدٍ زالْ

كمئذنةٍ تردَّد فوقها اسمُ الله

وخُطّ اسمٌ له فيها،

وكان محمدٌ نقشاً على آجُرَّةٍ خضراء

يزهو في أعاليها...

فأمسى تأكلُ الغبراء

والنيرانُ، من معناه،

ويركله الغزاة بلا حذاء

بلا قدمِ

وتنزف منه، دونَ دمِ،

جراحٌ دونما ألمِ -

فقد ماتْ...

ومتنا فيه، من موتى ومن أحياء.

فنحن جميعنا أموات

أنا ومحمد والله.

وهذا قبرنا: أنقاضُ مئذنةٍ معفّرةٍ

عليها يُكتبُ اسم محمّدٍ والله،

على كِسَرٍ مبعثرةٍ

من الآجرّ والفخّارْ.

فيا قبر الإله، على النهار

ظلّ لألف حربةٍ وفيلْ

ولوْنُ أبرهَه

وما عكسته منه يدُ الدليل،

والكعبة المحزونة المشوَّهه.

قرأتُ اسمي على صخره،

على قبرين بينهما مدى أجيالْ

يجعل هذه الحفره

تضمّ اثنين: جد أبي - ومحضُ رمالْ

ومحضُ نثارة سوداء منه، استنزلا قبره -

وإياي، ابنَه في موته والمضغةِ الصّلصال.

* * *

وكان يطوف من جدِّي

مع المدِّ

هتافٌ يملأ الشطآنَ: يا وديانانا ثوري!

ويا هذا الدمُ الباقي على الأجيالْ

يا إرثَ الجماهيرِ،

تشظّ الآن واسحقْ هذه الأغلالْ

وكالزلزال

هُزَّ النيرَ، أو فاسحقْه واسحقْنا مع النيرِ.»

وكان إلهنا يختالْ

بين عصائب الأبطال،

من زندٍ إلى زندِ

ومن بنْدٍ إلى بندِ

* * *

إلهُ الكعبة الجبّارْ،

تدرَّعَ أمسِ في ذي قار

بدرعٍ من دم النعمان في حافاتها آثارْ.

إله محمد وإله آبائي من العربِ،

تراءى في جبال الريف يحمل راية الثوّار،

وفي يافا رآه القوم يبكي في بقايا دار.

وأبصرناهُ يهبط أرضنا يوماً من السحبِ:

جريحاً كان في أحيائنا يمشي ويستجدي،

فلم نضمُدْ له جرحاً

ولا ضحَّى

له منا بغير الخبز والأنعام من عبْدِ!

* * *

وأصوات المصلين ارتعاشٌ من مراثيهِ

إذا سجدوا ينزُّ دمُ

فيسرع بالضّماد فمُ:

بآياتٍ يغضّ الجرح منها خير ما فيهِ،

تداوي خوفنا من علمنا أنّا سنحييه

إذا ما هلّل الثوار منا: «نحن نفديه!»

* * *

أغار، من الظّلام على قرانا

فأحرقهنَّ، سربٌ من جرادِ

كأنّ مياه دجلة، حيث ولّى،

تنمّ عليه بالدم والمدادِ.

أليس هو الّذي فجأ الحُبالى

قضاه، فما ولدْنَ سوى رمادِ؟

وأنعل، بالأهلة في بقايا

مآذنها، سنابك من جوادِ؟

وجاء الشام يسحب في ثراها

خُطى أسدين جاعا في الفؤادِ؟

فأطعم أجوع الأسدين عيسى

وبلّ صداه من ماء العمادِ

وعضّ نبيَّ مكة... فالصحارى

وكل الشرق ينفرُ للجهادِ؟

* * *

أعاد اليوم، كي يقتصّ من أنّا دحرناهُ؟

وإن االله باقٍ في قرانا، ما قتلناه؟

ولا من جوعنا يوماً أكلناه؟

ولا بالمال بعناهُ -

كما باعوا

إلـهَهَمُ الّذي صنعوه من ذهبٍ كدحناه؟

كما أكلوه إذ جاعوا ـ

إلـهَهمُ الّذي من خبزنا الدامي جبلناهُ؟

وفي باريس تتخذ البغايا

وسائدهنّ من ألم المسيحِ

وبات العقمُ يزرع في حشاها

فم التنّين: يشهق بالفحيحِ

ويقذف من حديدٍ في حمانا

جحافل كالفوارس، دون روحِ

تجدّ وراء مكةَ في الصياصي

أقمناها، ويثرب في السفوحِ

* * *

قرأت اسمي على صخره...

وبين اسمين في الصحراءْ

تنفّس عالمُ الأحياء

كما يجري دمُ الأعراق بين النبض والنبض

ومن آجرّةٍ حمراء ماثلة على حُفره

أضاء ملامح الأرضِ

بلا ومضِ

دمٌ فيها، فسمّاها

لتأخذ منه معناها

لأعرفَ أنّها أرضي

لأعرفَ أنّها بعضي

لأعرفَ أنّها ماضيَّ، لا أحياهُ لولاها

وأني ميِّت لولاه، أمشي بين موتاها.

أذاك الصاخب المكتظّ بالرايات وادينا؟

أهذا لوْن ماضينا

تضوَّأ من كوى «الحمراءْ»

ومن آجرّةٍ خضراء

عليها تكتب اسمَ الله بقيا من دمٍ فينا؟

أنبرٌ من أذان الفجر؟ أم تكبيرة الثوارْ

تعلو من صياصينا...؟

تمخّضت القبور لتنشرَ الموتى ملايينا

وهبّ محمدٌ وإلهه العربيّ والأنصارْ:

إنّ إلهنا فينا.

مرثيّةُ جيكور

يا صليبَ المسيح ألقاكَ ظلّاً

فوق «جيكور»[192] طائرٌ من حديدِ

يا لظلٍّ كظلمة القبر في اللون، وكالقبر في ابتلاع الخدودِ

والتهامِ العيون من كلّ عذراءَ كعذراء «بيت لحم» الولودِ

مرّ عجلانَ بالقبور العواري من صليبٍ على النصارى شهيدِ

فاكتست منه بالصليب الّذي ما كان إلّا رمز الهلاك الأبيدِ:

لا رجاءٌ لها بأن يُبعث الموتى ولا مأمل لها بالخلودِ!

ويلَ جيكور؟ أين أيامها الخضرُ وليلاتُ صيفها المفقودِ؟

والعشاءُ السخيّ في ليلة العرس وتقبيلة العروس الودودِ

وانتظارٌ له على الباب؟.

- «محمود، تأخرت يا أبا محمود

نادِ محمود!»

ثمّ يوفي على الجمعِ بمنديل عرسه المعقودِ

نقطتُه الدماء يشهدنَ للخدر بعذراء، يا لها من شهودِ[193]

لا على العقم والرّدى، بل على الميلاد والبعث والشباب الجديدِ!

أيّ صوت يصيح: «محمود، محمود تأخرتَ!» كالنواح البعيدِ؟

أين محمود؟ ليس محمود في الدار ولا الحقل!

يا أبا محمودِ

نادِ محمود. كاد أن يهتف الديكُ وما زال جمعنا في الوصيدِ

قل له يُبرز الدماءَ فإنّا في انتظار لها وشوق مبيدِ!

ذرَّ نجمُ الصباح. محمود، محمود، أأقبلت بالدم المنشودِ؟

أيّ جرح ينزُّ منه الدم الموَّار في باب داركَ المرصودِ؟

إنه منك! منك هذا الدم الثرُّ ومن جانب العروس القديدِ!

الصليبُ، الصليبُ! إنّا رأيناه وقد مرَّ كالخيال الشَّرودِ،

قد رأيناه في الصباح. وفي الليل سمعنا كقعقعات الرعودِ

أهو هذا الّذي يريدون؟ أشلاءً وأنقاضَ منزل مهدودِ؟

أفما قامت الحضارات في الأرض كعنقاءَ من رماد اللحودِ؟

لا ولم تُفرخ العقولُ على المجهول يسبرْنَ فيه غورَ الوجودِ!

أو يشقُّ العُبابَ قلعٌ يصكُّ الريحَ صكاً إلى البعيد البعيدِ؟

أو يلم النسيمَ عقداً من النور ويذروه باقةً من ورودِ

ساحرٌ فجَّر المدى عن مدى ملآنَ باللحن مُترعٍ بالنشيدِ؟

أو تدقّ الأجراس: «يا أرضُ، يا بشراك بالحبّ والمسيح الوليدِ»؟

لا ولم يُختم الزجاج على كلّ «هِرقَلٍ»[194] من العقار الأكيدِ

يخنق الموتَ كلما همَّ بالناس ويجتاح كاسرات الأسودِ؟

لا ولا قيسَ بعدما لفّه الليل من الأرض واحتوى من حدود

الّذي قاس حافةَ الساعةِ القوراء في قرصها ذراعاً حديدِ؟

أو يفضّ الظلام؟ - إلّا لكي تندكّ «جيكور» بالسلاح الجديدِ؟

كي يراها على اتساع المدى والشأوِ من ليس طرفه بالحديدِ؟

من وراء المحيط والليل والغابات والبيد والذرى والسدودِ!

أين من شال «جينَ» أطمار «كلثوم»؟ وأين الغضا من الأركيدِ؟

فيمَ أسرى صحاب «جين» المغاويرُ على زوج «كلثمَ» المنكودِ؟

يا رماداً تذرُّه الزعزع الشعثاءُ في مقلة القُمَير الوحيدِ،

أنت «جيكور» كلّ جيكور: أحداق العذارى وباسلات الزنود

والرؤوس الّتي حثا فوقهنَّ الدهرُ ما في رحاه من تنكيد:

صرَّد القمح من نثار لها اللون، ولم تحظَ بالرغيف الوئيد

فهي صحراء تزفر الملح آهات وشكوى، لمائها الموؤود!

خورس[195]:

شيخ اسمُ الله... ترللا

قد شابَ ترلّ ترلّ ترارِ... وما هلّا

ترلل.. العيد ترللا

ترللا.. عرس «حمادي»،

زغردن ترلّ ترلّلا

الثوب من الريز.. ترلّلا

والنقشُ صناعةُ بغداد

* * *

إنها الريح! فاملئي الريح يا جيكور بالضحك أو نثار الورود!

قطّب الصمتُ حيث كانت أغانيك، وحيث العبير نتن الصديد

جاء قرنٌ وراح والمدْن في ضوضاء، ما زلن من حساب النقود،

ضاع صوتُ الضعاف فيها وآهات النبيِّين وابتهال الطريد

واستحال الفضاء - من ضجة الآلات فيها ومن لهاث العبيد -

غير هذا الفضاء: شيئاً لغير الآدميين - ربما للقرود...

ربما للذئاب والدود والأدنى من الدود في الحضيض البليد!

ظلّ ذاك الضجيج كالجيفة الحبلى بما ليس غير عقم الولود،

ثمة التمَّ في كرات من النار... فألقى عليك صمت اللحود!

لا عليك السلام يا عصر «تعبانَ بن عيسى» وهنت بين العهود!

ها هو الآن فحمة تنخر الديدانُ فيها فتلتظي من جديد:

ذلك الكائن الخرافيّ في جيكورَ، «هومير[196]» شعبه المكدود

جالس القرفصاء في شمس آذار وعيناه في بلاط «الرشيد»،

يمضغ التبغ والتواريخ والأحلام، بالشدق والخيال الوئيد

ما تزالُ «البسوسُ» محمومةَ الخيل لديه، وما خبا من «يزيد»

نار عينين ألقتاها على «الشمْر»[197] ظلالاً مذبَّحات الوريد!

كلما لزّ شمرُه الخيل أو عرّى أبو زيده[198] التحام الجنود

شدّ راحاً وأطلق المغزل الدوّار يدحوه للمدار الجديد!

وانتهى من حديثه الضخم عن ضخم من الغزل، وانتهى من قعود

نصفَ عريان يسحب الطرف عن صدرٍ تعرّى وعن قميص فقيد

غير بقيا على فمٍ دقّ حتّى عن فم العنكبوت، في رأس عود:

مغزلٌ ينقض الّذي حاكه النولُ، وجهدٌ أضاع شتّى جهود

فهو كدٌّ وليس بالكدّ، أردى قبله اثنين وادّعى بالمزيد -

حاضرٌ غير حاضر، منه للماضي فناء وللغد الموعود!

لا عليك السلام يا عصر تعبان بن عيسى وهنت بين العهود

أنت أيتمت كلّ روح من الماضي، وسوّدت آلة من حديد

تسكب السمّ واللظى لا حليبَ الأُمّ أو رحمة الأب المفقود

سُلّمٌ في الحضيض أعلاه - مرقاه انخفاضٌ وإن بدا كالصعود

حدَّقت منه في الورى مقلتا «فوكاي» تستشرفان أيام «هود»

والمسيحَ المبيعَ بخساً بما لو بيع لحماً لناء عن تسديد!

حدّقي حيث شئتِ، يا عين فوكاي المدمّاة، من مداك المديد!

فهي سوق تُباع فيها لحومُ الآدميين دون سلخ الجلود:

كلّ أفريقيا وآسيةَ السمراء، ما بين زنجها والهنود

واشترى لحم كلّ من نطق الضاد تجارٌ تبيعه لليهود!

هكذا قد أسفَّ من نفسه الإنسان وانهار كانهيار العمود

فهو يسعى وحلمه الخبز والأسمال والنعل واعتصار النهود!

والذي حارت البرية فيه[199] بالتآويل، كائنٌ ذو نقود!

تمّوز جيكور

نابُ الخنزير يشقّ يدي

ويغوص لظاه إلى كبدي،

ودمي يتدفّق، ينسابُ:

لم يغدُ شقائقَ أو قمحا

لكنْ ملحا.

- «عشتار»... وتخفقُ أثوابُ

وترفّ حيالي أعشابُ

من نعْلٍ يخفق كالبرق

كالبرق الخلبِ ينسابُ.

لو يومض في عِرْقي

نورٌ، فيضيء ليَ الدنيا!

لو أنهض، لو أحيا!

لو أُسقى! آهٍ لو أسقي!

لو أنّ عروقي أعنابُ!

وتقبّل ثغري عشتارُ،

فكأنّ على فمها ظُلمهْ

تنثال عليَّ وتنطبقُ،

فيموت بعينيَّ الألق

أنا والعُتْمه...

* * *

جيكورُ... ستولدُ جيكورُ:

النَّور سيُورق والنُّورُ.

جيكور ستولد من جُرْحي،

من غصّة موتي، من ناري؛

سيفيض البَيْدر بالقمحِ،

والجرْن سيضحك للصبحِ،

والقريةُ داراً عن دارِ

تتماوج أنغاماً حلوَه،

والشيخ ينامُ على الربوه؟

والنخل يوسوس أسراري.

جيكور ستولد... لكنّي

لن أخرجَ فيها من سجْني

في ليل الطين الممدودِ

لن ينبض قلبي كاللّحنِ

في الأوتارِ،

لن يخفقَ فيه سوى الدودِ.

* * *

هيهات.. أتولد جيكورُ

إلّا من خضة ميلادي؟

هيهات.. أينبثقُ النورُ

ودمائي تُظلم في الوادي؟

أيُسَقْسقُ فيها عصفورُ

ولساني كومةُ أعوادِ؟

والحقل، متى يلد القمحا

والوردَ، وجُرحي مفغورُ

وعظامي ناضحةٌ مِلحا؟

لا شيء سوى العدمِ العدمِ،

والموتُ هو الموتُ الباقي.

يا ليلُ أظِلّ مسيلَ دمي

ولتغدُ تراباً أعراقي؟

هيهات.. أتولد جيكور

من حقد الخنزير المتدثّر بالليل

والقُبْلة بُرعمةُ القَتلِ

والغيمةُ رملٌ منثورُ

يا جيكور؟

جَيكور والمدينة

وتلتفُّ حولي دروب المدينه:

حبالاً من الطين يمضغن قلبي

ويعطين، عن جمرةٍ فيه، طينهْ،

حبالاً من النار يجلدْن عُريَ الحقول الحزينه

ويُحْرقن جيكور في قاع روحي

ويزرعن فيها رماد الضغينهْ.

دروبٌ تقول الأساطير عنها

على مَوْقدٍ نام: ما عاد منها

ولا عاد من ضفّة الموت سار،

كأنّ الصدى والسكينهْ

جناحا أبي الهول فيها، جناحان من صخرةٍ في ثراها دفينه.

فمن يفجُر الماءَ منها عيوناً لتُبنى قرانا عليها؟

ومن يرجع الله يوماً إليها؟

* * *

وفي ليل، فردَوْسها المستعادِ،

إذا عرَّش الصخرُ فيها غصونه

ورصَّ المصابيحَ تُفاحَ نار

ومدّ الحوانيتَ أوراقَ تينه،

فمن يُشعل الحبَّ في كلّ درب وفي كلّ مقهى وفي كلّ دار؟

ومن يُرجع المِخلبَ الآدميَّ يداً يمسح الطفلُ فيها جبينه؟

وتخضلُّ من لمسها، من ألوهية القلب فيها، عروق الحجار؟

وبين الضُّحى وانتصافِ النهار:

إذا سبّحت باسم ربِّ المدينه

- بصوت العصافير في سدرة يخلق الله منها قلوب الصغار -

رحى معدنٍ في أكُفِّ التجار

لها ما لأسماك جيكور من لمعةٍ واسمها من معانٍ كثار،

فمن يسمع الروحَ؟ من يبسط الظلّ في لافحٍ من هجير النضار؟

ومن يهتدي في بحار الجليد إليها فلا يستبيحُ السفينه؟

وجيكور، من غلّق الدور فيها - وجاء ابنها يطرق

البابَ - دونه؟

ومن حوَّل الدرب عنها... فمن حيث دارَ اشرأبّت إليه المدينه؟

وجيكور خضراءُ مسَّ الأصيل ذرى النخل فيها

بشمس حزينه.

يمدُّ الكرى لي طريقاً إليها:

من القلب يمتدُّ، عبرَ الدهاليز عبر الدجى والقلاع الحصينه...

وقد نام في بابلَ الراقصون

ونام الحديدُ الّذي يشحذونهْ،

وغشَّى، على أعين الخازنين، لهاثُ النُّضار الّذي يحرسونه:

حصادَ المجاعات في جنتيها.

رحىً من لظى مرَّ دربي عليها،

وكرْمٌ، عساليجُه العاقراتُ شرايينُ تموزَ عبرَ المدينه،

شرايينُ في كلّ دارٍ وسجنٍ ومقهى

وسجنٍ وبارٍ وفي كلّ ملهى

وفي كلّ مستشفيات المجانين...

في كلّ مبغىً لعشتار...

يُطلعنَ أزهارَهنَّ الهجينة:

مصابيحَ لم يُسرج الزيتُ فيها وتمسسْه نار

وفي كلّ مقهى وسجن ومبغى ودار:

«دمي ذلك الماء، هل تشربونه؟

ولحمي هو الخبز، لو تأكلونه!»

وتموز تبكيه لاةُ الحزينه.

* * *

ترفع بالنواح صوتها مع السَحَر

ترفع بالنواح صوتها، كما تنهَّد الشجر

تقول: «يا قطار، يا قدَرْ

قتلتَ - إذ قتلته - الربيع والمطرْ».

وتنشر (الزمان) و(الحوادثُ) الخبرْ[200].

ولاةُ تستغيث بالمضمِّد، الخفر

أن يُرجِع ابنها: يديه، مقلتيه، أيَّما أثرْ!

وترسل النواح: يا سنابل القمَر

دم ابنيَ الزجاجُ في عروقه انفجر..

فكهرباءُ دارنا أصابت الحجَرْ

وصكّه الجدارُ، خضّه، رماه لمحةَ البصرْ

أراد أن يُنير، أن يبدِّد الظلامَ... فاندحرْ»

وتُرسل النواحَ...

ثمّ يصمت الوَتَرْ.

* * *

وجيكور خضراء

مسّ الأصيل

ذرى النخل فيها

بشمسٍ حزينه.

ودربي إليها كومض البروق،

بدا واختفى ثمّ عاد الضياء فأذكاه حتّى أنار المدينه

وعرّى يدي من وراء الضِمّاد كأنّ الجراحات فيها حروق.

وجيكور من دونها قام سورٌ

وبوابةٌ

واحتوتها سكينه.

فمن يخرق السورَ؟ من يفتح البابَ؟ يدمي على كلّ قفل يمينه؟

ويُمناي: لا مخلبٌ للصراع فاسعى بها في دروب المدينه

ولا قبضةٌ لابتعاث الحياة من الطين...

لكنها محضُ طينه.

وجيكور من دونها قام سورٌ

وبوابةٌ

واحتوتها سكينه.

العودة لجيكور

على جواد الحُلْم الأشهبِ

أسريتُ عَبرَ التلالْ

أهرب منها، من ذُراها الطوال،

من سوقها المكتظّ بالبائعين،

من صبحها المتعَبِ

من ليلها النّابح والعابرين،

من نورها الغَيهب،

من ربها المغسول بالخمرِ،

من عارها المخبوء بالزهرِ،

من موتها الساري على النهرِ[201]

يمشي على أمواجه الغافيه.

أوّاه لو يستيقظ الماء فيهْ،

لو كانت العذراء من وارديه،

لو أنّ شمس المغرب الداميه

تبتلُّ في شطّيه أو تُشرقُ،

لو أنّ أغصان الدُّجى تورقُ

أو يُوصَدُ الماخور عن داخليه.

* * *

على جواد الحُلُم الأشهبِ

وتحت شمس المشرق الأخضرِ

في صيف جيكور السخيِّ الثري

اسريت أطوي دربي النائي

بين الندى والزهر والماءِ

أبحث في الآفاق عن كوكبِ[202]

عن مؤلدٍ للروح تحت السماءْ

عن منبعٍ يروي لهيب الظماء

عن منزلٍ للسائح المُتْعبِ

* * *

جيكور، جيكور: أين الخبزُ والماءُ؟

الليل وافى وقد نام الأدلّاءُ؟

والركبُ سهرانُ من جوعٍ ومن عطشٍ

والريح صرٌّ، وكل الأفق أصداءُ.

بيداءُ ما في مداها ما يبين به

دربٌ لنا وسماء الليل عمياءُ

جيكور مدِّي لنا باباً فندخلَه

أو سامرينا بنجم فيه أضواءُ!

* * *

من الّذي يسمع أشعاري؟

فإنّ صمْت الموت في داري

والليلَ في ناري.

من الّذي يحمل عِبءَ الصليبْ

في ذلك الليل الطويل الرهيب؟

من الّذي يبكي ومن يستجيب

للجائع العاري؟

من يُنزل المصلوبَ عن لَوحِهِ؟

من يطرد العقبان عن جرحهِ؟

من يرفع الظلماء عن صبحهِ؟

ويُبدل الأشواكَ بالغارِ[203]؟

أواه يا جيكور لو تسمعينْ!

أواه يا جيكور... لو توجَدين!

لو تنجبين الروح، لو تُجهضين

كي يُبصر الساري

نجماً يضيء الليلَ للتائهين.

* * *

نَزْعٌ ولا مَوْتُ،

نُطْقٌ ولا صوتُ،

طَلْقٌ ولا ميلاد.

من يصلب الشاعرَ في بغداد؟

من يشتري كفّيه أو مُقْلتيه؟

من يجعل الإكليلَ شَوْكاً عليه؟

جيكور يا جيكورْ

شدَّت خيوطُ النور

أرجوحةَ الصُّبْحِ.

فأولمي للطيور

والنملِ من جُرْحي.

* * *

هذا طعامي أيّها الجائعون

هذي دموعي أيها البائسون

هذا دعائي أيها العابدون:

أن يقذف البركانُ نيرانَهُ،

أن يُرسل الفراتُ طوفانَهُ،

كي تُشرق الظُلْمَه،

كي نعرف الرحمه؛

جيكور يا جيكور

شدّت خيوط النور

أرجوحة الصبحِ

فأولمي للطيور

والنملِ من جُرْحي!

* * *

هذا حرائي[204] حاكت العنكبوتْ

خيطاً إلى بابهِ

يهدي إليّ الناس، إني أموت

والنور في غابهِ

يُلقي دنانير الزمان البخيلْ

من شرفةٍ في سعفات النخيل.

جيكور، يا جيكور: خلٌّ وماءْ

ينساب من قلبي،

من جُرحيَ الواري،

من كلّ أغواري.

أوَّاه يا شعبي...

جيكور، يا جيكور هل تسمعينْ؟

فلتفتحي الأبواب للفاتحين

ولتجمعي أطفالك اللاعبين

في ساحة القرية. هذا العشاءْ.

هذا حصاد السنين:

الماء خمرٌ، والخوابي غذاء[205]

هذا ربيع الوباء.

* * *

أقوى من الأسوار هذا الجوادْ

«أقوى جوادُ الحُلُمِ الأشهبُ»

لانَ الحديدُ المغتذي بالحداد

وانخذل الموكبُ.

جيكور، ماضيكِ عاد.

....

هذا صياحُ الديك: ذاب الرقاد

وعدتُ من معراجيَ الأكبرِ:

الشمس أمُّ السنبل الأخضرِ

خلف المباني، رغيفْ

لكنها في الرصيف

أغلى من الجوهرِ.

والحُبُّ: «هل تسمعين

هذا الهتافَ العنيف؟

ماذا علينا؟ إنّ عبد اللطيف[206]

يدري بأنّا... ما الّذي تحذرين؟

وانخطفتْ روحي، وصاح القطارْ

ورقرقت في مقلتيَّ الدموعْ

سحابةً تحملني، ثمّ سار.

يا شمس أيامي، أما من رجوع؟

....

جيكور، نامي في ظلام السنين.

رؤيا في عام 1956 [207]

1

حطّت الرؤيا على عينيَّ صقراً من لهيبْ:

إنّها تنقضّ، تجتثُّ السواد

تقطع الأعصاب تمتص القذى من كلّ

جفنٍ، فالمغيبْ

عاد منها توأماً للصبح - أنهار المدادْ

ليس تطفي غُلّه الرؤيا: صحارى من نحيب

من جحورٍ تلفظ الأشلاء، هل جاء المعادْ؟

أهْو بعثٌ، أهْو موتٌ، أهْي نار أم رماد؟

أيها الصّقر الإلهيّ الغريبْ

أيها المنقضُّ من أولمبَ في صمتِ المساءْ

رافعاً روحي لأطباق السماء

رافعاً روحي - غنيميدا[208] جريحا،

صالباً عينيّ - تموزاً، مسيحا،

أيها الصقر الإلهيّ ترفَّقْ

إنّ روحي تتمزّق،

إنها عادت هشيماً يوم أن أمسيت ريحا.

في غيمة الرؤيا

يومٌ بلا ميعاد

جنكيز هل يحيا

جنكيز في بغداد؟

عينٌ بلا أجفانْ

تمتدّ من روحي

شدقٌ بلا أسنانْ

ينداح في الريحِ

يعوي: أنا الإنسانْ

2

يا جواداً راكضاً يعدو على جسمي الطريح

يا جواداً ساحقاً عينيّ بالصخر السنابك

رابطاً بالأربع الأرجل قلبي

فإذا بالنبض نقرٌ للدرابكْ

وإذا بالنار دربي.

سحَّت الرؤيا ضياء من لظاها

صابغاً ما تبصر العين القريحْ

مازجاً بالشيء ظلّهْ

خالطاً فيها يهوذا بالمسيح،

مدخلاً في اليوم ليله

بانياً في عروة المهد الضَّريح

الدماء

الدماء

الدماء

وحّدت بالمجرمين الأبرياء،

نصبت في شدْقي الذئبة كرْسيَّ القضاء،

ماذا جنى شعبي؟

حلّت به اللعنهْ

من زاده المحنه،

رحماك يا ربي.

من مائه الديدانْ

من لبسه الأكفان

من طيره الغربانْ

ينقرن في قلبي.

واليوم في بيدري

لم يبقَ من حبّي

شيءٌ - هنا حبّتان

فأمطري أمطري

وإن يكن نيرانْ.

وأثمري أثمري

وإن يكن ثعبان.

3

ما الّذي يبدو على الأشجار حولي من ظلال؟

منجلٌ يجتثّ أعراق الدوالي

قاطعاً أعراق تموز الدفينه.

وعلى القنب أشلاءٌ حزينهْ:

رأس طفلٍ سابح في دمهِ

نهد أُمٍّ تنقر الديدان فيه، في سكينه،

أي آهٍ من دمٍ في فمه؟

ما الّذي ينطف من حلمته، من لحمهِ؟

يا حبال القنبِ التقّي كحيّات السعيرِ

واخنقي روحي وخلّي الطفل والأمّ الحزينه؟

يا حبالاً تسحب الموتى إلى قبرٍ كبير

- جفنةٍ قد هيّأوها للوليمهْ -

يا حبالاً تسحب الأحياء - من شيخٍ كبير؛

من فتاةٍ أو عجوزٍ، من ضلوعٍ حطّموها

علّقت فيها تميمه،

من صدورٍ مزّقوها،

زرعوا فيها بذوراً من رصاصٍ، من حديد.

ما الّذي تثمر هاتيك البذور

غير أحجار القبور؟

غير تفاح الصديدْ؟

4

تموز هذا، أتيس[209]

هذا، وهذا الربيع.

يا خبزنا يا أتيس:

أنبتْ لنا الحب وأحيِ اليبيس.

إلتأم الحفل وجاء الجميع

يقدّمون النذورْ،

يحيون كلّ الطقوسْ

ويبذرون البذورْ

سيقان كلّ الشجرْ

ضارعة، والنفوس

عطشى تريد المطر

شدّوا على كلّ ساق

يا ربّ، تمثالكْ

فلتسقِ كلّ العراقْ

فلتسقِ فلاحيك، عمالك

شدّوا على كلّ ساق

أواه، ما شدّوا؟

أوَّاه، ما سمّروا؟

أغصان زيتوننا أثقلها الوردُ

ورد الدم، الأحمرِ.

شدوا على كلّ ساقْ

يا رب تمثالكْ

فاسمعْ صلاة الرفاق

ولترع فلاحيك، عمالك

تمثالك البعلُ

تمثالك الطفل

تمثالك العذراءْ

تمثالك الجانون والأبرياء

تمثالك الأمّ الشماليه،

لأنها ليست شيوعيه

يُقطع نهداها

تُسمل عيناها،

تُصلب صلباً فوق زيتونه،

تهزها الريح الجنوبيهْ.

تمثالك الآلاف، مجنونه

من رعبها، تمثالك الأحمرُ

كأنه الشقيق[210] إذ يُزهرُ

5

عشتار [211] على ساق الشَّجره

صلبوها، دقّوا مسمارا

في بيت الميلاد - الرّحِمِ.

عشتار بحفصةَ[212] مستتره

تدعى لتسوق الأمطارا

تدعى لتُساقَ إلى العدمِ.

عشتار العذراء الشقراء مسيل دمِ

صلّوا... هذا طقسُ المطرِ

صلّوا... هذا عصر الحجر

صلّوا، بل أصلوها نارا.

تموز تجسَّد مسمارا

من حفصةَ يخرج والشجره.

النهد الأعذَرُ فاض ليطعم كلّ فمِ

خبزَ الألمِ.

«الأقّةُ»، صاح القصّابُ،

«من هذا اللحم بفلسينِ»،

اقطعْ من لحم النهدينِ

اللحمُ لنا، والأثوابُ -

ستكون لمسح السكّينه

من آثار دم الأطفالِ

من آثار دم المسكينه

فلتحيَ زنود العمال.

في قلبي دمدم زلزالُ

فجنائن بابل تندثرُ،

في قلبي يصرخ أطفالُ،

في قلبي يختنق القمر.

الظلمة تعبس في قلبي

والجوّ رصاصْ

والريح تهبُّ على شعبي

والريح رصاص

أواه لقد هجم التتر

فالصبح رصاص

والليل رصاص.

6

أسمع في كركوك والموصل[213]

أسمع في كركوك هذا النداء

هذا حصاد الموسم المقبل

نار واشلاء ومجرى دماء:

«نحن رعايا اتيس

نحن مواليه

جئناه يوم الخميس

نرجو اياديه.

على هدير الرصاص

تعلو أغانينا

هذا أوان القصاص

فيا أعادينا

جئنا، فأين الخلاص

جئنا نؤدي طقسه الدامي

من بعد أعوام واعوام

كان الأسى فيها وخبز الشقاء

زادا لنا، والدمع يروينا

نفصد، لا أعراقنا، انما

نفصد أعراق المصلينا،

ننحر، لا اطفالنا، انما

أطفال كركوك قرابينا.»

7

الرؤيا تلمح كالقلعِ

في بحر يُزبد غضبانا،

طوراً للأغوار وأحيانا

يعلو فنراه، وفي سمعي

أصداء تصمت أو تعلو،

وبياني يغمض أو يجلو:

* * *

أي حشد من وجوهٍ كالحات،

من أكفٍّ كالتراب

نبتها الآجرَ والفولاذ كالأرض اليباب؟

أي حشدٍ من ذئاب؟

يطعمون الجو ريح المعملِ؟

أي نعشٍ، أي شكوى، أي دمعٍ من نساء ثاكلات؟

أي جمعٍ من عذارى نادبات

أي موتٍ مثكلِ

يا لعشتاراتِنا يبكينَ تموز القتيل.

* * *

ألِعازَرُ قام من النعشِ -

شخنوب[214] العازر قد بعثا

حيّاً، يتقافز أو يمشي.

كم ظلّ هناكَ وكم مكثا.

أترى عاماً أم عامين؟

أم دامت ميتته ساعه؟

شخنوب العامل، من راعه؟

فتنكر للدينارين

وتواثب يركض مذعورا؟

الموت الزائف خاتمةٌ

لحياة زائفةٍ مثلهْ،

والبعث الزائف عاقبةٌ

للموت الزائف من قبلهْ.

8

ولقّني الظلام في المساءْ

فامتصت الدماء

صحراءُ نومي تُنبت الزهَرْ؛

فإنما الدماء

توائم المطر.

قارئ الدّم

أنا أيّها الطاغوت مقتحم الرِّتاج على الغيوبْ

أبصرتُ يومك وهو يأزف

هذه سحب الغروب

يتوهّج الدم في حفافيها وتنثر في الدروب

شفقَ البنفسج والورود ولونَ أردية الضحايا

فتشعّ أعمدةٌ عوابسُ، والرصيف من الصبايا

والنسوةِ المتهامسات كحقل قمح، والسطوح

كأنّ بابل أودعتها من جنائنها بقايا

لو أنّ غرساً كان من بشر، وأسمع من يصيح

«هوذا يساق إلى الحساب» كأن أعراق المغيب

قُطعت فصاح، كأنّ صوتاً من لظى حملته ريح

من كلّ أودية الجحيم - هواه... -!

* * *

إني شهدت سواك ينسفه اختناقٌ للصدورِ

بغيظها، وسمعت قفقفة الضحايا في القبورِ

ودمَ الحوامل وهو تشربه الأجنَّة في دجاها

فسمعت وقع خطاك خائرةً تجر إلى السعيرِ

حطام جسمك، والسعير مدى تراها

تحتز من قصبات صدرك ثأرَ كلّ دم العصور؛

إني أكلت مع الضحايا في صحاف من دماء،

وشربت ما ترك الفم المسلول منه على الوعاء،

وشممتُ ما سلخ الجُذام من الجلود على ردائي

ونشقت ماء جوارب السجناء في نفَس الهواء

فشممت فيه دخان دارك واحتراقَ بنيك فيها

وشواء لحم بنيك، لولا أنّ شيمة محرقيها

ألا يذوق الأبرياء جزاء غير الأبرياء

إني شببت مع الجياع، مع الملايين الفقيره

فعرفت أسراراً كثيره:

كلّ اختلاجات القلوب وكل ألوان الدعاء:

إغضاءة المقل الضريرهْ

يتطلع الدم في ظلام جفونهنّ إلى الضياء،

والحاملات نذورَهن إلى قبور الأولياء

الموقدات شموعَهنَّ تلق ألسنها الكثيره

كِسَرَ الرغيف ويعتصرن دم الثّديِّ إلى الدماء

وتأوُّه المستنقعات وزفة البرديّ فيها

وطنين أجنحة البعوض كأن غرقى ساكنيها

يتنفسون من القرار ويضرعون إلى السماءِ

أن ينجوَ الأطفالُ من غرق وحمّى في الهواء

وملالة الأكواخ تشرب كلّ أمطار الشتاءِ

حتّى تغصَّ بها فللقصب النقيع بكل ماء

شهقات محتضَرٍ يُغرّ وإن تقيأ بالدواءِ،

وتنهد الأشجار عطشى يابساتٍ في الظهيره

تتكسر الورقات فيها والمناقير الصغيره،

فكأن مقبرة الهجيره

تمتصُّ من رحم الحياة لتسقيَ الموتى عصيره.

* * *

أنا قارئ الدم لا تراه وأنت أنت المستبيحُ،

أفلست تجرؤ أن تحدِّق فيه علّك تستريحُ

من ازديار دمٍ تُذرّ على جفونك منه نار

لزجٍ يسلُّ مع الرقاد كأن بؤبؤك الذبيح

قابيل حدَّق في دماء أخيه أمسِ.

وأنت يأخذك الدوار

من رؤية الدم وهو ينزف ثمّ يركد فالغبار

من تحته كفم الرضيع له اختلاج وافترار

أتخاف أن تطأ النبوءةُ مقلتيك «هو الدمار»

أتخاف منها أن تفرّ كأن سرب قطا يثارُ

فأنت من هلع تخضّ إلى المشاش «هو الدمار»

إني خبرت الجوع يعصر من دمي ويمصّ مائي

وعرفت ما قلق الطريد يكاد كلّ فم ورائي

يعوي بـ«ها هوذا» وتوشك كلّ عين ألتقيها

أن يومض اسمي في قرارتها وجهلي بالدروبِ

ولست أسأل عابريها عن بعيد عن قريب

من منتهاها واكتئابي والحنين مع الغروب

وتوقع المتعقبين خطاي أحسب في صداها

وقع الخطى وأكاد ألتفت التفاتة مُستريبِ

ألّا تشدّ يدٌ على كتفي، وأُوشك أن أراها.

أعرفتَ ذاك؟ فسوف تعرف منه دنيا في مداها

تصطفّ أعمدةٌ عوابسُ ثمّ تسمع من يصيحُ

«هوذا يساق إلى الحساب» كأنما اطّرحت رداها

جثثُ القبور، كأنّ صوتاً من لظى حملته ريح

من كلّ اودية الجحيم: هوا...ه!

ثعلبُ الموت

كم يُمِضُّ الفؤادَ أن يُصبح الإنسان صَيْداً لرميةِ الصيّاد؟

مثل أيِّ الظّباء، أيِّ العصافير، ضعيفا

قابعاً في ارتعادة الخوف، يختضُّ ارتياعاً، لأنّ ظلّاً مخيفا

يرتمي ثمّ يرتمي في اتّئادِ.

ثعلبُ الموت، فارسُ الموت، عزرائيل يدنو ويشحذ

النَّصْلَ. آهِ

منه آهٍ، يصكُّ أسنانه الجوعى ويرنو مهدِّداً. يا إلهي

ليت أنّ الحياة كانت فناء

قبل هذا الفناء، هذي النهايهْ،

ليت هذا الختامَ كان ابتداء.

واعذاباه، إذ ترى أعْينُ الأطفالِ هذا المهدِّدَ المستبيحا،

صابغاً بالدماء كفّيْه، في عينيْه نارٌ وبين فكّيْه نارُ.

كم تلوَّتْ أكفُّهم واستجاروا،

وهو يدنو... كأنّه احتثّ ريحا،

مستبيحا،

مستبيحا، مهدِّداً، مستبيحا.

مَنْ رآها، دجاجةَ الريف، إذ يُمسي عليها المساءُ في بستانِهْ؟

حين ينسلُّ نحوها الثعلب الفرّاس، يا للصريف من أسنانِه!

وهي تختضُّ، شلّها الرعبُ، أبقاها بحيثُ الردى -

كأنّ الدروبا...

... استلّها ماردٌ، كأنْ النيوبا

سورُ بغداد موصد الباب، لا منجى لديه ولا خلاصٌ يُنال.

هكذا نحن، حينما يُقبل الصيّادُ عزريل:

رجفةٌ فاغتيالُ.

المبغى[215]

بغداد[216]؟ مبغىً كبيرْ

(لواحظ المغنِّيه

كساعةٍ تتكُّ في الجدارْ

في غرفة الجلوس في محطّة القطارْ)

يا جثةً على الثرى مستلقيَهْ

الدود فيها موجةٌ من اللهيب والحريرْ.

* * *

بغداد كابوسٌ: (ردى فاسد

يجرعه الراقدُ

ساعاته الأيام، أيّامه الأعوام، والعام نيرْ:

العامُ جرْحٌ ناغرٌ في الضمير)

* * *

عيون المها بين الرصافة والجسْرِ

ثقوب رَصاصٍ رقّشتْ صفحة البدرِ؛

ويسكب البدر على بغداد

من ثُقْبي العينين شلّالاً من الرمادْ:

الدور دارٌ واحده،

وتُعصر الدروب، كالخيوط، كلّها

في قبضةٍ مارده

تمطُّها، تشلُّها،

تُحيلها درْباً إلى الهجيرْ.

وأوجه الحسان كلُّهنَّ وجه «ناهده»

(حبيبتي الّتي لُعابها عَسَلْ،

صغيرتي الّتي أردافُها جبل

وصدرُها قُلل).

* * *

ونحن في بغداد؟ من طينِ

يعجنه الخزّافُ تمثالا،

دنيا كأحلام المجانينِ

ونحن ألوانٌ على لجّها المرتجِّ أشلاءً وأوصالا

* * *

بالأمس كان العيد، عيد الزهورْ:

الزادُ تحثوه الربى، والخمور،

والرقص، والأغنيات

والحب، والكركرات.

ثمّ انتهى إلّا بقايا طيور

تلتقط الحَبّ، وإلّا دماء

ممّا نماه الحقلُ ـ طيرٌ وشاء ـ

وغير أطفال يطوفون أُور:

ـ العيدُ، من قال انتهى عيدُنا؟

فلتملأ الدنيا أناشيدُنا

فالأرض ما زالت بعيدٍ تدور..

بالأمس كان العيد، عيد الزهور،

واليوم؟ ما نفعلُ؟

نزرعُ أم نقتلُ؟

* * *

أهذه بغداد؟

أم أنّ عاموره

عادتْ فكان المعادْ

موتاً؟ ولكنني في رنّة الأصفادْ

أحسَسْتُ.. ماذا؟ صوتَ ناعوره

أم صيحةَ النُّسْغ الّذي في الجذورْ؟

النهر والموت

بُوَيْب...

بُوَيْبْ...

أجراسُ بُرجٍ ضاع في قرارة البَحَرْ.

الماء في الجرار، والغروبُ في الشَّجَر

وتنضحُ الجرارُ أجراساً من المطرْ

بلُّورُها يذوب في أنينْ

«بُوَيْبُ... يا بُوَيبْ!»،

فيَدْلَهِمُّ في دمي حنينْ

إلَيْكَ يا بُوَيْب،

يا نهريَ الحزينَ كالمطرْ.

أودُّ لو عدوْتُ في الظلامْ

أشدُّ قبْضتيَّ تحملان شوْقَ عام

في كلّ إصبَعٍ، كأني أحملُ النّذورْ

إليكَ، من قمحٍ ومن زهور.

أودُّ لو أُطلُّ من أسرّةِ التلال

لألمحَ القَمَرْ

يخوض بينَ ضفّتيكَ، يزرع الظلالْ

ويملأ السِّلال

بالماء والأسماكِ والزَّهرْ.

أودُّ لو أخوض فيكَ، أتبعُ القمرْ

وأسمعُ الحصى يصلُّ منك في القرار

صليلَ آلاف العصافير على الشجر.

أغابةٌ من الدموعِ أنت أم نَهَرْ؟

والسَّمكُ الساهرُ، هل ينام في السَّحَرْ؟

وهذه النجوم، هل تظلُّ في انتظارْ.

تُطْعِمُ بالحرير آلافاً من الإبَرْ؟

وأنتَ يا بُوَيْب...

أودُّ لو غرقتُ فيك، ألقِطُ المحارْ

أشيدُ منه دارْ

يُضيءُ فيها خُضْرةَ المياهِ والشَّجرْ

ما تنضحُ النجومُ والقمر،

وأغتدي فيكَ مع الجَزْرِ إلى البحَرْ!

فالموت عالمٌ غريبٌ يفتنُ الصّغار،

وبابُه الخفيُّ كان فيكَ، يا بُويبْ...

* * *

بوَيبُ... يا بُويبْ،

عشرون قد مضيْن، كالدُّهور كلُّ عام.

واليوم، حين يُطبقُ الظلامْ

وأستقِرُّ في السرير دون أن أنام

وأُرهفُ الضميرَ: دوحةً إلى السَّحَرْ

مرهفة الغصونِ والطيور والثمرْ -

أُحسُّ بالدِّماء والدموع، كالمطرْ

ينضَحُهُنَّ العالمُ الحزينْ:

أجراس موتى في عروقي تُرعشُ الرنينْ،

فيدلهمُّ في دمي حنين

إلى رصاصةٍ يشق ثلجُها الزُّؤامْ

أعماقَ صدري، كالجحيم يُشعِل العظام.

أودُّ لو عدوتُ أعضد المكافحين

أشدُّ قبضتيَّ ثمّ أصفعُ القدَرْ.

أودُّ لو غرقتُ في دمي إلى القرار،

لأحملَ العبْءَ، مع البشرْ

وأبعثَ الحياة. إنّ موتي انتصار!

المسيح بعد الصّلب

بعدما أنزلوني، سمعتُ الرياحْ

في نواحٍ طويلٍ تسفُّ النخيلْ،

والخطى وهي تنأى. إذن فالجراحْ

والصليبُ الّذي سمّروني عليه طوال الأصيلْ

لم تُمِتْني. وأنصتُّ: كان العويلْ

يعبر السهلَ بيني وبين المدينه

مثل حبل يشدّ السفينه

وهي تهوي إلى القاع. كان النواح

مثلَ خيط من النور بين الصباح

والدجى، في سماء الشتاء الحزينهْ.

ثمّ تغفو، على ما تُحسُّ، المدينه.

* * *

حينما يُزهر التوتُ والبرتقالُ،

حين تمتدُّ «جَيْكورُ» حتّى حدودِ الخيال،

حين تخضرُّ عشباً يغنّي شذاها

والشموسَ الّتي أرضعتها سناها،

حين يخضرُّ حتّى دجاها،

يلمس الدفءُ قلبي، فيجري دمي في ثراها.

قلبيَ الشمسُ إذْ تنبضُ الشمس نورا،

قلبيَ الأرض، تنبض قمحاً، وزهراً، وماءً نميرا،

قلبيَ الماء، قلبي هو السنبلُ

مَوته البعثُ: يحيا بمن يأكلُ.

في العجين الّذي يستدير

ويُدحى كنهدٍ صغير، كثَدي الحياه،

متُّ بالنار: أحرقت ظلماء طيني، فظلّ الإله.

كنتُ بدءاً وفي البدء كان الفقيرْ.

متُّ، كي يؤكل الخبز باسمي، لكي يزرعوني مع الموسمِ،

كما حياةٍ سأحيا: ففي كلّ حفره

صرتُ مستقبلاً، صرت بذرهْ،

صرتُ جيلاً من الناس: في كلّ قلبٍ دمي

قطرةٌ منه أو بعض قطره.

* * *

هكذا عدتُ، فاصفرَّ لما رآني يهوذا...

فقد كنت سِرَّهْ.

كانَ ظلّاً، قد اسودَّ، منّي، وتمثال فكرهْ

جُمِّدتْ فيه واستُلّتِ الروحُ منها،

خاف أن تفضح الموت في ماء عينيه...

(عيناه صخره

راح فيها يُواري عن الناس قَبرَه)

خاف من دفئها، من محالٍ عليه، فخبَّر عنها.

- «أنتَ! أم ذاك ظلي قد ابيضَّ وارفضَّ نورا؟

أنت من عالم الموت تسعى! هو الموتُ مرَّه.

هكذا قال آباؤنا، هكذا علمونا فهل كان زورا؟»

ذاك ما ظنَّ لما رآني، وقالته نظرهْ.

* * *

قدمٌ تعدو، قدمٌ، قدمُ

القبر يكاد بوقْع خطاها ينهدمُ.

أترى جاءوا؟ من غيرُهُمُ؟

قدمٌ... قدمٌ... قدمُ

ألقيتُ الصخر على صدري،

أوَ ما صلبوني أمسِ؟.. فها أنا في قبري.

فليأتوا - إنّي في قبري.

من يدري أنّي..؟ مَن يدري؟؟

ورفاق يهوذا؟! من سيصدِّق ما زعموا؟

قدَمٌ... قدمُ.

ها أنا الآن عريانُ في قبريَ المظلمِ:

كنتُ بالأمس ألتفُّ كالظنِّ، كالبرْعم،

تحت أكفانيَ الثلجِ، يخضلُّ زهرُ الدمِ،

كنتُ كالظلِّ بين الدجى والنهارْ -

ثمّ فجَّرتُ نفسي كنوزاً فعرَّيتها كالثمار.

حين فصَّلْتُ جيبي قماطاً وكمّي دثار،

حين دفّأتُ يوماً بلحمي عظامَ الصغار،

حين عرَّيْتُ جرحي، وضمَّدتُ جرحاً سواه،

حُطِّمَ السورُ بيني وبين الإلهْ.

* * *

فاجأ الجندُ حتّى جراحي ودقاتِ قلبي

فاجأوا كلّ ما ليس موتاً وإن كان في مقبرهْ

فاجأوني كما فاجأ النخلةَ المثمرهْ

سربُ جَوْعى من الطير في قريةٍ مقفره.

* * *

أعينُ البندقيات يأكلْنَ دربي،

شُرَّعٌ تحلم النارُ فيها بصلبي،

إنْ تكن من حديدٍ ونارٍ، فأحداقُ شعبي

من ضياء السماوات، من ذكرياتٍ وحُبِّ

تحمل العبءَ عني فيندى صليبي، فما أصغرهْ

ذلك الموتُ، موتي، وما أكبرهْ!

* * *

بعد أن سمَّروني وألقيتُ عينيَّ نحو المدينه

كدتُ لا أعرف السهلَ والسور والمقبره:

كان شيءٌ، مدى ما ترى العينُ،

كالغابة المزْهره،

كان، في كلّ مرمى، صليبٌ وأمٌّ حزينه.

قُدِّس الربُّ!

هذا مخاضُ المدينه.

مدينةُ السندباد

جوعانُ في القبر بلا غذاءْ

عُريان في الثلج بلا رداء

صرختُ في الشتاء:

أقِضّ يا مطرْ

مضاجعَ العظام والثلوج والهباءْ،

مضاجعَ الحَجَرْ،

وأنبتِ البذورَ، ولتفتّحِ الزّهرْ،

وأحرق البيادرَ العقيمَ بالبروقْ

وفجِّر العروقْ

وأثقلِ الشجرْ.

وجئتَ يا مطرْ،

تفجَّرَتْ تنثُّك السماءُ والغيومْ

وشُقِّق الصخَر،

وفاض؛ من هباتِك، الفراتُ واعتكرْ

وهبَّتِ القبورُ، هُزَّ موتها وقامْ

وصاحتِ العظام:

تبارك الإلهُ، واهبُ الدَّمِ المطرْ.

فآهٍ يا مطرْ!

نودُّ لو ننامُ من جديد،

نودُّ لو نموت من جديد،

فنومنا براعِمُ انتباه

ومَوتنا يخبِّئ الحياه؛

نودُّ لو أعادنا الإله

إلى ضمير غيبه المُلبّد العميق؛

نودُّ لو سعى بنا الطريق

إلى الوراءِ، حيث بدْؤه البعيد.

مَنْ أيقظَ «العازرَ» من رقاده الطويلْ؟

ليعرف الصباحَ والأصيلْ

والصيفَ والشتاءْ،

لكي يجوع أو يُحسَّ جمرةَ الصدى،

ويحذرَ الردى،

ويحسب الدقائق الثِّقال والسِّراعْ

ويمدح الرعاع

ويسفك الدماء!

من الّذي أعادنا، أعاد ما نخاف؟

من الإله في ربوعنا؟

تعيش نارُه على شموعنا

يعيش حقده على دموعنا

* * *

أهذا أدونيس، هذا الخواءْ؟

وهذا الشحوبُ، وهذا الجفافْ؟

أهذا أدونيس؟ أين الضياءْ؟

وأين القطافْ؟

مناجلُ لا تحصدُ،

أزاهرُ لا تَعقدُ،

مزارعُ سوداءُ من غير ماءْ!

أهذا انتظار السنين الطويله؟

أهذا صراخ الرجوله؟

أهذا أنينُ النساء؟

أدونيس! يا لانحدار البطوله.

لقد حطّم الموتُ فيك الرجاءْ

وأقبلتَ بالنظرة الزائغه

وبالقبضة الفارغه:

بقبضةٍ تهدِّدُ

ومنجل، لا يحصدُ

سوى العظام والدمِ.

اليومَ، والغدُ؟

متى سيولدُ؟

متى سنُولدُ؟

* * *

الموتُ في الشوارعِ،

والعقم في المزارعِ،

وكلُّ ما نحبّه يموتْ.

الماء قيَّدوه في البيوتْ

وألهثَ الجداولَ الجفافْ.

هُمُ التتارُ أقبلوا، ففي المدى رُعافْ،

وشمسنا دمٌ، وزادُنا دمٌ على الصِّحاف.

محمّدُ اليتيمُ أحرقوه فالمساءْ

يضيءُ من حريقه، وفارتِ الدماءْ

من قدميه، من يديه، من عيونِه

وأُحرق الإله في جفونِه.

محمَّد النبيُّ في «حِراءَ» قيَّدوه

فسُمِّر النهارُ حيث سمّروه.

غداً سيُصلب المسيحُ في العراقْ،

ستأكل الكلابُ من دم البراقْ[217]

* * *

يا أيها الربيع

يا أيها الربيعُ ما الّذي دهاكْ؟

جئتَ بلا مطرْ

جئتَ بلا زَهَرْ،

جئتَ بلا ثمرْ،

وكان منتهاكَ مثل مبتداكْ

يلفُّه النجيع...

وأقبل الصيفُ علينا أسودَ الغيومْ

نهاره هموم،

وليله نسهر فيه نحسب النجوم؟

حتّى إذا السنابلُ

نضجْنَ للحصادْ

وغنّت المناجلُ

وغطّت البيادرُ الوهادْ،

خُيِّل للجياعِ أنّ ربَّة الزَّهرْ،

عُشتار، قد أعادت الأسير للبشر،

وكلّلت جبينه الغضيرَ بالثمَر،

خُيِّل للجياع أنّ كاهل المسيحْ

أزاح عن مدفنه الحجَر

فسار يبعث الحياة في الضَّريحْ

ويُبرئُ الأبرصَ أو يجدِّد البصر؟

من الّذي أطلق من عقالها الذئاب؟

من الّذي سقى من السَّراب؟

وخبّأ الوباءَ في المطرْ؟

الموتُ في البيوت يُولَدُ،

يولد قابيلُ لكي ينتزعَ الحياه

من رَحِم الأرض ومن منابع المياه،

فيُظلم الغدُ

وتُجهض النساء في المجازرِ،

ويرقص اللهيب في البيادر،

ويهلك المسيحُ قبل العازرِ؛

دعوه يرقدُ،

دعوه فالمسيح ما دعاه!

ما تبتغون! لحمه المقدَّدُ

يُباع في مدينة الخُطاه،

مدينة الحبال والدماء والخمور،

مدينة الرصاص والصخور!

أمس أُزيح من مداها فارس النُّحاس،

أمس أزيح فارسُ الحجر،

فران في سمائها النعاسْ،

ورنَّق الضجَر،

وجال في الدروب فارسٌ من البشرْ

يقتل النساء

ويصبغ المهودَ بالدماء

ويلعن القضاء والقدر!

* * *

كأنّ بابل القديمة المسوَّرهْ

تعود من جديدْ،

قبابها الطوالُ من حديدْ

يدق فيها جرسٌ كأنّ مقبرهْ

تئن فيه والسماء ساحُ مجزره

جنانها المعلّقات زرعُها الرؤوس

تجزُّها قواطعُ الفؤوس

وتنقر الغربان من عيونها،

وتغرب الشموس

وراء شعرها الخضيب في غصونها.

أهذه مدينتي؟ أهذه الطلول

خُطّ عليها: «عاشت الحياهْ»

من دم قتلاها، فلا إله

فيها، ولا ماءَ، ولا حقول؟

أهذه مدينتي؟ خناجر التتر

تغمد فوق بابها، وتلهث الفلاه

حول دروبها، ولا يزورها القمر؟

أهذه مدينتي أهذه الحُفرْ

وهذه العظامْ؟

يطلُّ من بيوتها الظلام

وتُصبغ الدماء بالقتام

لكي تضيع، لا يراها قاطع الأثر؟

أهذه مدينتي؟ جريحة القباب

فيها يهوذا أحمر الثيابْ

يسلِّط الكلاب

على مهود إخوتي الصغار... والبيوت،

تأكل من لحومهم. وفي القرى تموت

عشتار عطشى، ليس في جبينها زهَرْ،

وفي يديها سلّةٌ ثمارُها حَجَرْ

تُرجَم كلّ زوجة به. وللنخيلْ

في شطّها عويل.

أنشودة المطر[218]

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السحَرْ،

أو شُرفتان راح ينأى عنهما القمر.

عيناك حين تبسمان تورق الكرومْ

وترقص الأضواء... كالأقمار في نَهَرْ

يرجُّه المجذاف وهْناً ساعة السَّحَر

كأنما تنبض في غوريْهما، النُّجومْ...

وتغرقان في ضبابٍ من أسىً شفيفْ

كالبحر سرَّح اليدين فوقه المساء،

دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف،

والموت، والميلاد، والظلام، والضياء؛

فتستفيق ملء روحي، رعشة البكاء

ونشوةٌ وحشيَّةٌ تعانق السماء

كنشوة الطفل إذا خاف من القمر!

كأن أقواس السحاب تشرب الغيومْ

وقطرةً فقطرةً تذوب في المطر...

وكركر الأطفالُ في عرائش الكروم،

ودغدغت صمت العصافير على الشجر

أنشودةُ المطر...

مطر...

مطر...

مطر...

تثاءب المساء والغيومُ ما تزالْ

تسحُّ ما تسحّ من دموعها الثقالْ.

كأنّ طفلاً بات يهذي قبل أن ينام:

بأنّ أمّه - الّتي أفاق منذ عامْ

فلم يجدْها، ثمّ حين لجّ في السؤال

قالوا له: «بعد غدٍ تعودْ...» -

لا بدَّ أن تعودْ

وأن تهامس الرفاق أنّها هناكْ

في جانب التلّ تنام نومة اللّحودْ

تسفّ من ترابها وتشرب المطر؛

كأنّ صياداً حزيناً يجمع الشِّباك

ويلعن المياه والقَدَر

وينثر الغناء حيث يأفل القمرْ.

مطر...

مطر...

أتعلمين أيَّ حزْنٍ يبعث المطر؟

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضّياع؟

بلا انتهاء - كالدَّم المراق، كالجياع،

كالحبّ، كالأطفال، كالموتى - هو المطر!

ومقلتاك بي تطيفان مع المطر

وعبر أمواج الخليج تمسح البروقْ

سواحلَ العراق بالنجوم والمحار،

كأنّها تهمّ بالشروق

فيسحب الليل عليها من دمٍ دثارْ.

أصيح بالخليج: «يا خليجْ

يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والرّدى!»

فيرجعُ الصّدى

كأنّه النشيجْ:

«يا خليج

يا واهب المحار والردى..»

أكاد أسمع العراق يذْخرُ الرعودْ

ويخزن البروق في السّهول والجبالْ،

حتّى إذا ما فضّ عنها ختمها الرّجالْ

لم تترك الرياح من ثمودْ

في الوادِ من أثرْ.

أكاد أسمع النخيل يشربُ المطر

وأسمع القرى تئنّ، والمهاجرين

يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع،

عواصف الخليج، والرعود، منشدين:

«مطر...

مطر...

مطر...

وفي العراق جوعْ

وينثر الغلالَ فيه موسم الحصادْ

لتشبع الغربان والجراد

وتطحن الشّوان والحجر

رحىً تدور في الحقول... حولها بشرْ

مطر...

مطر...

مطر...

وكم ذرفنا ليلة الرحيل، من دموعْ

ثمّ اعتللنا - خوف أن نلامَ - بالمطر...

مطر...

مطر...

ومنذ أنْ كنّا صغاراً، كانت السماء

تغيمُ في الشتاء

ويهطل المطر،

وكلّ عام - حين يعشب الثرى - نجوعْ

ما مرَّ عامٌ والعراق ليس فيه جوعْ.

مطر...

مطر...

مطر...

في كلّ قطرة من المطر

حمراءَ أو صفراء من أجنَّة الزَّهَرْ.

وكلّ دمعةٍ من الجياع والعراة

وكلّ قطرة تراق من دمِ العبيدْ

فهي ابتسامٌ في انتظار مبسم جديد

أو حَلْمةٌ تورَّدتْ على فم الوليدْ

في عالم الغد الفتيّ، واهب الحياة!

مطر...

مطر...

مطر...

سيُعشبُ العراق بالمطر...»

أصيح بالخليج: «يا خليج...

يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والردى!»

فيرجع الصدى

كأنّه النشيج:

«يا خليج

يا واهب المحار والردى».

وينثر الخليج من هِباته الكثارْ،

على الرمال،: رغوه الأُجاجَ، والمحار

وما تبقّى من عظام بائسٍ غريق

من المهاجرين ظلّ يشرب الردى

من لجّة الخليج والقرار،

وفي العراق ألف أفعى تشرب الرَّحيقْ

من زهرة يربُّها الفرات بالنَّدى.

وأسمع الصدى

يرنّ في الخليج: -

«مطر..

مطر...

مطر...

في كلّ قطرة من المطرْ

حمراءَ أو صفراء من أجنَّة الزَّهَرْ.

وكلّ دمعةٍ من الجياع والعراة

وكلّ قطرة تراق من دمِ العبيدْ

فهي ابتسامٌ في انتظار مبسم جديد

أو حَلْمةٌ تورَّدتْ على فم الوليدْ

في عالم الغد الفتيّ، واهب الحياة..».

ويهطل المطر..

سربروس في بابل

ليعوِ سَرْبروسُ[219] في الدروب

في بابلَ الحزينةِ المهدَّمهْ

ويملأ الفضاءَ زمزمهْ،

يمزِّق الصّغار بالنيوب، يقضم العظامْ

ويشرب القلوبْ.

عيناه نَيزكان في الظلامْ

وشدقُه الرهيب موجتان من مُدى

تخبئ الردى.

- أشداقه الرهيبة الثلاثةُ احتراقْ

يؤجُّ في العراقْ -

ليعوِ سَربروس في الدروب

وينبشِ التراب عن إلهنا الدفين

تموزِنا الطعين،

يأكله: يمص عينيه إلى القرارْ،

يقصم صلبه القويَّ، يحطم الجرار

بين يديْهِ، ينثر الورود والشقيقْ.

أواه لو يُفيق

إلهنا الفتيُّ، لو يُبرعمُ الحقولْ،

لو ينثر البيادرَ النُّضارَ في السهول،

لو ينتضي الحُسام، لو يفجر الرعود والبروقَ والمَطرْ

ويطلق السيول من يديه. آه لو يؤوب!

لحافنا التراب، فوقه من القَمَرْ

دمٌ، ومن نهودِ نسوة العراق طينْ.

ونحن إذ نبصُّ من مغاور السنين

نرى العراقَ، يسألُ الصغارُ في قراه:

«ما القمحُ؟ ما الثمرْ؟»

ما الماء؟ ما المهود؟ ما الإله؟ ما البَشَرْ؟

فكلُّ ما نراه

دمٌ ينزُّ أو حبالٌ، فيه، أو حُفَرْ.

أكانت الحياه

أحبَّ أن تُعاشَ، والصغارُ آمنين؟

أكانت الحقولُ تُزهرُ؟

أكانت السماء تُمطر؟

أكانت النساء والرجال مؤمنينْ

بأنّ في السماء قوّةً تدبِّرُ،

تُحِسُّ، تسمع الشكاةَ، تُبصر،

ترقُّ، ترحم الضِّعافَ، تغفر الذنوبْ؟

أكانت القلوبْ

أرقَّ، والنفوسُ بالصفاء تقطرُ؟»

وأقبلتْ إلهة الحصادْ،

رفيقةُ الزهورِ والمياه والطيوبْ،

عُشتارُ ربَّةُ الشمال والجنوبْ،

تسير في السهول والوهادْ

تسير في الدروب

تلقط منها لحم تمُّوزَ إذا انتثرْ،

تلمُّه في سلّةٍ كأنّه الثمر.

لكنّ سربروس بابل - الجحيم

يخبُّ في الدروب خلفها ويركضُ،

يمزِّق النعالَ في أقدامها، يعضعضُ

سيقانَها اللدان، ينهش اليدين أو يمزِّق الرداءْ،

يلوِّث الوشاح بالدمِ القديم

ويمزج الدمَ الجديدَ بالعواءْ.

ليعوِ سربروسُ في الدروبْ

لينهش الإلهة الحزينةَ، الإلهة المروَّعه؛

فإنّ من دمائها ستُخصب الحبوبْ،

سينبت الإلهُ، فالشرائحُ الموزَّعه

تجمَّعتْ؟ تململتْ. سيُولَدُ الضياءْ

من رَحِمٍ ينزُّ بالدماء.

مدينةٌ بلا مطر[220]

مدينتُنا تؤرّق ليلَها نارٌ بلا لَهَبِ.

تُحمُّ دروبها والدُّور، ثمّ تزول حمّاها

ويصبغها الغروبُ بكلّ ما حملتْه من سُحُبِ

فتوشك أن تطيرَ شرارةٌ ويهبَّ موتاها:

«صحا من نومه الطينيِّ تحت عرائش العِنَبِ...

صحا تمّوزُ، عاد لبابلَ الخضراءِ يرعاها».

وتوشك أن تدقَّ طبولُ بابلَ، ثمّ يغشاها

صفيرُ الريح في أبراجها وأنينُ مرضاها.

وفي غرفات عُشْتارِ

تظلّ مجامر الفخّار خاويةً بلا نارِ،

ويرتفع الدعاءُ، كأن كلّ حناجر القَصَبِ

من المستنقعات تصيح:

«لاهثةً من التَعَبِ

تؤوب إلهةُ الدمِ، خُبزُ بابلَ، شمسُ آذارِ.

ونحن نهيم كالغرباء من دارٍ إلى دارِ

لنسألَ عن هداياها

جياعٌ نحن... واأسفاه! فارغتان كفّاها،

وقاسيتان عيناها

وباردتان كالذهب.

سحائبُ مُرْعداتٌ مُبرِقاتٌ دون إمطارِ

قَضَيْنا العامَ، بعد العام، بعد العام، نرعاها،

وريحٌ تشبه الإعصار، لا مرَّت كإعصارِ

ولا هدأتْ - ننام ونستفيقُ ونحن نخشاها.

فيا أربابنا المتطلعين بغَيْر ما رحمه،

عيونكُم الحجار نُحِسُّها تنداح في العتمه

لترجمنا بلا نقمه؛

تدور كأنهنَّ رحىً بطيئاتٌ تلوكُ جفونَنا..

حتّى ألفْناها،

عيونكم الحجار كأنّها لَبِناتُ أسوارِ

بأيدينا، بما لا تفعل الأيدي، بنيناها.

عذارانا حزانى ذاهلاتٌ حول عشْتارِ

يغيض الماء شيئاً بعد شيء من محيَّاها،

وغُصناً بعد غصْنٍ تذبل الكرمه.

بطيءٌ موْتنا المنْسلُّ بين النور والظلمه،

له الويلاتُ من أسد نكابد شَدقه الأدردْ!

أنارُ البرق في عينيه أم من شُعلة المعبد؟

أفي عينيه مبخرتان أوجرتا لعشتار؟

أنافذتان من ملكوت ذاك العالم الأسود:

هنالك حيث يحمل كلّ عامٍ، جُرحَه الناريّ،

جُرحَ العالم الدوّار، فاديهِ

ومنقذه الّذي في كلّ عامٍ من هناك يعود بالأزهارِ

والأمطار - تجرحنا يداه لنستفيقَ على أياديهِ؟

ولكن مرّتِ الأعوام، كثراً ما حسبناها،

بلا مطرٍ... ولو قطرَه

ولا زهرٍ... ولو زهرهْ

بلا ثمرٍ - كأنّ نخيلَنا الجرداء أنصابٌ أقمناها

لنذبل تحتها ونموت.

سيِّدنا جفانا. آهِ يا قَبْرَهْ

أما في قاعك الطينيِّ من جرّه؟

أما فيها بقايا من دماء الربّ، أو بذرهْ؟

حدائقه الصغيرة أمس جعنا فافترسناها:

سرقنا من بيوت النمْل، من أجرانها، دخْناً وشوفانا

وأوشاباً زرعناها

فوقّيْنا - وما وفّى لنا - نَذره!»

وصار صغار بابلَ يحملون سلال صبَّارِ

وفاكهةٍ من الفخَّار، قرباناً لعشتار

ويشعل خاطفُ البرق،

بظلٍّ من ظلال الماء والخضراء والنار،

وجوهَهُم المدوَّرة الصغيرة وهي تستسقي.

فيوشك أن يفتِّح - وهي تومِضُ - حقلُ نوَّارِ

ورفَّ - كأنّ ألف فراشةٍ نُثرتْ على الأفْقِ

نشيدُهم الصغيرُ:

«قبور إخْوتِنا تنادينا

وتبحثُ عنكِ أيدينا

لأنّ الخوفَ ملءُ قلوبنا، ورياحَ آذارِ

تهزُّ مهودنا فنخاف. والأصواتُ تدعونا

جياعٌ نحن مرتجفون في الظُلمه

ونبحث عن يدٍ في الليل تُطعمنا، تغطّينا،

نشدُّ عيوننا المتلفّتات بزندها العاري.

ونبحث عنكِ في الظلماء، عن ثدييْن، عن حَلْمَه

فيا من صدرُها الأفْق الكبير وثديُها الغيْمه

سمعتِ نشيجنا ورأيتِ كيف نموت... فاسْقينا!

نموت، وأنتِ - واأسفاه - قاسيةٌ بلا رحمه.

فيا آباءنا، من يفتدينا؟ من سيُحيينا؟

ومن سيموت: يُولمُ لحمَه فينا؟»

وأبرقت السماءُ كأنّ زنبقة من النارِ

تفتّح فوق بابل نفسَها. وأضاء وادينا،

وغلغلَ في قرارة أرضِنا وَهجٌ فعرّاها

بكلّ بذورها وجذورها وبكلِّ موْتاها

وسحَّ - وراءَ ما رفعتْه بابلُ حول حُمّاها

وحول ترابها الظمآن، من عَمَدٍ وأسوار

سحابٌ.. كان لولا هذه الأسوار روَّاها!

وفي أبَدٍ من الإصغاء بين الرعد والرعدِ

سمعنا، لا حفيفَ النّخل تحت العارض السحّاح

أو ما وشْوشتْه الريحُ حيث ابتلّت الأدواحْ،

ولكنّ خفقةَ الأقدام والأيدي

وكركرةً و«آهَ» صغيرةٍ قبضتْ بيُمناها

على قمَرٍ يرفرفُ كالفراشةِ، أو على نجْمَه..

على هبةٍ من الغيْمه،

على رعشاتِ ماءٍ، قطرة همستْ بها نَسمَه

لنعلم أنّ بابلَ سوف تُغسَل من خطاياها!

بور سعيد[221]

يا حاصدَ النار من أشلاء قتلانا

منكَ الضحايا، وإن كانوا ضحايانا

كم من ردىً في حياةٍ، وانخذالِ ردىً

في ميتةٍ، وانتصارٍ جاء خُذْلانا!

إنّ العيون الّتي طفّأتَ أنجُمَها

عجّلْن بالشمس أن تختار دنيانا

وامتدّ، كالنور، في أعماق تُربتنا،

غرْسٌ لنا من دمٍ، واخضلَّ موتانا

فازَّلْزَلي يا بقايا كاد أوَّلُنا

يبقي عليها، من الأصنام، لولانا

نحن الذين اقتلعنا من أسافِلِها

لاةً وعُزى، وأعليْناهُ إنسانا

حُيِّيتِ بورْتَ سعيدٍ، من مسيلِ دمٍ

لولا افتداءٌ لما يُغليه، ما هانا

حُيّيتِ من قلعةٍ صمّاءَ ناطَحَها

عادٍ من الوحش يُزجيهنَّ قُطعانا

عاناكِ في الليلِ داجٍ من جحافِلِها:

نوراً من الله أعماها ونيرانا

ما عاد ليلٌ قد استخفى بأقنعةٍ

من أوجُهِ الناس، لولا أنتِ، عرْيانا

ليلٌ تُعيذُ الكهوفُ السودُ آنيةً

فيها وفكّاً لموتاها وصَوّانا

من بعضِ ما فيه من ظلماءَ، ما عُرفتْ

باسمٍ لها، فهي قبلَ اسمٍ إذا كانا

حُيّيتِ من قلعةٍ ما آدَ كاهلها

عِبْءُ السماوات إلّا خفَّ إيمانا

أمسكتِها أن يميد الظالمون بها

ديناً لنا وانتصاراتٍ وعُنوانا.

يا مرفأ النور، ما أرجعتِ وادعة

من غير زاد، ولا آويتِ قُرصانا

ولا تلفظتِ من مرساكِ معتدياً

إلّا مدمّى ذليلَ الهام خَزْيانا

جمّعتِ من شطّ صُورٍ لمْحَ أحرُفِها

واخترتِ من بابلٍ واحتزْتِ مروانا

والنيلُ ساقَ العذارى من عرائِسه

للخِصْب، في موكب الفادين قُربانا!

فالويل.. لو كان للعادين ما قَدَروا!

لانْهدَّ من حاضرٍ ماضٍ فأخزانا

فلا ابتنى هرماً بانٍ، ولا لبستْ

تيجانَها، في انتظار الروحِ، موتانا

ولا تفجَّر في «ذي قارَ» فِتْيَتُها

ولا تنفّستِ الصحراءُ قُرآنا!

حُيِّيتِ موتى، وأحياءً، وأبنيةً

مستشهداتٍ أو استعصيْنَ أركانا

والنار والباذرونَ النارَ كم زرعوا

من كلّ ثكلى لعزرائيل بُستانا!

من كلّ وَجهٍ لطفلٍ فيه زنبقةٌ

تَدْمى، وتلتمُّ فيه الرِّيح غِرْبانا

الجوّ مما يلزّون الحديدَ به

قاعُ الجحيم التظى وانصبَّ طوفانا

سقّاكِ من كلّ غيمٍ فيه أحرَزَهُ

جوفُ الثرى واشتهتْه النارُ أزمانا

كأسَ الرَّصاص الّتي غنّى بتوأمها

«سقراطُ» وابتلّ منها جرحُ وهرانا[222]

من أيّما رئةٍ؟ من أي قيثارِ

تنهلُّ أشعاري؟

من غابةِ النارِ؟

أم من عويل الصبايا بين أحجار

منها تنزُّ المياه السودُ واللبن المشويُّ كالقار؟

من أيِّ أحداق طفلٍ فيكِ تُغتصَبُ؟

من أيِّ خبزٍ وماءٍ فيك ما صلبوا؟

من أيِّما شُرْفة؟ من أيّما دار؟

تنهلُّ أشعاري

كالثارِ؟

كالنور في رايات ثوَّار؟

من مائكِ السهران أوتاري؟

أم بُرجكِ الهاري

يبكي دماً من جرح بحَّار؟

أطفالكِ الموتى، على المرفأ

يبكون في الريح الشماليَّة،

والنور من مصباحه المطفأ

قد غار كالمديهْ

في صدريَ العاري.

أطفالك الأموات عارُ الحديدْ

في عرسه الدامي، وذلُّ الرصاصْ،

مالوا بملك من شقاء العبيد

واستنزلوا أربابه للقصاص

في ساحة النارِ.

يبكون في الريح الشماليه

أسرى، على السُّفْن الصليبيه،

والريح كالمديه

تجتثُّ أظفاري.

يبكون.. في داري.

بالقشِّ والطين سدّوا كوَّةَ القَمَرِ،

والريحُ في الشجر

قد كمَّموا فاها،

كي لا تصيح: أخبئوا عن أعيُن الغَجَرِ

أطفالكم، فهي ما ترتدُّ إحداها

إلّا وحال الّذي تلقى، إلى حَجَرِ»

الريحُ قيثاري

قد كمَّموا فاها

هاويكِ أعلى من الطاغوت فانتصبي

ما ذلّ غيرُ الصفا - للنار - والخشبِ

حُيِّيتِ من قلعةٍ شقَّ الفضاءَ بها

أُسٌّ لها في صدور الفتيةِ العرب

الطين فيها دمٌ منه، وجندلُها

من عزمةٍ، والحديد الصَّلْدُ من غضب

أنتِ السماواتُ والأرض، الّتي خُلِقت

في عشرةٍ تحسِب الأيام بالحُقُب

والصخر فيكِ استمدَّ الروحَ إذ لمستْ

عُقْمَ الجماداتِ فيه إصبَعُ اللّهب

في كلّ أنقاض دار، من صفاه يدٌ

جبّارةٌ تصفع العادين كالشهب

ما انهدَّ إلّا وأعلى في ضمائرنا

سدّاً من الثار أعيا حيل النُّوَب.

والماء، حتّى زلالُ الماءِ، فيكِ مُدىً

من فضَّة الله توهي جحفل الذهب

ما بلّ للجحفل المأجور غُلّته

حتّى جبى قِدْرَ ماءٍ من دمٍ سرب!

أملى على كلّ شيء فيكِ جوهَرَه

حِلْفٌ لجيشين: ذي قُربى وذي أرَب

إنّ الحديد الّذي صُنتِ الحياةَ به

غيرُ الحديد الّذي وافاكِ بالعطب

والخير في بُندقياتٍ قذائفها

حتفُ المغيرين، والميلادُ في قُضُب

لكنه الشرُّ في خبزٍ حقائُبه

عونٌ لأعدائكِ الجوعى، وفي قِرَب!

ليت المسيحَ الّذي داجى بشِرْعتِه

من باع مثواه، راءٍ فيك عن كثب:

خرسٌ نواقيسكِ الثكلى، وداميةٌ

فيكِ الأناجيلُ، والموتى بلا صُلُب

والحابس الماءَ عن جرحاكِ حمَّلها

عبءَ الصليبيين: من حُمّى ومن خشب

واستنطق الأمَّ ثكلى: أين جيرتها

من فتيةٍ لاصطياد العسكر اللّجب؟

فالتمَّ في مقلتيها، وهي تنظره،

كلُّ المخاضات والتسهيد والنَّصَب

كأنما استودعتها كلُّ والدةٍ

آجالَ كلّ الذراري طيلة الحِقَبِ

فاختارت الموت معلوكاً مراضعُها،

معروكةً في رحىً تترى من الرُّكَبِ

تفدي بما يستبيح الجندُ من دمها

والنار، أعراضَ كلّ الخرَّدِ العُرُبِ.

أبناءُ «جنكيز» في روحٍ، وإن بعدوا

في نسبةٍ: ربَّ قُربى دون مُنْتَسَب

شرُّ اللصوص، إذا عفَّ التتارُ.. فما

عفّوا عن الرِّيش والأسمال واللُّعبِ!

فلتنفخ الصُّورَ في أفريقيا أُمَمٌ

بالأمس قد أنزلوها أسفل الرُّتبِ

ولتُسمِعنَّ الزنوج البيض صيحتها:

«إنا إلى الله أدنى منكِ في نسب»!

حُيّيتِ فالوحش أوهى فيك مخلبهُ؛

يا غابة النار قد أثمرْتِ بالغَلَب!

من أيِّ عبءٍ على روحي ومسمارِ

من أعينٍ، في صليب تحت أسواري،

تأتيكِ أشعاري؟

حمراءَ خضراءَ من جُرحٍ ومن غارٍ،

خضراءَ من راية، حمراءَ من نار،

خضراءَ كالماء في فردوسكِ الجاري؟

يا ليت أوتاري

خضراءُ حمراءُ من قلبي ومن ثاري!

يا ليتَ أبوابَ قلبي منكِ تلتهِبُ!

يا ليتها دون قُفْلٍ، ليتها خشَبُ!

أو خرّبَ الجندُ قلبي، فهي تنتحبُ

في كلّ إعصار!

سودٌ، كما اسودّت الأموات، أنهاري

فالطين فيها فمٌ يمتصُّ أسفاري،

والريحُ في داري

سوداءُ ما رفّ منها باللّظى عَصَبُ.

لا تسألي بعدُ عنها: إنها عشُب

أعواده السود غذّى عجلَه الذهبُ

منها، فخبّأتُ في عينيّ قيثاري!

كوني لأشعاري

وحياً، وشدِّي ببأسٍ منك أوتاري.

يا مرفأ النور، كن مرسىً لأفكاري!

يا مرفأ النار

الهبتَ أغواري

بالثارِ

مزّقت عنها سودَ أستارِ

فانهلّتِ الشمسُ على داري.

كم من دفين، كلّ ماء القنالْ

في مدّه العاتي وفي جزرِه،

يلقي على صدرهِ

عبْئاً من الظلماء - كان القتال

من أجل أن يرتاحَ في قبره!

ما كان إلّا من دموع الرجَال

والنسوة الباكين في قعره،

هذا الّذي بين العُبابيْنِ سال!

كالليل هذا الماءُ فوق القبورْ

كالنار، كالإعصار، كالداء:

تختضُّ في ليل الخليجِ الصدور،

والشمسُ تحسو كلّ ماءِ الصدور

في عالم لم تمشِ فيه العصور -

من ملتقى للماء بالماء!

كالليل هذا الماء، نِدُّ الحياه:

الموْت والميلاد بوّابتاه.

في قاعِهِ الموتى قد استبدلوا

بالنبض، ما يُرغي به المرجلُ

في موقرات، من سفين الغزاه،

بالموتِ مما يصنع المعملُ.

حتّى إذا ما رشَّ عارَ العُتاه

بالدمع من عينيه، والنارِ

من قلبه المورق بالغارِ،

إنسانُكِ العملاق ظِلّ الإله،

ظِلُّ الملايين الّتي مقلتاه

عنها ترى ما في خيال تراه،

هذا الّذي أعصابُها في قِواه -

أحيا دمَ الموتى، فخرَّ الطغاه!

فليحرسِ الأحياء باب الحياه!

غاضَ المغيرونَ عن واديكِ وانحسروا

فالأرضُ تدمى بقتلاها وتزدهرُ

وازداركِ الموتُ لا مُلْساً ملامحه

بيضاً، كما تهلك الأنعام والشجَر

حاشاك! فالموتُ توري فيكِ حدّتهُ

طعْمَ الدم الحيِّ، ما يرقى به البشر

أخفاهُ عنك التزامٌ واشتباكُ يدٍ

في مثلها، فهو حيثُ اجتازهُ البصر

حتّى إذا ارتدَّ واستبشعتِ صورتهُ

أدركتِ أيّ انتصارٍ ذلك الظّفرُ!

أدركتِ أنّ الضحايا ردّ كاثرَها

فيكِ الأقلُّ المضَحِّي أنّها كُثر

من سدّدَ النارَ في أيديكِ، يُوردها

كيْدَ المغيرينَ منه الظنُّ والنظر؟

واحتاز في قلبه الأحقابَ، يزرعها

في جانبٍ منه، واستبسالك الثمر

واستنفر الشرق حتّى كاد ميّتِه

يسعى؟ أهذا صلاحُ الدين أم عمَر؟

هذا الّذي حدّثتنا عنه أنفسنا

في كلّ دهياءَ نبلوها وننتظر

هذا الّذي كلّ، عن سحقٍ لبذرته

بالخيل والذابلات، الرومُ والتتر

يا أُمّةً تصنع الأقدارَ من دمها

لا تيأسي. إنّ «سيف الدولة» القدر

أعلى لكل انتصارٍ فيك جدّتَهُ

فاخضل واخضلّت الآياتَ والسّوَرُ

في مسجدٍ أمَّ مشّاءٌ بأُمَّتِه

فيه المصلّين! حتّى كبَّرَ الحجر!

واستشرفَ الساحَ ناءٍ عنه يحمله

ما بين جنبيْه، رامٍ فيه منْتصر:

عينٌ لسيناءَ ترقى كلّ رابيةٍ

فيها، وعينٌ وراء النيل تنحدر

أو تنفِضُ الأفقَ، حتّى ضاءَ من لهبٍ

حملاقها، فهي ممّا راءَ تستعِر!

جاؤوك! جاء الصليبيون، قاصفة

تنقضُّ في إثْر أُخرى، فاللظى مطر

في كلّ فانوس موتى من قذائفها

نورٌ له اختضّت الأبعادُ والعُصُر

فالشرق عارٍ مدى عينيْه، منبسطٌ

كالراحة: الدور، والأكواخ والحُفر

يكاد يبصر ما أبقاه مكتدَحٌ

في جبهةٍ، واغتذى من مقلةٍ سَهرُ

إيماضةَ البرق: إلّا أنّها حقبٌ

تُطوى، ومستقبل يُبْنى ويدّخر!

المجد لله والإنسان: أنّ يداً

تحيي وقلباً يداوي، منهما أثرُ!

يا قلعة النور تدمى كلُّ نافذةٍ

فيها، وتلظى، ولا تستسلم، الحُجَر

أحسَسْتُ بالذُّلّ أن يلقاكِ دونَ دمي

شعري، وأني بما ضحَّيْتِ أنتصر

لكنّها باقةٌ أسعى إليكِ بها

حمراءُ يخضلُّ فيها من دمي زهَر!

المومس العمياء

الليل يُطبق مرّة أخرى، فتشربه المدينه

والعابرون، إلى القرارة... مثل أغنيةٍ حزينه.

وتفتحت، كأزاهر الدفلى، مصابيح الطريق،

كعيون «ميدوزا»[223]، تحجَّر كلّ قلب بالضغينه،

وكأنها نذرٌ تبشِّر أهل «بابل» بالحريق

من أي غابٍ جاء هذا الليل؟ من أي الكهوف

من أي وجر للذئاب؟

من أيّ عشٍّ في المقابر دفَّ أسفع كالغراب؟

«قابيل»[224] أخفِ دم الجريمة بالأزاهر والشفوف

وبما تشاء من العطور أو ابتسامات النساء

ومن المتاجر والمقاهي وهي تنبض بالضياء

عمياء كالخفّاش في وضح النهار، هي المدينه،

والليل زاد لها عماها.

والعابرون:

الأضلع المتقوّسات على المخاوف والظنون،

والأعين التعبى تفتش عن خيال في سواها

وتعدّ آنية تلألأُ في حوانيت الخمور:

موتى تخاف من النشور

قالوا سنهرب، ثمّ لاذوا بالقبور من القبور!

من هؤلاء العابرون؟

أحفاد «أوديب»[225] الضرير ووارثوه المبصرون.

(جوكست) أرملةٌ كأمسِ، وباب «طيبة» ما يزال

يُلقي «أبو الهول» الرهيب عليه، من رعبٍ ظلال

والموت يلهث في سؤال

باقٍ كما كان السؤال، ومات معناه القديم

من طول ما اهترأ الجواب على الشفاه.

وما الجواب؟

«أنا» قال بعض العابرين...

وانسلّت الأضواء من باب تثاءب كالجحيم

تطفو عليهن البغايا كالفراشات العطاش

يبحثن في النيران عن قطرات ماء... عن رشاش.

لا تنقلنَّ خطاك فالمبغى «علائيٌّ»[226] الأديم:

أبناؤك الصرعى تراب تحت نعلك مستباح،

يتضاحكون ويعولون.

أو يهمسون بما جناه أب يبرّؤه الصباح

مما جناه، ويتبعون صدى خطاك إلى السكون

الحارس المكدود يعبر، والبغايا متعبات،

النوم في أحداقهن يرفّ كالطير السجين،

وعلى الشفاه أو الجبين

تترنّح البسمات والأصباغ ثكلى، باكيات،

متعثراتٍ بالعيون وبالخطى والقهقهات،

وكأن عاريةَ الصدور

أوصال جنديٍّ قتيل كلّلوها بالزهور،

وكأنّها درج إلى الشهوات، تزحمه الثغور[227]

حتّى يهدَّم أو يكاد. سوى بقايا من صخور.

جيفٌ تستَّرُ بالطلاء، يكاد ينكر من رآها

أنّ الطفولة فجّرتها، ذات يومٍ، بالضياء

كالجدول الثرثار - أو أنّ الصباح رأى خطاها

في غير هذا الغار تضحك للنسائم والسماء،

ويكاد ينكر أنّ شقّاً لاح من خلل الطلاء

قد كان - حتّى قبل أعوامٍ من الدم والخطيئهْ -

ثغراً يكركر، أو يثرثر بالأقاصيص البريئه

لأبٍ يعود بما استطاع من الهدايا في المساء:

لأبٍ يقبّل وجه طفلته النديَّ أو الجبينْ

أو ساعدين كفرختين من الحمائم في النقاء.

ما كان يعلم أنّ ألف فمٍ كبئرٍ دون ماءْ

ستمصُّ من ذاك المحيا كلّ ماء للحياء

حتّى يجفّ على العظام - وأن عاراً كالوباء

يصِمُ الجباه فليس تُغسل منه إلّا بالدماء

سيحلّ من ذاك الجبين به ويلحق بالبنين -

والساعدين الأبيضين، كما تنوّرُ في السهولْ

تفاحةٌ عذراءُ، سوف يطوِّقان، مع السنين

كالحيتين، خصور آلاف الرجال المتعبين

الخارجين، خروج آدمَ، من نعيم في الحقول

تفاحُه الدمُ والرغيف وجرعتان من الكحول

والحية الرقطاء ظلٌّ من سياط الظالمين

يا أنتَ، يا أحد السكارى،

يا من يريد من البغايا ما يريد من العذارى

(ما ظلّ يحلم، منذ كان، به ويزرع في الصحارى

زبد الشواطئ والمحارا

مترقباً ميلاد «أفروديت»[228] ليلاً أو نهارا)

أتريد من هذا الحطام الآدميِّ المستباحْ

دفءَ الربيع وفرحة الحمل الغرير مع الصباح

ودواءَ ما تلقاه من سأمٍ وذلٍّ واكتداح

المال، شيطان المدينه

لم يحظَ، من هذا الرهان، بغير أجساد مهينهْ

«فاوست»[229] في أعماقهن يعيد أغنية حزينهْ

المال، شيطان المدينه، ربُّ «فاوست» الجديد

جارت على الأثمان وفرة ما لديه من العبيد،

الخبز والأسمال حظٌّ عبيده المتذللين

مما يوزع من عطايا - لا اللآلئ والشباب،

والمومس العجفاء - لا «هيلين»[230]، والظمأ اللعين

لا حكمة الفرح المجنَّح والخطيئة والعذاب

الخيل من سأمٍ تحمحم وهي تضرب بالحوافرْ[231]

حجر الطريقْ.

هلمَّ: فالحوذي يبحث عن مسافرْ

والريح صرٍّ، والبغيُّ بلا زبائنَ منذُ حين.

إنْ لم تضاجعها وصدَّ سواك عنها معرضينَ

فكيف تحيا، وهي، مثلك لا تعيش بلا طعام؟

لا تخشَ منها أن تُراعَ بما تأكّلَه الجذام

من صدرك النخر العريض. وأنت ويحك يا أخاها

ماذا تريد، وعمَّ تبحث في الوجوه؟ ويا أباها

اطعن بخنجرك الهواء.. فأنتما لن تقتلاها.

هي لن تموتْ:

سيظلّ غاصبها يطاردها وتلفظها البيوت

ستظلّ - ما دامت سهام التبر تصفر في الهواء -

تعدو، ويتبعها «أبولو»[232] من جديد كالقضاء،

وتظلّ تهمس، إذ تكاد يداه أن تتلقّفاها:

«أبتي... أغثني» بيد أنّك لا تصيخ إلى النداء،

لو كنت من عرق الجبين ترشّها ومن الدماء

وتحيلها امرأة بحقٍّ، لا متاعاً للشراء

كلّلتَ منها، بالفخار وبالبطولات، الجباها!

وكأنّ ألحاظ البغايا.

إبَرٌ تُسَلُّ بها خيوط من وشائعَ في الحنايا

وتظل تنسج، بينهنّ وبين حشد العابرين،

شيئاً كبيت العنكبوت يخضّه الحقد الدفين:

حقدٌ سيعصف بالرجالْ

والأخريات، النائمات هناك في كنف الرجال

والساهرات على المهود وفي بيوت الأقربين

حول الصلاء بلا اطّراحٍ للثياب ولا اغتسال

في الزمهرير، ودون عدٍّ لليالي والسنين!

ويمرُّ عملاقٌ يبيع الطير، معطفه الطويلْ

حيران تصطفق الرياح بجانبيه، وقبضتاه

تتراوحان: فللرداء يدٌ وللعبء الثقيلِ

يدٌ، وأعناق الطيور مرنحات من خطاه

تدمى كأثداء العجائز يوم قطّعها الغزاه.

خطواته العجلى، وصرخته الطويلة: «يا طيورْ

هذي الطيور، فمن يقول تعال...»

أفزعها صداه

يأتيه من غُرَف البغايا كاللهاث من الصدور.

ويدٌ تشير إليه عن كثب، وقائلة تعال!

بين التضاحك والسعال:

عمياء تطفئ مقلتاها شهوة الدم في الرجال

وتحسّسته كأن باصرةً تهمُّ ولا تدور

في الراحتين وفي الأنامل وهي تعثر بالطيور،

وتوسلته: «فدى لعينك - خلّني. بيدي أراها».

ويكاد يهتك ما يغلّف ناظريها من عماها

قلبٌ تحرَّق في المحاجر واشرأبَّ يريد نور!

وتمسّ أجنحةً مرقّطةً فتنشرها يداها،

وتظل تذكر - وهي تمسحهن - أجنحة سواها

كانت تراها وهي تخفق... ملء عينيها تراها:

سربٌ من البطّ المهاجر، يستحثُّ إلى الجنوب

أعناقه الجذلى.. تكاد تزيد من صمت الغروب

صيحاتُه المتقطعات، وتضمحلُّ على السهوب

بين الضباب، ويهمس البرديّ بالرجع الكئيب.

ويرج وشوشة السكونْ

طلْقٌ.. فيصمت كلّ شيء.. ثمّ يلغط في جنون.

هي بطّة فلمَ انتفضتِ؟ وما عساها أن تكون؟

ولعل صائدها أبوكِ، فإنْ يكنْ فستشبعون.

وتخفّ راكضةً حيال النهر كي تلقى أباها:

هو خلف ذاك التلّ يحصد. سوف يغضب إن رآها.

مرَّ النهار ولم تُعنْهُ... وليس من عونٍ سواها

وتظل ترقى التلّ وهي تكاد تكفر من أساها.

....

يا ذكرياتُ علامَ جئتِ على العمى وعلى السهاد؟

لا تمهليها، فالعذاب بأن تمرّي في اتئاد.

قصّي عليها كيف مات وقد تضرَّج بالدماء

هو والسنابل والمساء -

وعيون فلاحين ترتجف المذلّة في كواها

والغمغمات: «رآه يسرق...»، واختلاجات الشفاه

يخزين ميّتها، فتصرخ: «يا إلهي، يا إلهي...

لو أنّ غير «الشيخ»!، وانكفأت تشدّ على القتيل

شفتين تنتقمان منه أسى وحباً والتياعا

وكأنّ وسوسة السنابل والجداول والنخيل

أصداء موتى يهمسون: «رآه يسرق» في الحقول

حيث البيادر تفصد الموتى فتزداد اتساعا!

....

وتحسُّ بالدم وهو ينزف من مكانٍ في عماها

كالماء من خشب السفينة، والصديد من القبور،

وبأدمعٍ من مقلتيها كالنمال على الصخور

أو مثل حبّات الرمال مبعثرات في عماها

يهوين منه إلى قرارة قلبها آهاً فآها.

ومَن الملوم وتلك أقدارٌ كُتبن على الجبين؟

حتمٌ عليها أن تعيش بعرضها، وعلى سواها

من هؤلاء البائسات. وشاء ربّ العالمين

ألا يكون سوى أبيها - بين آلافٍ - أباها

وقضى عليه بأن يجوع

والقمح ينضج في الحقول من الصباح إلى المساءْ

وبأن يلصّ فيقتلوه... (وتشرئبّ إلى السماء

كالمستغيثة، وهي تبكي في الظلام بلا دموع)

واالله - عزّ االله - شاء

أن تقذف المدنُ البعيدة والبحار إلى العراق

آلاف آلاف الجنود ليستبيحوا، في زقاق

دون الأزقة أجمعين

ودون آلاف الصبايا، بنت بائعة الرقاق:

تلك الشقيّةَ، ياسمينْ.

(ذاك اسم جارتها الجديد، فليتها كانت تراها

هل تستحقّ اسماً كهذا: ياسمين وياسمين؟)

ومن الّذي جعل النساءْ

دون الرجال، فلا سبيل إلى الرغيف سوى البغاء؟

االله - عزّ وجلّ - شاء

ألا يكنّ سوى بغايا أو حواضنَ أو إماء

أو خادماتٍ يستبيح عفافَهن المترفونْ

أو سائلاتٍ يشتهيهن الرجال المحسنون!!

لو لم تكن أنثى! - وتسمع قهقهاتٍ من بعيد:

«عباس» عاد من الترصُّد بالرجال على الوصيد

ولسوف تنزح راحتاه غُسالة الضيف الجديد.

لو لم تكن أنثى... وتسمع قهقهاتٍ من بعيد.

يا ليت حمّالاً تزوجها يعود مع المساء

بالخبز في يده اليسار وبالمحبة في اليمين.

لكن بائسة سواها حدثتْها منذ حين

عن بيتها وعن ابنتيها، وهي تشهق بالبكاء:

عن زوجها الشرطيّ يحمله الغروب إلى البغايا

كالغيمة السوداء تُنذر بالمجاعة والرزايا،

أزراره المتألّقات على مغالق كلّ باب

مُقَلُ الذئاب الجائعات ترود غاباً بعد غاب

وخطاه مطرقة تسمّر، في الظلام، على البغايا

أبوابهنّ إلى الصباح - فلا اتِّجارٌ بالخطايا

إلّا لعاهرةٍ تُجاز بأن تكون من البغايا...

ويظلّ يخفرهن من شبعٍ، وينثر في الرياح

أغنيَّةً تصف السنابل والأزاهر والصبايا،

وتظل تنتظر الصباح وساعديه مع الصباح

تصغي - وتحتضن ابنتيها في الظلام - إلى النباح

وإلى الرياح تئنّ كالموتى وتعول كالسبايا

وتُجمِّع الأشباح من حفر الخرائب والكهوف

ومن المقابر والصحارى بالمئات وبالألوف...

فتَقِفُّ من فزعٍ وتحجب مقلتيها بالغطاء،

ويعود والغبش الحزين يرشُّ بالطلّ المضاء

سعفَ النخيل... يعود من سهرٍ يئن ومن عياءِ

- كالغيمة اعتصرت قواها في القفار، وترتجيها

عَبرَ التلال قرىً تجوع - لكي ينام إلى المساء:

عيشٌ أشقُّ من المنيّة، وانتظار كالفناء

وطوى يعبّ من الدماء وسُمٌّ أفعى في الدماء

وعيون زانٍ يشتهيها، كالجحيم يشعّ فيها

سخرٌ وشوق واحتقار، لاحقتها كالوباء...

والمال يهمس أشتريك وأشتريك فيشتريها

....

....

يا ليتها، إذنِ انتهى أجلٌ بها فطوى أساها!

«لو أستطيع قتلتُ نفسي..» همسةٌ خنقت صداها

أخرى توسوس: «والجحيم؟ أتصبرين على لظاها؟

وإذا اكفهرَّ وضاق لحدك، ثمّ ضاق، إلى القرارِ

حتّى تفجّر من أصابعك الحليب رشاش نارِ

وتساءل المَلَكَان: فيمَ قتلتِ نفسك يا أثيمه؟

وتخطّفاك إلى السعير تكفّرين عن الجريمه.

أفتصرخين: أبي! فينفض راحتيه من الغبارِ

ويخف نحوك وهو يهتف: قد أتيتك يا سليمه؟»

حتّى اسمُها فقدته واستترت بآخر مستعارِ

هي - منذ أن عميَت - «صباحُ»...

فأيُّ سخريةٍ مريره!

أين الصباح من الظلام تعيش فيه بلا نهار

وبلا كواكبَ أو شموعٍ أو كوى وبدون نار؟

أوَ بعد ذلك ترهبين لقاء ربِّك أو سعيرهْ؟

القبر أهون من دجاك دجىً وأرفق، يا ضريره

يا مستباحةُ كالفريسة في عراءٍ، يا أسيره

تتلفّتين إلى الدروب ولا سبيل إلى الفرارِ؟

....

وتحسّ بالأسف الكظيم لنفسها: لِمَ تُستباح؟

الهرُّ نام على الأريكة قربها... لِمَ تستباح؟

شبعان أغفى، وهي جائعة تلمُّ من الرياح

أصداء قهقهة السكارى في الأزقة، والنباح

وتعدّ وقع خطى هنا وهناك: ها هو ذا زبون

هو ذا يجيء - وتشرئبُّ، وكاد يُلمس.. ثمّ راح

وتدقّ في أحد المنازل ساعة.. لِمَ تستباح؟

الوقت آذن بانتهاءٍ والزبائن يرحلون.

لِمَ تستباح وتستباح على الطوى؟ لِمَ تستباح؟

كالدرب تذرعه القوافل والكلاب إلى الصباح؟

الجوع ينخر في حشاها، والسكارى يرحلون،

مرّوا عليها في المساء وفي العشية ينسجون

حلماً لها هي والمنون:

عصَبَات مهجتها سَداه وكل عوق في العيون،

والآن عادوا ينقضون -

خيطاً فخيطاً من قرارة قلبها ومن الجراح -

ما ليس بالحلم الّذي نسجوه، ما لا يدركون...

شيئاً هو الحلم الّذي نسجوا وما لا يعرفون،

هو منه أكثرُ: كالحفيفِ من الخمائل والرياح،

والشعرِ من وزن وقافية ومعنى، والصباح -

من شمسه الوضَّاء... وانصرفوا سكارى يضحكون!

فلْيرحلوا. ستعيش، فهي من السعال ومن عماها

أقوى، ومن صخب السكارى.

فامضِ عنها يا أساها!

ستجوع عاماً أو يزيد، ولا تموت، ففي حشاها

حقدٌ يؤرّث من قواها.

ستعيش للثأر الرهيب

والداء في دمها وفي فمها. ستنفثُ من رداها

في كلّ عرقٍ من عروق رجالها شبحاً من الدم واللهيب،

شبحاً تخطّفَ مقلتيها أمسِ، من رجلٍ أتاها

ستردُّه هي للرجال، بأنهم قتلوا أباها

وتلقّفوها يعبثون بها وما رحموا صباها،

لم يبتغوها للزواج لأنها امرأة فقيره،

واستدرجوها بالوعود لأنها كانت غريره،

وتهامس المتقوّلون فثار أبناء العشيره

متعطّشين - على المفارق والدروب - إلى دماها.

وكأنّ موجة حقدها ورؤى أساها.

كانت تقرّب من بصيرة قلبها صوراً علاها

صدأ المدينة وهي ترقد في القرارة من عماها:

كلّ الرجال؟ وأهل قريتها؟ أليسوا طيبين؟

كانوا جياعاً - مثلها هي أو أبيها - بائسين،

هم مثلها - وهم الرجال - ومثل آلاف البغايا

بالخبز والأطمار يُؤتَجَرون، والجسدُ المهين

هو كلّ ما يتملّكون، هم الخطاة بلا خطايا

وهم السكارى بالشرور كهؤلاء العابرينَ

من السكارى، بالخمور.. كهؤلاء الفاجرين بلا فجور

الشاربين - كمن تضاجع نفسها - ثمن العشاء

الدافنين خروق بالية الجوارب في الحذاء،

يتساومون مع البغايا في العشيّ على الأجور

ليوفّروا ثمن الفطور!

ليس الذين تغصّبوها من سلالة هؤلاء:

كانوا كآلهة مقطّبة الجباه من الصخور

تمتصُّ من فزع الضحايا زهوها ومن الدماء

متطلعين إلى البرايا كالصواعق من علاء!

وتحسّ، في دمها، كآبة كلّ أمطار الشتاء

من خفْق أقدام السكارى، كالأسير وراء سور

يصغي إلى قرع الطبول يموت في الشفق المضاء.

هي والبغايا خلف سورٍ، والسكارى خلف سور،

يبحثن هنَّ عن الرجال، ويبحثون عن النساء،

دميتْ أصابعهن: تحفر والحجارة لا تلين،

والسور يمضغهن ثمّ يقيئهن ركامَ طين:

نصباً يخلّد عار آدم واندحار الأنبياء،

وطلول مقبرةٍ تضم رفات «هابيل» الجنين!

سورٌ كهذا، حدّثوها عنه في قصص الطفوله:

«يأجوج»[233] يغرز فيه، من حنق، أظافره الطويله

ويعضّ جندله الأصمَّ، وكفُّ «مأجوج» الثقيله

تهوي، كأعنف ما تكون، على جلامده الضخام،

والسور باقٍ لا يُثَلُّ.. وسوف يبقى ألف عام،

لكنّ (إن - شاء - الإله)

- طفلاً كذلك سمّياه -

سيهبُّ ذات ضحىً ويقلع ذلك السور الكبير.

...الطفل شاب وسورها هي ما يزال كما رآه

من قبل يأجوج البرايا. توأمٌ هو للسعير!

لصَّ الحجارةَ من منازلَ في السهول وفي الجبال

يتواثب الأطفال في غرفاتها ويكركرون...

والأمّهات يلدن والآباء للغد يبسمون،

لم يُبْقِ من حجَر عليها، فهي ريح أو خيال.

وأدار من حُطَمِ البلاط رحى، وساط من البطون

ما ترتعيه رحاه من لحم الأجنّة والعظام،

وكشاطئين من النجوم على خليج من ظلام

يتحرَّقان ولا لقاءَ ويخمدان سوى ركام -

شق الرجالَ عن النساء: سُلالتين من الأنام

تتلاقيان مع الظلام وتَفْصِلان مع الشروق:

زانٍ وزانية، وبائعة وشارٍ - والطعام

لا الحبُّ والأحقاد لا الأشواق - تنبض في العروق!

زانٍ وزانية؟.. أيمكن ذاك وهي بلا عشاء؟

لَم يُعرِض الزانون عنها وحدها؟ لِمَ يعرضون

وهي الفقيرة فقر شحّاذ؟ أما هي كالنساء؟

أو ما لها جسد كناضجة الثمار؟ أيعثرون

لو يقطعون الليل بحثاً والنهار - على سواها

في حسنها هي؟ في غضارة ناهديها أو صباها

وبسعرها هي؟ أيَّ شيء غير هذا يبتغون؟

أ «زهورُ» أجمل أو «سعادُ»؟ بأي شيء جارتاها

تتفوقان؟

وعضَّت اليد وهي تهمس: بالعيون...»!

عمياء أنت وحظك المنكود أعمى يا سليمه.

.... وتلوبُ أغنية قديمة

في نفسها وصدى يوشوش: يا سليمه، يا سليمه[234]

نامت عيون الناس. آه.. فمن لقلبي كي يُنيمَه؟»

ويل الرجال الأغبياء، وويلها هي، من عماها!

لِمَ أصبحوا يتجنبون لقاءها؟ أيضاجعونَ

عيونها، فيخلّفوها وحدها إذ يعلمونَ

بأنها عمياء؟ فيم يكابرون ومقلتاها

ما كانتا فخذين أو ردفين؟

وهي بهولاء

أدرى، وتعرف أي شيء في البغايا يشتهون.

بالأمس، إذ كانت بصيره،

كان الزبائن بالمئات، ولم يكونوا يقنعون

بنظرة قمراء تغصبها من الروح الكسيره

لترشّ أفئدة الرجال بها، وكانوا يلهثون

في وجهها المأجور، أبخرةَ الخمور، ويصرخون

كالرعد في ليل الشتاء:

عَبرَ ابتسامتها أو الفخذ الّتي زلق الرداء

عنها، أو النهدين نَمَّ عليهما قلق الضياء -

«إنْ كنت لا تتجردين كما أتيت إلى الوجود،

إنْ كنت لا تتجردين.. فلا نقود!»

ولعلّ غيرة «ياسمين» وحقدَها سبب البلاء:

فهي الّتي تضع الطلاء لها وتمسح بالذرور

وجهاً تطفّأت النواظر فيه...

- «كيف هو الطلاء؟

وكيف أبدو.؟»

- وردةً.. قمر.. ضياء!»

زورٌ.. وكل الخَلق زور،

والكون مَيْنٌ وافتراء.

لو تبصر المرآةَ - لمحة مقلتيها - لو تراها

- لمح النيازك - ثمّ تغرق من جديد في عماها!

برقٌ ويُطفأ... ثمّ تُحكم فرقها بيدٍ، وفاها

بيدٍ، وترسم بالطلاء على الشفاه لها شفاها.

شفتاك عارية وخدُّك ليس خدّك يا سليمه،

ماذا تخلّف منك فيك سوى الجراحات القديمه؟

وتضمُّ زهرةَ قلبها العطشى على ذكرى أليمه:

تلك المعابِثة اللعوب... كأنها امرأة سواها!

كالجدولين تخوض ماءهما الكواكب - مقلتاها،

والشعر يلهث بالرغائب والطراوة والعبير

وبمثل أضواء الطريق نعسْنَ في ليل مطير،

والثغر بين الجلّنار وزهرة النهد الصغير.

كانت إذا جلست إلى المرآة يفتنها صباها

فتظلّ تعصر نهدها بيدٍ، وتحملها رؤاها

من مخدع الآثام في المنفى، إلى قصر الأمير:

تقتات بالعسل النقيّ، وترتدي كسل الحرير.

ليت النجوم تخرُّ كالفحم المطفّأ، والسماء

ركام قارٍ أو رماد، والعواصف والسيول

تدقُّ راسية الجبال ولا تخلّف في المدينة من بناء!

أن يعجز الإنسان عن أن يستجير من الشقاء

حتّى بوهم أو برؤيا، أن يعيش بلا رجاء...

أوَ ليس ذاك هو الجحيم؟ أليس عدلاً أن يزول؟

شبع الذُّباب من القمامة في المدينة، والخيول

سرّحن من عرباتهن إلى الحظائر والحقول،

والناس ناموا - وهي ترتقب الزناة بلا عشاء.

هذا الّذي عرضته كالسلع القديمة: كالحذاء،

أو كالجرار الباليات، كأسطوانات الغناء...

هذا الّذي يأبى عليها مشترٍ أن يشتريه

قد كان عِرضاً - يوم كان - ككل أعراض النساء!

كان الفضاء يضيق عن سعة، وتُرتخص الدماء

إن رنَّق النظر الأثيم عليه. كان هو الإباء

والعزة القعساء والشرف الرفيع. فشاهديه

يا أعين الظلماء، وامتلئي بغيظك وارجميه

بشواظ عارك واحتقارك يا عيون الأغبياء!

- «لا تتركوني يا سكارى

للموت جوعاً، بعد موتي - ميتة الأحياء - عارا.

لا تقلقوا... فعماي ليس مهابة لي أو وقارا.

ما زلت أعرف كيف أُرعش ضحكتي خلل الرداء

- إبّان خلعي للرداء - وكيف أرقص في ارتخاء

وأمسُّ أغطية السرير وأشرئبُّ إلى الوراء.

ما زلت أعرف كلّ ذاك، فجربوني يا سكارى!

مَن ضاجع العربية السمراء لا يلقى خسارا.

كالقمح لونك يا ابنة العرب[235]،

كالفجر بين عرائش العنب

أو كالفرات، على ملامحه

دعةُ الثرى وضراوة الذهب.

لا تتركوني.. فالضحى نسبي:

من فاتح، ومجاهد، ونبي!

عربية أنا: أمتي دمها

خير الدماء.. كما يقول أبي.

في موضع الأرجاس من جسدي، وفي الثدْيِ المذال

تجري دماء الفاتحين. فلوِّثوها، يا رجال

أواه من جنس الرجال.. فأمس عاث بها الجنود

الزاحفون من البحار كما يفور قطيع دود[236]

يا ليت للموتى عيوناً من هباء في الهواءِ

ترى شقائي

فيرى أبي دمه الصريح يعبُّ أوشال الدماء

كالوحل في المستنقعات. فلا يردَّ الخاطبينَ

أبٌ سواه: لأنّ جدة أمّ ذاك من الإماء

ولأن زوجة خال ذلك بنت خالة هؤلاء!

أنا يا سكارى لا أرد من الزبائن أجمعين

إلّا العفاة المفلسين.

أنا زهرة المستنقعات، أعبُّ من وحل وطين

وأشعّ لونَ ضُحىً...»

وذكّرها بجعجعة السنينَ

سُعالها. ذَهبَ الشباب!!

ذهب الشباب!! فشيِّعيه مع السنين الأربعين

ومع الرجال العابرين حيال بابك هازئين.

وأتى المشيب يلف روحك بالكآبة والضباب،

فاستقبليه على الرصيف بلا طعام أو ثياب[237]،

يا ليتكِ المصباحُ يخفق ضوْؤُه القَلِقُ الحزين

في ليل مخدعك الطويل، وليت أنّك تُحْرِقينَ

دماً يجفُّ فتشترينَ

سواه: كالمصباح والزيت الّذي تستأجرين[238].

عشرون عاماً قد مضين، وشبْتِ أنت، وما يزالُ

يذرذر الأضواءَ في مُقَل الرجال.

لو كنت تدّخرين أجْرَ سناه ذاك على السنين

أثرْيتِ...

ها هو ذا يُضيء فأيَّ شيءٍ تملكين؟

ويح العراق! أكان عدلاً فيه أنّك تدفعينَ

سُهاد مقلتك الضريرة

ثمناً لملء يديك زيتاً من منابعه الغزيره؟

كي يثمرَ المصباحُ بالنور الّذي لا تبصرين؟

عشرون عاماً قد مضين، وأنت غرثى تأكلينَ

بنيك من سَغَبٍ، وظمأى تشربينَ

حليب ثديك وهو ينزف من خياشيم الجنين!

وكزارعٍ لَهَمَ البذورَ

وراح يقتلع الجذورَ

من جوعه، وأتى الربيع فما تفتَّحت الزهورُ

ولا تنفّست السنابل فيه...

ليس سوى الصخورِ

سوى الرمال، سوى الفلاه -

خُنْتِ الحياة، بغير علمك، في اكتداحك للحياه!

كم ردّ موتَك عنكِ موتُ بنيك. إنك تقطعين

حبل الحياة لتنقضيه وتضفري حبلاً سواه،

حبلاً به تتعلّقين على الحياة: تضاجعينَ

ولا ثمار سوى الدموع، وتأكلين،

وتسهرين ولا عيون، وتصرخين ولا شفاه،

وغداً بحبلك تُشنقين!

وغداً. وأمس.. وألف أمسِ - كأنما مَسح الزمان

حدودَ ما لك فيه من ماض وآت

ثمّ دار، فلا حدود

ما بين ليلك والنهار، وليس، ثَمَّ، سوى الوجودِ..

سوى الظلام، ووطء أجساد الزبائن، والنقودِ،

ولا زمان، سوى الأريكة والسرير، ولا مكان!

لِمَ تحسبين لياليَ السأم المسهَّدة الرتيبه؟

ما العمر؟ ما الأيام؟ عندك، ما الشهور؟ وما السنين؟

ماتت «رجاء» فلا رجاءَ. ثكلتِ زهرتك الحبيبه!

بالأمس كنت إذا حسبت فعُمْرَها هي تحسبين.

ما زال من فمها الصغيرِ

طراوة في حلمتيك، وكركراتٌ في السرير.

كانت عزاءك في المصيبه.

وربيع قفرتك الجديبه.

كانت نقاءك في الفجور، ونسمةً لك في الهجير،

وخلاصك الموعود، والغبشَ الإلهيَّ الكبير!

ما كان حكمةَ أن تجيءَ إلى الوجود وأن تموت؟

ألتشربَ اللبن المرنَّق بالخطيئة واللعاب:

أو شالَ ما تركتْه في ثدييك أشداقُ الذئاب؟

كان الزُّناة يضاجعونك وهي تصرخ دون قوت.

فكأنّها، وهي البريئه،

كانت تشاركك العذاب لكي تكفّر عن خطيئه!

أفترضينَّ لها مصيرك؟

فاتركيها للتراب

في ظلمة اللحد الصغير تنام فيه بلا مآب.

فالنور والأطفال والبسمات حظّ المترفين،

والجوع والأدواء والتشريد حظ الكادحين..

وأنت بنت الكادحين.

....

مات الضجيج. وأنتِ، بَعْدُ، على انتظارك للزناه،

تتنصَّتين، فتسمعينَ

رنين أقفال الحديد يموت، في سأم، صداه:

الباب أُوصِد.

ذاك ليل مرَّ...

فانتظري سواه.

حفّار القبور

ضوْء الأصيل يغيم، كالحلم الكئيب، على القبور

واهٍ، كما ابتسم اليتامى، أو كما بهتَتْ شُموعْ

في غيهب الذكرى يُهوِّم ظلُّهنَّ على دموعْ

والمدْرجُ النائي تهبّ عليه أسراب الطيور،

كالعاصفات السود، كالأشباح في بيتٍ قديمْ

برزتْ لتُرعب ساكنيه

من غرفةٍ ظلماءَ فيه.

وتثاءَب الطَّلَلُ البعيد - يُحدّق الليل البهيمْ

من بابه الأعمى ومن شُباكه الخربِ البليدِ.

والجوُّ يملؤه النعيبْ...

فتُردّدُ الصحراءُ، في يأسٍ وإعوالٍ رتيبْ،

أصداءَه المتلاشياتْ،

والريح تذْروهنَّ، في سأم. على التلّ البعيدِ!

وكأنّ بعض الساحراتْ

مدَّت أصابعها العجاف الشاحباتِ إلى السماءِ:

تُومي إلى سِربٍ من الغربان تلويه الرياحْ

في آخر الأفقِ المضاءِ -

حتّى تعالى ثمّ فاض على مراقيه الفساحْ

فكأن ديدانَ القبورْ

فارتْ لتلتهم الفضاءَ وتشربَ الضوءَ الغريقْ

وكأنما أزفَ النشورْ

فاستيقظَ الموتى عطاشى يلهثون على الطريق!

وتدفّع السربُ الثقيلْ،

يطفو ويرسب في الأصيل،

لجِباً يرنِّق بالظلام على القبور البالياتِ

وظلاله السوداء تزحف، كالليالي الموحشاتِ،

بين الجنادل والصخورْ

وعلى القبور!

وتنفس الضوء الضئيلْ

بعد اختناقٍ بالطيوف الراعباتِ وبالجُثامْ،

ثمّ ارتخت تلك الظلال السود وانجابَ الظلام:

فانجاب عن ظلٍّ طويل

يُلقيه حفّارُ القبورْ:

كفّانِ جامدتان، أبرد من جباه الخاملين،

وكأنّ حولهما هواءً كان في بعض اللحودِ

في مُقلةٍ جوفاءَ خاويةٍ يهوّم في ركودِ

كفّان قاسيتان جائعتان كالذئب السجينْ،

وفمٌ كشقٍّ في جدارِ

مُستوحدٍ بين الصخور الصمِّ من أنقاض دارِ

عند المساء.. ومقلتان تحدقان، بلا بريقْ

وبلا دموعٍ، في الفضاء: -

هُوذا المساء

يدنو، وأشباح النجوم تكاد تبدو، والطريق

خالٍ - فلا نعشٌ يلوح على مَداه.. ولا عويلْ -

إلّا النعيبْ

وتنهُّدَ الريح الطويل!

وعلامَ تنعب هذه الغربان، والكون الرحيبْ

باقٍ يدور.. يعجُّ بالأحياء: مرضى، جائعين

بيضَ الشعور كأعظمُ الأموات - لكن خالدين

لا يهلكون؟ علامَ تنعب؟ إنّ عزرائيلَ ماتْ!

وغداً أموتُ، غداً أموت!»

وهزَّ حفّارُ القبورْ

يُمناه في وجه السماء، وصاحَ: ربِّ! أما تثور

فتبيدَ نسلَ العار.. تُحرقَ، بالرجوم المهلكات،

أحفادَ عادٍ، باعةَ الدمِ والخطايا والدموعِ؟

يا ربّ.. ما دام الفناءْ

هو غايةُ الأحياء، فأمرْ يهلكوا هذا المساء!

سأموتُ من ظمأ وجوعِ

إنْ لم يمتْ - هذا المساء إلى غدٍ بعضُ الأنامْ؛

فابعثْ به قبلَ الظلام!

يا ربّ.. أسبوعٌ طويل مرَّ كالعام الطويلْ،

والقبرُ خاوٍ، يفغر الفمَ في انتظارٍ.. في انتظارْ،

ما زلت أحفره ويطمره الغبارْ -

تتثاءب الظلماء فيه ويرْشح القاع البليلْ

مما تعصِّر أعين الموتى وتنضحه الجلود:

تلك الجلود الشاحبات وذلك اللحم النثيرْ!

حتّى الشفاه يمصُّ من دمها الثرى - حتّى النهود

تذوي، ويقطر، في ارتخاءٍ من مراضعها، المغيرْ![239]

واهاً لهاتيك النواهد، والمآقي، والشفاه!

واهاً لأجساد الحسان! أيأكل الليل الرهيبْ

والدودُ، منها، ما تمناه الهوى؟ واخيبتاه!

كم جثّةٍ بيضاء لم تفتضَّها شفتا حبيبْ،

أمسى يضاجعها الرغام؟

هل كان عدْلاً أن أحنّ إلى السراب، ولا أنالُ

إلّا الحنين - وألف أنثى تحت أقدامي تنامْ؟

أفكلّما اتّقدتْ رغابٌ في الجوانح شحَّ مالُ؟

ما زلت أسمع بالحروب - فأين أين هي الحروب؟

أين السنابك والقذائف والضحايا في الدروب..

لأظلّ أدفنها وأدفنها.. فلا تسع الصحارى

فأدسُّ في قمم التلالِ عظامهنَّ وفي الكهوفِ؟

فكأنّ قعقعةَ المنازل في اللظى نَقر الدّفوفِ

أو وقع أقدام العذارى

يرقصن حولي لاعباتٍ بالصنوج وبالسيوف!

نُبّئتُ عن حربٍ تدور - لعلّ عزرائيل فيها..

في الليل يكدح والنهار، فلنْ يمرَّ على قرانا

أو بالمدينة وهي توشك أن تضيقَ بساكنيها!

نبئت أن القاصفاتِ هناك ما تركتْ مكاناً

إلّا وحلّ به الدمار... فأيُّ سوقٍ للقبور!

حتّى كأنّ الأرض من ذهب يُضاحك حافريها،

حتّى كأنّ معاصرَ الدم دافقاتٌ بالخمورِ!

أوَّاه لو أنّي هناك أسدّ، باللحم النثيرِ،

جوع القبور وجوعَ نفسي.. في بلادٍ ليس فيها

إلّا أراملُ... أو عذارى غاب عنهنَّ الرجالُ

وافتضَّهنَّ الفاتحون إلى الذماء - كما يُقال!

ما زلت أسمع بالحروب. فما لأعين موقديها

لا تستقرُّ على قرانا؟ ليت عيني تلتقيها

وتخضُّهنَّ إلى القرار - وكالنيازكِ والرُّعود

تهوي بهنَّ على النخيل، على الرجال؛ على المهودِ!

حتّى تحدِّق أعين الموتى، كآلاف اللآلي،

من كلّ شبرٍ في المدينةِ.. ثمّ تُنظم كالعقودِ

في هذه الأرضِ الخرابِ - فيا لأعينها ويا لي!

رباه! إني أقشعرُّ... أكاد أسمع في الخيال

أغنيّةً تصف العيونْ...

تنثالُ من مقهى، فأنصت في الزحام، وينصتون!

وكأنّ ما بيني وبين الآخرين من الهواء

ثديٌ سخيٌّ بالحليب وبالمحبة والإخاء.

يا ربِّ.. أسبوع يمرُّ ولست أسمع من غناءِ

إلّا النعيبْ

وتنهُّد الريح الرتيب!

واخيبتاه! ألن أعيش بغير موت الآخرين؟

والطيِّبات: من الرغيف، إلى النساء، إلى البنين

هي منّة الموتى عليَّ. فكيف أُشفق بالأنامِ؟

فلتمطرنَّهمُ القذائف بالحديد وبالضرام،

وبما تشاء من انتقام:

من حُمَّيا أو جذام!

نذرٌ عليَّ: لئنْ تشبَّ لأزرعنَّ من الورودِ

ألفاً تروَّى بالدماء.. وسوف أرصف بالنقودِ

هذا المزار... وسوف أركض في الهجير بلا حذاء

وأعدّ أحذيةَ الجنود...

وأخطُّ، في وحل الرصيف وقد تلطّخ بالدماءِ،

أعدادهنَّ... لأستبيحَ عدادهنَّ من النهودِ!

وسأدفن الطفلَ الرميَّ وأطرح الأمَّ الحزينه

بين الصخور على ثراه...

ولسوفَ أغرزُ بين ثدييها أصابعيَ اللعينه.

ويكاد يخنقها لهاثي وهي تسمعُ، في لظاه،

قلبي ووسوسةَ النقودِ... نقودها! واخجلتاه!

أنا لستُ أحقرَ من سواي. وإن قسوتُ فلي شفيعُ

أنّي كوحشٍ في الفلاه...

لم أقرأ الكتبَ الضخام - وشافعي ظمأ وجوع.

أو ما ترى المتحضرينَ

المزدهين من الحديد بما يطير وما يذيع؟

مهما ادَّنأت فلن أسفَّ كما أسفُّوا.. لي شفيع

أني نويت.. ويفعلون؛ وإنّ من يئد البنينْ

والأمّهات ويستحلّ دم الشيوخ العاجزين

لأحطُّ من زانٍ بما انتهك الغزاة وما استباحوا!

والقاتلون هم الجناة وليس حفّار القبور؛

وهم الذين يلوِّنون لي البغايا بالخمور،

وهم المجاعة، والحرائق، والمذابح، والنواحُ،

وهم الذين سيتركون أبي وعمّته الضريره

بين الخرائب ينبشان ركامهن عن العظام،

أو يفحصان عن الجذور، ويلهثان من الأوام..

والصخر كالمقل الضريره.

وسيوثقون بشعر أختي قبضتيّ.. وكالظلامِ

وكخضَّة الحمّى، تسمِّرها على دمها صدورُ

تعلو وتهبط باللهاث، كأنهن رحىً تدور.

يا مجرمون، إلى الوراء! فسوف تنتفض القبورُ

وتقيءُ موتاها. ويا موتى، على اسم الله ثوروا

رباه، عفوك.. إنّ «قابيل» المكبَّلَ بالحديدْ

في نفسيَ الظلماء هبَّ وقرَّ يعصره الملالْ!

فالليل جاءَ، وما أزال

مستوحداً أرعى القبور وأنفض الدربَ البعيد.

وكأنّ يا بشرى! كأنّ هناك في أقصى الجنوب

خطاً كأذيال الظلام ولمعةً كدمِ الغروب!

لكأنّه ضيفٌ جديد!»

وبدا الجنّازُ، وراح يشهق وهو يدنو في ارتخاءْ،

الأوجه المتحجِّرات يضيئها الشفق الكئيب،

والغمغمات الخافتات من انفعالٍ أو رياءْ،

والنعشُ يحجبه غطاءْ

ألوانه المترنِّحات كأنما اعتصرَ المغيبُ

فيها قواهُ، وذاب فيها كوكب واهي الضياءْ،

حتّى إذا انهال الترابُ وصُفِّحَ القبر الجديدْ،

وتراعشَ الألقُ الضئيل، على الظهور المتعباتِ

حتّى اضمحلّ، وغيَّبتها ظلمةُ الأفق البعيد -

كانت مصابيح السماء تذرُّ ضوءاً كالضبابْ

بين القبور الموحشاتِ

وعلى الخرائب والرمال. وكان حفّار القبورِ

متعثّر الخطوات يأخذ دربه تحت الظلامْ...

يرعى مصابيح المدينة وهي تخفق في اكتئابْ،

ويظلُّ يحلم بالنساء العاريات وبالخمور،

وتحسستْ يده النقودَ وهيَّأ الفمَ لابتسام -

حتّى تلاشى في الظلام!

* * *

النّور ينضح من نوافذِ حانةٍ عبرَ الطريق،

وتكاد رائحة الخمورْ

تلقي، على الضوء المشبَّعِ بالدخان وبالفتورْ

ظلّاً كألوانٍ حيارى واهياتٍ من حريقِ

ناءٍ. تهوّم، في الدجى الضافي، على وجهٍ حزين.

وتلوح أشباحٌ عجافُ

خلف الزجاج.. تهيم في الضوء السرابيّ الغريقِ.

ويشدُّ حفّار القبور على الزجاجة باليمين،

وكمن يحاذر أو يخافُ

يرنو إلى الدرب المنقط بالمصابيح الضئالِ،

وتحركت شفتاه في بطء وغمغم في انخذالِ:

«أظننت أنّك سوف تقتحم المدينة كالغزاه..

كالفاتحين. وتشتريها بالذي ملكت يداك:

بأقل من ثمن الطلاء القرمزيِّ على شفاه

أو في أظافر لاحقتها، ذات يوم، مقلتاك،

سأعودُ، لا نهدٌ تعصِّره يدي حتّى الذهولْ،

حتّى التأوّه، والأنينِ وصرخة الدم في العروقْ

والسكرةِ العمياءِ.. والخدر المضعضع.. والأفول!

والأذرع المتفتِّرات - يلوّن الضوءُ الخفوقُ

هزاتها المستسلمات، وينفح الدم والعبيرْ

ظلٌّ لهن على السريرْ.

الأذرع المتفتراتُ، وزهرتان على الوسادْ

نسجتهما كفٌّ مخضَّبة الأظافرِ - زهرتانِ

تتفتحان على الوسادة كالشفاه - وتهمسانِ

نغماً يذوب إلى رقادْ.

ونعومة الكتفين، والشعر المعطّر، والشحوبُ،

وتألق الجيد الشهيّ ولفحةُ النفس البهيرِ.

والنور منفلتاً من الأهداب.. تثقله الطيوبُ،

قلقاً كمصباح السفينةِ راوحته صباً لعوبُ،

وتخافق الأظلال في دعةٍ، ووسوسةُ الحريرِ.

والحلمتان: أشد فوقهما بصدري في اشتهاءْ -

حتّى أحسهما بأضلاعي وأعتصر الدماء

باللحمِ والدمِ والحنايا، منهما - لا باليدين،

حتّى تغيبا فيه - في صدري - إلى غير انتهاء،

حتّى تمصّا من دماي... وتلفظاني، في ارتخاء،

فوق السرير...

وتشرئبَّا

ثمّ نثوي جثتينْ!»

* * *

دربٌ كأفواه اللحودْ -

لولا التماعات الكواكب، وانعكاس من ضياءِ

تلقيه نافذةٌ - ووقع خطىً تهاوى في عياء

يُصدي له الليلُ العميق، وحارسٌ تعبٌ يعودْ

وَسْنان يحلم بالفراش وزوجةٍ: تُذكي السراجْ

وتؤجِّج التنّورَ صامتةً.. وأخيلةُ اللهيب

تُضفي عليها ما تشاءُ من اكتئابٍ وابتهاجْ.

ثمّ اضمحلَّ الحارس المكدود، والنغم الرتيبْ:

- وقع الخطى المتلاشيات. كأنه الهمس المريب -

ما زال يخفق من بعيدْ.

وتململت قَدَمان، وارتفعت يدٌ بعد انتظارِ

وهوت على الباب العتيقِ، فأرسل الخشبُ البليدْ

صَوتاً كإيقاع المعاولِ حين إدبارِ النهار

بين القبور الموحشات. وأطبق الصمتُ الثقيلْ،

وأطلّ من إحدى النوافذ، وهي تُفتح في ارتيابْ،

وجهٌ حزين.. ثمّ غاب!

وتحرَّك البابُ المضَعْضَع وهو يُجهش بالعويلْ.

وتقول أنثى في اكتئاب:

«ضيفٌ جديدٌ!» ثمّ تفرك مقلتيها في فتور.

ويظلُّ يزحف كالكُسوف - يُحجّب الألقَ الضئيلْ

عن وجهها - ظِلٌّ يقيّدُها بحفّار القبور!

* * *

في زهوة الشَّفَقِ الملوَّنِ حيثُ يحترق النهارُ -

في عَودة الرُّعيان أشباحاً يظللها الغُبار -

في ساعة الشوْق الكئيبِ إلى شواطئَ كالضبابِ،

وإلى أكُفٍّ مُخلصاتْ،

وإلى أغانٍ مُبهماتٍ هائماتٍ في شِعابِ

أنأى مِنَ الأصْداءِ.. تغشاها نُجومٌ ساهماتْ -

في ساعة الشَّفَق الملوَّن كان إنسانٌ يثورْ

بين الجنادل والقبورْ،

نَفْسٌ معذّبة تثورْ

بين الجنادل والقبور:

«أأظلُّ أحلمُ بالنُّعوش، وأنفضُ الدرب البعيدْ

بالنظرة الشَّزْراء، واليأس المظلّلُ بالرجاءْ

يطفو ويرسب، والسماء كأنّها صَنمٌ بليدْ

لا مأملٌ في مقلتيه... ولا شواظَ... ولا رثاءْ؟

لو أنّها انفجرتْ تُقهقِهُ بالرعود القاصفات!

لو أنّها انكمشتْ وصاحت كالذئاب العاويات:

«فاتَ الأوانُ، فخُطّ لحدَكَ واثوِ فيه إلى النشورِ!

لو أنّها انطبقت عليَّ كأنها فمُ أفعوانْ!

لو أنّها اعتصرتْ قِواي!.

وماتَ ظلّ الأرجوانْ

في آخر الأفق البعيد، ولألأتْ قطراتُ نورِ

مما تُبعثره المدينةُ وهي تبسمُ في فتور.

وكأنما رضعتْ مصابيحَ المدينةِ مُقلتاه

فَسرتْ لهيباً في دماهُ وألغمتْهُا بالرغابِ،

وكأنّهنَّ، على المدى المقرور، آلافُ الشّفاه

تدعوه ظمأى، لاهثات.. مثل أحداقِ الذّئاب: -

«ما زلتِ تحترقين من فَرحٍ، وأحترقُ انتظارا،

صُبّي سناكِ على الترابِ

وعلى الكؤوس الفارغات: وبَعْثريه على كتابِ

أو بين أغطية الموائد وهي تنتظر النهارا..

ظلّتْ تُعابثها شِفاه الريح، وانصرفَ السكارى!

راحوا إليها مسرعين - إلى الّتي ارتعشتْ قِواها

بين التوجعِ والذهول، على يديَّ وفي دمائي.

ليلٌ وأعقبهُ الصباح.. ونبّأتني مقلتاها

أنّا انتهينا.

يا سماءُ، ويا قبورُ.. أما أراها؟

«لا بُدَّ من هذا!» - وصوَّبَ مقلتيه إلى السماءِ

حنقاً يُزمجر، ثمّ أطرقَ وهو يحلم باللقاء:

بابٌ تفتَّح في الظلام. وضحكةٌ. وشذىً ثقيلْ..

ويدانِ تجتذبان أغطيةَ السرير وتُرخيانِ

إحدى الستائر...

ثمّ تنطفئان في الضَّوء الضئيلْ!

وتغيم أخيلةٌ وتجلى - ثمّ تبرز حَلمتانِ...

ويُطلُّ وجهٌ شاحب القسمات مُختلج الشفاه.

وتغيم أخيلة وتُجلى - ثمّ تُفتح مقلتاه:

فيرى القبورْ،

ويرى المصابيح البعيدةَ كالمجامر في اتّقادِ،

ويرى الطريق إلى القبورْ

يكتظّ بالأشباح زاحفةً إليه على اتِّئادِ،

فيصيح من فرحٍ: «سألقاها، فإنّ على الطريق

نعشاً... وإنْ حفّ النساءُ به وأملقَ حاملوه!

إني سألقاها!» وينهض وهو يرفع باليمين

فانوسَهُ الصدئ العتيقْ...

يلقي سناه على الوجوه

وعلى الدثار القرمزيّ وفي عيون القادمين.

لو أنّه اخترقَ الدثارَ بمقلتيه وبالضياء -

لو حدّثَ التابوتُ عمَّنْ فيه... أو رفعتْ يداها

«أو هبّةٌ للزعزع النكباءِ حاشيةَ الغطاءِ

تحت النجومِ الساهمات...

لكاد ينكر من رآها!

ماتتْ كمنْ ماتوا، وواراها كما وارى سواها:

واسترجعتْ كفّاه من يدها المحطمة الدفينهْ

ما كان أعطاها - وإنْ حملتْ يدُ امرأةٍ سواها

تلك النقودَ... بل البقايا من نفايات المدينهْ -

وتظل أنوار المدينة وهي تلمعُ من بعيدِ،

ويظلُّ حفّار القبورْ

ينأى عن القبر الجديدِ

متعثَّر الخطوات... يحلم باللقاءِ، وبالخمور!

الأسلحة والأطفال

(1)

عصافيرُ؟ أم صبيةٌ تمرحُ

عليها سناً من غدٍ يُلمَح؟

وأقدامُها العاريهْ

محارٌ يصلصل في ساقيهْ

لأذيالهم رقّةُ الشمألِ

سرت عبر حقل من السنبل،

وهسهسة الخبز في يوم عيد،

وغمغمة الأم باسم الوليد

تناغيه في يومه الأوّلِ.

* * *

كأني أسمع خفق القلوع

وتصخاب بحارةِ السندباد:

رأى كنزه الضخم بين الضلوع

فما اختار إلّاه كنزاً... وعاد!

* * *

صدىً عابرٌ من وراء العصور:

من الكهف، والغاب، والمعبد،

سرى دافئاً من عروق الصخور

وإزميل نحّاتها المجهدِ،

يغنّي بأشواقه العاتيهْ

إلينا: إلى القمّة العاليه...

إلى أن يفلّ الردى بالحياه

وتلقاه أجيالها الآتيه

على صخرة حمّلتْها يداه

تحاياه: في بسمة في الشفاه

وفي أعين حجَّرتْ مقلتاه

عليها دموعَهما الجاريه.

* * *

صدىً رجَّعْته الأكفّ الصغار

يصفّقن في الشارع المشرقِ

كخفق الفراشات مرَّ النهار

عليها بفانوسه الأزرقِ

* * *

وكم من أبٍ آيبٍ في المساء

إلى الدارِ من سعيه الباكرِ،

وقد زمَّ من ناظريه العناء

وغشاهما بالدم الخاثر؛

تلقّاه، في الباب، طفل شرود

يكركر بالضحكة الصافيه،

فتنهلُّ سمحاءَ ملء الوجود،

وتزرع آفاقه الداجيه

نجوماً، وتنسيه عبء القيود.

* * *

وهُم في ليالي الشتاء الطوال

ربيع من الدفء والعافيه،

تلمُّ العجائز فيه الورود

ويلمحن عهد الصبا ثانيه،

ويرقصن بين التلال

يرجِّحن أرجوحة في الخيال:

بعذراء في ليلة مقمره

وفي ظلّ تفاحة مزهره

تنام العصافير فيها...

وهم في الصباح

خطى خافقات على السُلّمِ،

وأيدٍ على أوجه النُوَّم

يدغدغنها في مزاح!

وأغنية من أغاني الطريق

بلحنٍ سوى لحنها الأولِ

وشأوٍ من الصوت مستعجلِ.

وهم رفقة الأم إذ تستفيق

وإذ تشعل النار في الموقدِ

كخيط ترى فيه بدء الغدِ!

(2)

عصافير؟ أم صبية تمرح؟

أم الماء: من صخرة ينضحُ

فيخضل عشبٌ وتندى زهور؟

زهورٌ ونور

وقبُّرةٌ تصدحُ

وتفاحةٌ مزهره

لخفق العصافير فيها

صدى قبلة الأمّ تلقى بنيها

- «دعيني.. فما تلك بالقبّره!

دعيني أقُلْ إنه البلبلُ

وإن الّذي لاح ليس الصباح»[240]

أتلك السفين الّتي تُعْوِلُ؟

على مرفأ ناوحته الرياح؟

تُلَوِّحُ منها أكفُّ الجنود

لألفٍ كـ«جولييت» فوق الرصيف:

«وداعاً وداع الّذي لا يعود!»

وأمٍّ كما استوحشتْ في الخريف

وراء الدجى، دوحةٌ عاريه

وفرَّت عصافيرها الشاديه!

* * *

عصافير؟ أم صبية تمرحُ؟

أم الماء من صخرة ينضح

ولكن على جثّةٍ داميه؟

وقبّرة تصدحُ ولكن على خربة باليه

عصافير؟!

بل صبية تمرح

وأعمارها في يد الطاغيه

وألحانها الحلوة الصافيه

تَغلغلَ فيها نداءٌ بعيد:

«حديد عتـ...يق

رصا...ص

حديـ..ـد»

وكالظلّ من باشَقٍ في الفضاء

- إذا اجتاح، كالمدية الماضيه،

عصافيرَ تشدو على رابيه -

ترامى إلى الصبية الأبرياء

نداءٌ تنشّقتُ فيه الدماء

«حديد عتيق...

حديد عتيق!

رصا...ص» فحتى كأنّ الهواء

رصاص، وحتى كأن الطريق

حديد عتيق.

وينقضُّ، كالمعولِ الحافرِ

صدى راعبٌ من خطى التاجر.

له الويلُ... ماذا يريد؟!

«حديد عتيق

رصا..ص

حديد!»

لك الويل من تاجر أشأمِ

ومن خائضٍ في مسيل الدم

ومن جاهلٍ أنّ ما يشتريه

- لدرء الطوى والردى عن بنيه -

قبور يوارون فيها بنيه!

«حديد عتيق

رصا..ص

حديد..»

حديدٌ عتيقٌ لموتٍ جديد!

(3)

«حد...يد»

لمن كلّ هذا الحديد!

لقيدٍ سيُلوى على معصمِ

ونصلٍ على حَلْمة أو وريد

وقفلٍ على الباب دون العبيد

وناعورةٍ لاغتراف الدمِ

«رصا..ص»

لمن كلّ هذا الرصاص؟

لأطفال كوريَّةَ البائسين

وعمال مرسيليا الجائعين

وأبناء بغدادَ والآخرين

إذا ما أرادوا الخلاص

حديد

رصاص

رصاص

رصاص!

«حديد...»

وأصغي إلى التاجرِ

وأصغي إلى الصبية الضاحكين

وكالنصل قبل انتباه الطعين

وكالبرق - ينفضُّ في خاطري

ستارٌ، وكالجرح إذ ينزفُ -

أرى الفوَّهات الّتي تقصف

- تسدُّ المدى - واللظى والدماء

وينهلُّ كالغيث، ملء الفضاء

رصاص ونار... ووجه السماء

عبوسٌ لما اصطكَّ فيه الحديد..

حديد ونار، حديد ونار

وثَمَّ ارتطامٌ، وثّمَّ انفجار

ورعد قريب، ورعد بعيد

وأشلاء قتلى، وأنقاض دار!

حديد عتيق لغزوٍ جديد

* * *

حديد... ليندكَّ هذا الجدار

بما خَطّ في جانبيه الصغار

وما استودعوا من أمان كبار:

«سلام»

كأنّ السنا في الحروف

تخطّى إليها ظلامَ الكهوف

بآمال إنسانها الأوّلِ

وما اختطّ من صورة في الحجار

تحدّى بها الموت: فهي انتصار

وتَوْقٌ إلى العالم الأفضلِ!

«حديد

رصا..ص

حديد عتيق

رصاص...» ليخلوَ هذا الطريق

من الضحكة الثرَّة الصافيه

وخفْقِ الخطى والهتاف الطروب

فمن يملأ الدار عند الغروب

بدفء الضحى واخضلال السهوب؟

لظى الحقد في مقلة الطاغيه

ورمضاءُ أنفاسه الباقيه

يطوفان بالدار عند الغروب

وأطلالها الباليه!

«حديد عتيق

نحاس عتيق»

وأصداء صفّارة للحريق!

(4)

«حديد، حديد»

وأمٌّ تبيع السرير العتيق

تبيع الحديد الّذي أمس كان

مهاداً عليه التقى عاشقان

وشدَّ نداء الحياة العميق

ذراعاً بأخرى، فما تخفقان!

فيا حسرتا حين يمسي غدا

شظايا تدوّي وبعض المُدى

تُنَحَّى بها عن ذراع ذراع

وينهدُّ مهدٌ، ويخبو شعاع!

* * *

أمن حيث كان التقاء الشفاه

على الحبّ: ينسجن خيط الحياه

يحوك الردى غزلَه الأسودا

دماً أو دخاناً؟ يحوك الردى

شباكاً من النار حول البيوت

على صبية أو صبايا تموت؟

وأرباب (وول ستريت) القساه[241]

يحيلون حتّى حديد السرير

جناحاً عليه المنايا تغير

وحتى الّذي في عيون الدمى

من المعدن الزئبقيِّ الحسير

رصاصاً أبحَّ الصدى، مُرْزِما.

(5)

«حديد عتيق، حديد، حديد»

وأقدامُها العاريه

محارٌ يصلصل في ساقيه

ويعتاد بالي - كرعد بعيد -

ضجيجُ الخطى وانهيار الصخور

وخفقُ الفوانيس في المنجمِ

وما نضَّ من عاريات الظهور

وما انسحَّ في سعلةٍ من دم!

وملء السنا من غبار الحديد

نواقيسُ فيها يرنُّ السكون...

وأجراس مركبةٍ من بعيد

يخفُّ لها صبية يلعبون:

نواقيس في الفجر، واليوم عيد

وفي الماء أطلال جسر جديد

وهمس النواعير، والزارعون

وفي كلّ حقل - كنبض الحياه -

تهزُّ المحاريث قلبَ الثرى

وتبنى القرى:

قرى، طينُها من رميم الطغاه.

وتخضلُّ حتّى الصخور الضنينهْ

ويثمر حتّى سراب الفلاه

مدينه

فأخرى، فأخرى، إلى منتهاه!

* * *

«حديد... حديد!»

وأقدامُها العاريه

وخفقُ الفوانيس في المنجم

وأعماقُه الرطبة الداجيه

كظلّ الردى فاغراتُ الفم

كبئر من الظلمة الطاميه

ستمتاح منها ألوفُ القبور

ويهوي - مع الزعزعِ العاتيه -

عمى من دجاها على كلّ نور:

على النور من باب كوخ مضاء

ومن كوَّةٍ في خيام الرعاء

ومن شرفة ظلُّها الياسمين

- «دعيني أقل إنه البلبلُ

وإنّ الّذي لاح ليس الصباح» -

على النور من موقد السامرين

ومن مدرج بالسنا يُغسَلُ

على كلّ نور، تذرّ الرياح

ظلال الطواغيت في المنجمِ

كناعورة لاغتراف الدمِ.

تذر الرياح، الرياح، الرياح

أراجيحِ في الملعب المظلمِ

وخَفقَ الفوانيس والأنجم

وخفق الخطى والأكفّ الصغار

وخفق الفراشات مرَّ النهار

عليها بفانوسه المعتمِ

فمن يملأ الدار عند الغروب

بدفء الضحى واخضلال السهوب؟

رصاص، حديد، رصاص، حديد

وآهاتُ ثكلى، وطفلٌ شريد!

* * *

ومن يُفْهِمُ الأرض أنّ الصغار

يضيقون بالحفرة البارده[242]؟

إذا استنزلوها وشطّ المزار

فمن يتبع الغيمةَ الشارده؟

ويلهو بلقط المحار؟

ويعدو على ضفّة الجدولِ؟

ويسطو على العشّ والبلبلِ؟

ومن يتهجى - طوال النهار -

ومن يلثغ الراء، في المكتبِ؟

ومن يرتمي فوق صدر الأبِ

إذا عاد من كدِّه المتعبِ؟

ومن يؤنس الأمّ في كلّ دار؟

أسىً موجعٌ أن يموت الصغار

أسى ذقتُ منه الدموع، الدموع

أجاجاً ومثل اللظى في الفمِ

وأحسست فيه اشتعالَ الدمِ

بعينيَّ، من نازفات الضلوع:

عويلٌ من القرية النائيهْ

وشيخ ينادي فتاه الغريقْ

بهذا الطريق وذاك الطريق

ويسعى إلى الضفّة الخاليهْ

يسائل عنه المياه

ويصرخ بالنهر.. يدعو فتاه

ومصباحُه الشاحبُ

يغني سدى زيتُه الناضبُ:

«محال تراه!»

ويحنو على الصفحة القاتمه

يحدِّق في لهفة عارمهْ

فما صادفت مقلتاه

سوى وجهه المكفهرِّ الحزين

ترجرجه رعشةٌ في المياه

تغمغم: «لا، لن تراه!»

(6)

«**حديد عتيق**» ورعب جديد!

«حديد

رصا..ص»

لأنّ الطغاه

يريدون ألا تُتمَّ الحياه

مداها، وألا يحسَّ العبيد

بأن الرغيف الّذي يأكلون

أمرُّ من العلقمِ

وأن الشراب الّذي يشربون

أجاجٌ بطعم الدمِ

وأنّ الحياة الحياة انعتاق

وأن ينكروا ما تراه العيون:

فلا بيدرٌ في سهول العراق

ولا صبيةٌ في الضحى يلعبون

ولا همسَ طاحونةٍ من بعيد

ولا يطرق الباب ساعي البريد

ببشرى، ولا منزلُ

يضيءُ الدجى منه نور وحيد

سخيٌّ كما استضحك الجدولُ

ولا هدهداتٌ، ولا جَلجَلُ

يرنُّ بساق الوليد

وبين الربى في رقاب الجداء

ولا وسوسَ الشاي فوق الصِّلاء

ولا قصةٌ في ليالي الشتاء

لأنّ الطواغيت لا يسمعون

صداحَ العصافير في المغربِ

- كما صلصل الفضةَ القامرون -

ولا زفّةَ السنبل المذْهَبِ

لأنّ الطواغيت لا يحلمون

بغير المبيعات والأسهمِ.

وأن الطواغيت لا يسمعون

سوى رنّة الفلس والدرهمِ

لأنّ الطواغيت لا يبصرون

على الشاطئ الأسيوي البعيد

سوى أنّ سوقاً يباع الحديد

وتُستهلك الريح والنار فيها:

تدرّ العطايا على فاتحيها.

(7)

بأقدام أطفالنا العاريه

يميناً، وبالخبز والعافيه:

إذا لم نعفّرْ جباهَ الطغاه

على هذه الأرجل الحافيه

وإن لم نذوِّبْ رصاصَ الغزاه

حروفاً هي الأنجم الهاديهْ

(فمنهن في كلّ دار كتاب

ينادي: قفي واصدأي يا حراب)

وإن لم نضوِّ القرى الداجيه

ولم نخرس الفُوَّهات الغضاب

ونُجْلِ المغيرين عن آسيه..

فلا ذكرتنا بغير السِّباب

أو اللعن أجيالُنا الآتيه!

* * *

سلام على العالم الأرحبِ

على الحقل، والدار، والمكتبِ،

على معملٍ للدمى والنسيج،

على العشّ والطائر الأزغبِ،

على التّوت وسْنانَ فيه الأريج

ووقع المجاذيف في المغربِ،

على زهرةٍ في وساد العروس،

على صِبيةٍ في انتظار الأبِ،

على شاعر تستحمُّ الشموس

بعينيه، يصغي إلى جندبِ

سلام على العالم الأرحبِ.

سلام على (الكنج)[243] فاض النعيم

ورنَّتْ أغاريدُ في ضفتيه:

قرى من سناً عاصرات عليه

عناقيدَ من ضوئهنّ العظيم.

سلام على الصين والحاصدين

وصيّادِ أسماكها الأسمرِ

وما أنبتت من دم الثائرين

وما افترَّ في البيرق الأحمر

على صبية في قراها البعاد

وفي ظلّ تفاحها المزهرِ

وما جرَّرت في ليالي الحصاد

ثياب العذارى على البيدر..

سلام لأنّ الربيع

يمرُّ بودياننا كلّ عام،

وما زال قوس الغمام.

وأجدى على الأرض، من أن يبيع[244]

طواغيت (وول ستريت) الحديد

عشيش جديد!

ولولا الّذي كدَّسوا من نضار

به يستضيئون دون النهار

تجوع الملايين عن جانبيه

وينحطُّ، في كلّ يوم، عليه

دمٌ من عروق الورى أو نُثار

كذرِّ الغبار -

لما هزّت الأمّهات المهود

على هوَّة من ظلام اللحود

ولم تذرف الدمع عَبرَ البحار

وعبر الصحارى، نساءُ الجنود

ولم يرفع الزارع الأشيبُ

إلى مقلتيه، اليدَ الراجفه

يحدِّق في عتمة العاصفهْ

ويصغي وفي روعه «القاصفه»

ولم يبكِ صرعى بنيه الأبُ

جزوعاً بأن يثكل الآخرين

ولا شرّدت نومةَ العاشقين

كوابيس من أعين الهالكين

وأرنان صفّارة تنعبُ:

«وغى...» فاستفاقوا ولا كوكبُ

ولا لمعةٌ من سراج تبين

سوى قعقعات السلاح

وعصف الرياح

ولا ساءل الأمَّ طفلٌ غرير.

«ألا بلدةٌ ليس فيها سماء؟»

ـ فلا قاذفات المنايا تغير

ولا من شظايا تسد الفضاء ـ

ولم تحصدِ النارُ حيَّ الزنوج

ولا مجَّ فيه الرصيفُ الدماء

ولا اجتاحه المجرمون العلوج

بما جرروا من غلاظ الحبالِ

وما صفدوا من رقاب الرجالِ

ولا أن مرضى بطاء الليالي

واختضّ في الصرصر اللاجئون

ولألاء (يافا) تراه العيون

وقد حال من دونه الغاصبون

بما أشرعوا من عطاش الحراب

وما استأجروا من شهود كذاب

وما صفّحوا بالردى من حصون

سلامٌ على العالم الأرحب

على مشرق منه أو مغرب

سلامٌ لآفونَ[245] روّى عروق

شكسبيرَ والزهر والداليه.

أفقْ شاعرَ النور، إنّ الشروق

تهدّده غيمة داجيه

سعى «مكبثٌ»[246] تحتها في احتراس

لقتل النعاس...

لقتل النعاس البريء...

سلام لباريس «روبسبيير»[247]

«وإلوارَ» والغابة الحالمه

وعشاقها في المساء الأخير

تذرِّيهمُ قوة ظالمه

كدوّامة من رياح السعير.

على «تونسٍ» من لظاها ظلال

وحول «الرباط»[248] المدمّى هدير

وفي جيرة الصين حلّ انخذال

بقطعانها الفظّة الضاريه.

لك المجد يا آسيه!

سلام لفينيس[249] والكرنفال

وأضوائه الثرة الزاهيه

وهمس المحبين بين الظلال

وفي دفء قمْرائه الضاحيه.

سلامٌ على المسيسبي الكبير[250]

وما طاف من أغنيات الزنوج

بشطّيْه وانسابَ عبر المروج

هناك استقلّ الضّياء الأسير

إلهُ الوغى، مركباً للدمار

يرشُّ الجراثيم، حيث استدار

بأعجاله القادحات الشرار

ويُدمي الشيوخ، ويصْلي الصغار

شآبيب نار

وما شاء من زعزعٍ عاتيه

تبيدُ الملايين في ثانيه.

(8)

عصافير؟ أم صبية تمرح؟

أم الماء من صخرة ينضح؟

وأقدامها العاريه

مصابيح ملء الدجى تُلْمَحُ

هتكنا بها مكمن الطاغيه

وظلْماءَ أوجارِه الباليه.

علينا لها: أنّها الباقيه

وأنّ الدواليبَ في كلّ عيد

سترقى بها الرّيح.. جذلى تدور!

ونرقى بها من ظلام العصور

إلى عالمٍ كلٌّ ما فيه نور

فقد لاح فجرُ انطلاق العبيد[251]

وأنّا رفعنا لواء السلام

رفعناه.. فليخسأنّ الظلام!

* * *

«رصاص، رصاص، رصاص،

حديد، حديد عتيق»...

لكونٍ جديد!

المَعبَدُ الغريق
(1962)

إشارة

هذا الديوان نسخة طبق الأصل عن الطبعة الأولى لديوان «المعبد الغريق» الصادر عن دار «العلم للملايين»، بيروت (1962)، مع ضبط النصوص ومطابقة مع المتوفر من أصول القصائد وما نشر منه في الصحف والمجلات، فضلاً عن طبعات الدور الأخرى، وقد أجريتُ تثبيتاً لبعض الملاحظات التحريريّة والاختلافات الجديرة بالتوثيق يجدها القارئ في هوامش مرفقة مع كلّ حالة.

المحقق

شبّاك وفيقة

(1)

شبّاكُ وفيقة في القريه

نشوانُ يُطلّ على الساحه

(كجليل تنتظر المشيه

ويسوعَ) وينشر ألواحه -

إيكار يمسِّح بالشمس

ريشات النسر وينطلقُ،

إيكار تلقّفه الأفق

ورماه إلى اللجج الرمس -

شبّاك وفيقةَ يا شجره

تتنفّسُ في الغَبَش الصاحي

الأعين عندك منتظره

تترقّبُ زهرةَ تفاح،

وبُوَيب نشيدْ

والرّيح تُعيدْ

أنغام الماء على السَّعَفِ

ووفيقةُ تنظر في أسف

من قاع القبر وتنتظر:

سيمرّ فيهمسه النّهرُ

ظلاً يتماوج كالجَرَسِ

في ضحوة عيد،

ويهفّ كحبات النّفَسِ.

والريح تُعيد

أنغام الماء (هو المَطَرُ)

والشمس تكركر في السعفِ.

شباك يضحك في الألَقِ؟

أم باب يُفتَح في السورِ

فتفر بأجنحة العَبق

روح تتلهف للنورِ؟

يا صخرةَ معراج القلب

يا «صور» الألفة والحبِّ

يا درباً يصعد للرب

لولاك لما ضحكتْ للأنسام القريه،

في الريح عبير

من طوق النهر يهدهدنا ويغنّينا

(عوليس[252] مع الأمواج يسير

والريح تذكّره بجزائر منسيّه:

«شبنا يا ريح فخلّينا»)

العالم يفتح شبّاكه

من ذاك الشباك الأزرقْ،

يتوحّد، يجعل أشواكه

أزهاراً في دعة تعبق.

شباكٌ مثلك في لبنان،

شباكٌ مثلك في الهندِ،

وفتاة تحلم في اليابان

كوفيقة تحلم في اللّحدِ

بالبرق الأخضر والرّعدِ.

شبّاكُ وفيقة في القريه

نشوانُ يُطلّ على الساحه

(كجليل تحلم بالمشيه

ويسوعَ).

ويُحرق ألواحه

شبّاك وفيقة

(2)

أطلّي فشبّاكك الأزرقُ

سماء تجوع،

تبيّنْته من خلال الدموع

كأني بيَ ارتَجفَ الزورق.

إذا انشقّ عن وجهك الأسمر

كما انشقّ عن عشتروت المحار

وسارت من الرغو في مئزر

ففي الشاطئين اخضرار

وفي المرفأ المغلقِ

تصلّي البحار.

كأني طائر بحرٍ غريب

طوى البحر عند المغيب

وطاف بشبّاكك الأزرق

يريد التجاءً إليه

من اللّيل يربدّ عن جانبيه

فلم تفتحي.[253]

ولو كان ما بيننا محضَ باب

لألقيتُ نفسي لديكِ

وحدّقت في ناظريكِ.

هو الموت والعالم الأسفلُ

هو المستحيل الَّذي يُذهل.

تمثّلت عينيكِ يا حفرتينِ

تطلان سخراً على العالمِ

على ضفة الموت بوّابتين

تلوحان للقادم.

وشبّاكك الأزرقُ

على ظلمةٍ مطبقُ،

تبدّى كحبل يشدّ الحياه

إلى الموت كيلا تموت.

شفاهك عندي ألذ الشفاه

وبيتُك عندي أحبّ البيوت

وماضيكِ من حاضري أجملُ:

هو المستحيل الَّذي يُذهل:

هو الكامل المنتهي لا يريد

ولا يُشتهى أنَّه الأكملُ،

ففي خاطري منه ظلّ مديد

وفي حاضري منه مستقبلُ.

* * *

تُرى جاءكِ الطائرُ الزنبقيّ

فحلّقتِ في ذات فجر معَه

وألقى نعاس الصباح النقيّ

على حسِّك المشتكي بُرْقُعَه؟

وفتّحت عينيكِ عند الأصيل

على مدرجٍ أخضر

وكان انكسار الشعاع الدليل

إلى التل والمنزل المرمر.

هناك المساء اخضرارٌ نحيل

من التوت والظل والساقيه

وفي الباب مدّ الأمير الجميل

ذراعيه يستقبل الآتيه:

«أميرتي الغاليه

لقد طال منذ الشتاء انتظاري

ففيم التأني وفيم الصدود؟»

* * *

وهيهات أن ترجعي من سفار

وهل ميِّتٌ من سفار يعود؟

جيكور 1961/4/29

حدائقُ وفيقة[254]

1

لوفيقه

في ظلام العالم السفليّ حقلُ

فيه ممَّا يزرع الموتى حديقه

يلتقي في جوها صبح وليلُ

وخيال وحقيقه

تنعس الأنهار فيها وهي تجري

مثقلات بالظلال

كسلال من ثمار، كدوال

سُرِّحت دون حبال

كلّ نهر

شرفة خضراء في دنيا سحيقه

ووفيقه

تتمطى في سرير من شعاع القمرِ

زنبقيٍّ أخضرٍ،

في شحوب دامع، فيه ابتسام

مثل أفق من ضياء وظلام

وخيال وحقيقه

أي عطر من عطور الثلج وان

صعَّدته الشفتان

بين أفياء الحديقه

يا وفيقه؟

* * *

تخالها تلوح في القرار[255]

من جدول أحاله النهار

صدى من المياه مقمرا.

كأن عشتروت آخى فوقها الحجار

صفائحاً من الزجاج، أصبح الثرى

ذرّاً من الضياء والغبار

2

والحمام الأسودُ

يا له شلال نور منطفي!

يا له نهر ثمار مثلها لم يُقطف!

يا له نافورةٌ من قبر تموز المدمّى تصعدُ

والأزاهير الطوال، الشاحبات، الناعسه

في فتور عصرت إفريقيا فيه شذاها

ونداها

تعزف النايات في أظلالها السكرى عذارى لا نراها

روحت عنها غصون هامسه

ووفيقه

لم تزل تثقل جيكور رؤاها

آه لو روّى نخيلات الحديقه

من بويب كركرات! لو سقاها

منه ماء المد في صبح الخريف!

لم تزل ترقب باباً عند أطراف الحديقه

ترهف السمع إلى كلّ حفيف!

ويحها... ترجو ولا ترجو وتبكيها مناها

لو أتاها...!

لو أطال المكث في دنياه عاماً بعد عامِ

دون أن يهبط في سلّم ثلجٍ وظلام!

* * *

هناك حين يهبط الموت في سكون[256]

يسمِّر العيون

على شموس تنشر الظلام

هناك يستنيم، في محفّة الغصون

شذى إذا تنشقته روح ميِّت غفا

له، ونام

شعوره القديم واستراح للقتام

3

ووفيقه

تبعث الأشذاء في أعماقها ذكرى طويله

لعشيش بين أوراق الخميله

فيهِ من بيضاتهِ الزرقِ اتقادٌ أخضرُ

(أي أمواج من الذكرى رفيقه)[257]

كلما رفَّ جناحٌ أسمرُ

فوقها والتم صدر لامعات فيه ريشات جميله

أشعل الجوَّ الخريفيَّ الحنانُ

واستعاد الضمة الأُولى وحوَّاءَ الزمانُ

تسأل الأموات من جيكور عن أخبارها

عن رباها الرُّبد، عن أنهارها

آه والموتى صموت كالظلام

أعرضوا عنها ومروا في سلام

وهي كالبرعم تلتف على أسرارها

والحديقه

سقسق الليل عليها في اكتئاب

مثل نافورة عطر وشراب

وخيال وحقيقه

بين نهديك ارتعاش يا وفيقه

فيه بَرْدُ الموت باك

واشرأبت شفتاكِ

تهمسان العطر في ليل الحديقه

1961/8/12

أمُّ البرُوم

(المقبرة الَّتي أصبحت جزءاً من المدينة)

رأيتُ قوافلَ الأحياءِ ترحلُ عن مغانيها

تطاردها، وراءَ الليلِ، أشباح الفوانيسِ

سمعتُ نشيجَ باكيها،

وصرخة طفلها، وثغاء صادٍ من مواشيها،

وفي وهج الظهيرة صارخاً «يا حاديَ العيسِ»

على ألمٍ مغنّيها.

ولكن لم أرَ الأموات يطردهنّ حفّارُ

من الحفر العتاق وينزع الأكفان عنها أو يغطيها -

ولكن لم أر الأموات، قبل ثراك، يُجليها

مجونُ مدينةٍ، وغناء راقصةٍ، وخمّارُ.

يقول رفيقيَ السكران: «دعها تأكل الموتى

مدينتنا لتكبر، تحضن الأحياء، تسقينا

شراباً من حدائق برسفون[258]، تعلّنا حتَّى

تدور جماجمُ الأموات من سُكّرٍ مشى فينا!»

مدينتنا منازلها رحىً ودروبها نارُ،

لها من لحمنا المعروك خبزٌ، فهو يكفيها...

علام تمدّ للأموات أيديها، وتختارُ،

تلوك ضلوعَها وتقيئها للريح تسفيها!؟

تسلّل ظلّها الناريّ من سِجْنٍ ومستشفى

ومن مبغى ومن خمارةٍ... من كلّ ما فيها،

وسار على سلالم نومنا زحفا

ليهبط في سكينة روحنا ألماً فيبكيها.

وكانت، إذ يُطلّ الفجر، تأتيك العصافيرُ

تساقَطُ، كالثمار على القبور، تنقّر الصمتا

فتحلم أعين الموتى

بكركرة الضياء وبالتلال يرشّها النورُ،

وتسمع ضجَة الأطفال أُمّ ثلاثةٍ ضاعوا

يتامى في رحاب الأرض: إن عطشوا وإن جاعوا

فلا ساقٍ ولا من مُطعمٍ، في الكوخ ظلوا واعتلى النعشُ

رؤوسَ القوم والأكتاف... أفئدةٌ وأسماعُ

ولا عينٌ ترى الأمّ الَّتي منها خلا العشّ.

وفي الليلِ

إذا ما ذرذر الأنوارَ في أبدٍ من الظلمه،

ودبّتْ طفلة الكفّين، عارية الخطى، نسمه

تلمُّ من المدينة، كالمحار وكالحصى من شاطئٍ رملِ،

نثار غنائها وبكائها - لم تترك العتمه

سوى زَبَدٍ من الأضواء منثور

يذوب على القبور، كأنه اللبنات في سورِ

يباعد عالَم الأموات عن دنيا من الذلّ،

من الأغلال، والبوقات، والآهات، والزُّحمه.

وأوقدت المدينة نارها في ظلّة الموتِ

تقلّع أعينَ الأموات ثمَّ تدسُّ في الحفرِ

بذور شقائق النعمان، تزرع حبّة الصمتِ

لتثمر بالرنين من النقود، وضجّة السفر،

وقهقهة البغايا والسكارى في ملاهيها.

وعصّرت الدفين من النهود بكلِ أيديها

تمزّقهن بالعجلات والرقصات والزُمُرِ

وتركلهنّ كالأكَر

تفجرها الرياح على المدارج في حواشيها

وحيث تلاشت الرعشات والأشواق والوجدِ

وعاد الحب ملمس دودة وأنين إعصار،

تثاءبت المدينة عن هوىً كتوقّد النارِ

تموت بحرِّها ورمادها ودخانها الهاري،

ويا لغة على الأموات أخفى من دُجى الغابة

ترددها المقاهي: «ذلك الدلّال جاء يريد أتعابه»

إذا سمعوك رنّ كأنه الجرس الجديد يرن في السحَرِ

صدى من غمغمات الريف حول مواقد السَمَر:

«إذا ما هزت الأنسام مهد السنبل الغافي

وسال أنين مجذافِ

كأن الزورق الأسيان منه يسيلُ في حُلُم،

عصرتُ يديَّ من ألَمِ».

فأين زوارق العشاق من سيارة تعدو

ببنت هوىً. وأين موائدُ الخمَّار من سهل يمد موائد القَمَر؟

على أمواتك المتناثرين بكلِّ مُنحَدَر

سلامٌ جالَ فيه الدمعُ والآهاتُ والوجدُ،

على المتبدّلات لحودُهُمْ والغادِياتِ قبورُهم طُرقا

وطيبُ رقادهم أرَقا

يحنّ إلى النشور ويحسب العَجَلات في الدربِ

ويرقب مَوْعدَ الربِّ.

1961/7/21

أمام باب الله

منطرحاً أمام بابك الكبير

أصرخُ، في الظلام، أستجيرْ:

يا راعيَ النمال في الرمالْ

وسامعَ الحصاة في قرارة الغدير.

أصيحُ كالرعود في مغاور الجبال

كآهة الهجير.

أتسمع النداء؟ يا بوركتَ، تسمعُ.

وهل تجيب إن سمعتَ؟

صائدُ الرجال

وساحِقُ النساء أنتَ، يا مفجِّعُ

يا مهلك العباد بالرجوم والزلازلِ

يا موحشَ المنازل

منطرحاً أمام بابك الكبير

أحسّ بانكسارة الظّنون في الضّمير.

أثور؟ أغضبُ؟

وهل يثورُ في حماكَ مذنبُ

* * *

لا أبتغي من الحياة غير ما لديّ:

الهريُ بالغلال يزحم الظلام في مداه،

وحقليَ الحصيد نامٍ في ضحاه

نفضتُ من ترابه يديّ.

ليأتِ في الغداه

سواي زارعون أو سواي حاصدون!

لتنثرِ القبورَ والسنابلَ السنون!

أريد أن أعيشَ في سلام:

كشمعة تذوب في الظلام

بدمعة أموت وابتسام

تعبتُ من توقُّد الهجير

أصارع العباب فيه والضمير،

ومن لياليَّ مع النخيل، والسراج، والظنون

أتابع القوافي

في ظلمة البحار والفيافي

وفي متاهة الشكوك والجنون،

تعبت من صراعيَ الكبير

أشقّ قلبي أطعم الفقير،

أضيء كوخه بشمعة العيون،

أكسوه بالبيارق القديمه

تنثُّ من رائحة الهزيمه.

تعبت من ربيعيَ الأخير

أراه في اللقاح والأقاح والورود،

أراه في كلّ ربيع يعبر الحدود.

تعبتُ من تصنّع الحياه

أعيش بالأمس، وأدعو أمسيّ الغدا.

كأنني ممثل من عالم الردى

تصطاده الأقدار من دجاه

وتوقد الشموع في مسرحه الكبير،

يضحك للفجر وملء قلبه الهجير،

تعبت كالطفل إذا أتعبه بكاه!

* * *

أودّ لو أنام في حماك

دثاريَ الآثام والخطايا

ومهديَ اختلاجة البغايا

تأنف أن تمسّني يداك.

أود لو أراك... من يراك؟

أسعى إلى سدّتك الكبيره

في موكب الخطاة والمعذبين،

صارخة أصواتنا الكسيرة

خناجراً تمزّق الهواء بالأنين:

«وجوهنا اليباب

كأنها ما يرسم الأطفالُ في التراب،

لم تعرف الجمال والوسامه.

تقضّت الطفولة. انطفا سنا الشباب

وذاب كالغمامه،

ونحن نحمل الوجوه ذاتَها،

لا تلفت العيون إذ تلوح للعيون

ولا تشفّ عن نفوسنا، وليس تعكس التفاتَها.

إليك يا مفجّر الجمال، تائهون

نحن، نهيمُ في حدائق الوجوه. آهْ

من عالم يرى زنابق الماء على المياه

ولا يرى المحار في القرار

واللؤلؤ الفريد في المحار»!

* * *

منطرحاً أصيح، أنهش الحجار:

«أريد أنَّ أموت يا إله»!

1961/8/26

الغيمةُ الغريبة

الومس الأجيرة الحقيره

أكثر من حبيبتي سخاءا

أتيتُها مساءا

معانقاً... أعانق الهواءا

هبّ من القطب على الظهيره،

مقبّلاً عيونها الخواءا،

كأنني كيشوت في الأصيل

يركض خلف ظله الطويل

ويطعن السنابل الكسيره

يظنها الأعداءا.

ضممتُ منها جثةً بيضاءا

تكفنت من داخلٍ، وقبرها

في جوفها تناءى.

حملت منها صخرة صمّاءا

تشدني إلى الثرى،

أرفعها لتلثم الجوزاءا،

الحب أن تبذل، أن تنال ما تريدُ

كالنبع إذ يدفق، لا كالبئرِ،

كالنار تطوي نحوك السماءا

لا شرر الزناد.

أستزيدُ

فألتقي دمي، كغيمة تعيد نفسها للبحر.

أتعلم السحابة المرعدة المبرقة المجلجله

بأن ماءها سيستحيل غيمة إليها مقبله،

تبذله في الفجر

وتلتقي به قبيل العصر؟

أريد أن أضمّ، أن أقبّلَ الدم الَّذي ينبض في الشفاه

كأنما القلب الَّذي يُقبّلُ.

الجسد الموات لا يحس شهقة الإله

تغور كالمدية حين تقتل

فتبعث الحياة في القتيلِ.

أريد أن أحرق كالحريق من أخيلِ[259]:

في القلب واليدين والكعبينِ

ويأكل النار لظى في عيني.

لو كان ما تحسه الحبيبه

الألم، الدُّوار... لا الخواءا

ما كنت مثل غيمه غريبه

ترعد حتَّى تشعل الهواءا

رعداً

وتأبى الأرض أن تجيبه!

البصرة 1961/12/22

دارُ جَدّي

مطفأَةٌ هي النوافذ الكثارْ

وباب جَدّي مُوصَدٌ وبيتُهُ انتظارْ

وأطرقُ البابَ، فمن يُجيب، يفتحُ؟

تُجيبني الطفولةُ، الشبابُ منذ صارْ،

تُجيبني الجِرار جفّ ماؤها، فليس تَنضحُ:

«بُويَبْ»، غير أنّها تذرذر الغبار.

مطفأةٌ هي الشموس فيه والنجومْ.

الحقبُ الثلاث منذ أن خفقتُ للحياة.

في بيت جديّ، ازدحمن فيه - كالغيوم

تُخْتَصرُ البحارُ في حدودهن والمياه.

فنحن لا نُلِمُّ بالردى من القبورِ،

فأوجُهُ العجائزِ

أفصحُ في الحديث عن مناجل العصورْ

من القبور فيه والجنائزِ.

وحين تقفر البيوت من بُنَاتها

وساكنيها، من أغانيها ومن شَكاتِها

نحس كيف يَسحق الزمانُ إذ يدورْ.

* * *

أأشتهيك يا حجارة الجدار، يا بلاط، يا حديدُ، يا طلاء؟

أأشتهي التقاءكُنَّ مثلما انتهى إليَّ فيه؟

أم الصِّبا، صِباي َوالطفولةَ اللعوبَ والهناءْ؟

وهل بكيتُ أن تَضَعضَعَ البناءْ

وأقفر الفنَاء أم بكيتُ ساكنيه؟

أم أنّني رأيتُ في خرابك الفناءْ

محدّقاً إليَّ مِنكَ، من دمي،

مكشّراً من الحجار؟ آهِ، أيُّ بُرعُم

يُربُّ فيك؟ برعمُ الردى!! غداً أموتْ

ولن يظلّ من قواي ما يظل من خرائب البيوت:

لا أنشق الضياءَ، لا أعضعضُ الهواء،

لا أعصر النهارَ، أو يمصُّني المساء.

* * *

كأنَّ مقلتيَّ، بل كأنني انبعثتُ (أورفيوسْ)[260]

تمصّه الخرائبُ الهوى إلى الجحيم،

فيلتقي بمقلتيه، يلتقي بها، بيورِدِيس:

«آه يا عروس

يا توأم الشبابْ، يا زنبقة النعيمْ»!.

طريقه ابتناه بالحنين والغناء:

براعمُ الخلود فتّحت له مغالقَ الفناء.

وبالغناء، يا صباي، يا عظام، يا رميم،

كَسَوْتُكِ الرُّواء والضياءْ.

* * *

طفولتي، صباي، أين... أين كلُّ ذاك؟

أين حياةٌ لا يَحدُّ من طريقها الطويل سورْ

كشَّر عن بوّابة كأعين الشباكْ،

تُفضي إلى القبور؟

والكون بالحياة ينبضُ: المياهُ والصخور

وذرّة الغُبار والنمال والحديد.

وكل لحنٍ، كلُّ موسمٍ، جديد:

الحرثُ والبِذار والزهورْ.

وكل ضاحك فمن فؤاده، وكل ناطق فمن فؤادِهِ

وكل نائح فمن فؤاده. والأرض لا تدور

والشمس، إذ تغيب، تستريح كالصغير في رقادِهِ.

والمرء لا يموت إن لم يفترسه في الظلام ذيبُ

أو يختطفه ماردٌ، والمرء لا يشيبُ

(فهكذا الشيوخ منذ يولدونْ

الشعَرُ الأبيضُ والعصيُّ والذقونْ).

* * *

وفي ليالي الصيف حين ينعس القَمَرْ

وتَذبل النجومُ في أوائلِ السَّحَرْ،

أُفيق أجمع الندى من الشجرْ

في قَدَحٍ ليقتل السعالَ والهُزالْ.

وفي المساء كنتُ أستحمّ بالنجومْ،

عيناي تَلقطانهنَّ نجمةً فنجمةً، وأركبُ الهلالْ

سفينةً... كأنَّ سندبادَ في ارتحالْ:

شراعيَ الغيوم

ومرفئي المُحالْ.

وأُبصرُ الله على هيئةِ نخلةٍ، كتاجِ نخلةٍ يبيّضُّ في الظلامْ،

أُحسُّه يقول: «يا بُنيّ، يا غلامْ،

وهبتُكَ الحياة والحنانَ. والنجومْ

وهبتها لمقلتيك، والمطرْ

للقدمين الغضّتين. فاشربِ الحياهْ

وعُبّها، يُحبُّك الإله».

* * *

أهكذا السنون تذهبُ

أهكذا الحياة تنضبُ؟

أُحسُّ أنني أذوبُ، أتعبُ،

أموت كالشجرْ.

حنينٌ في روما

يتثاءب جسمك في خلدي

فتُجنّ عروقْ،

عريان تزلَّقَ في أبدِ

تُنهيه الرعشة، فهي شروق

في ليل الشهوة. كلّ دمي

يتحرق، يلهث، ينفجر،

ويقبّل ثغرك ألفُ فمِ

في جسمي تُنبِتُها سَقَرُ

وأحنّ، أتوق.

* * *

وأحس عبيرَك في نَفَسي

ينهدّ، يدندن كالجرسِ

* * *

ووليمةُ جسمكِ يا واها

ما أشهاها!!

* * *

يا فجر الصيف إذا بردا

يا دفء شتائي، يا قبلاً أتمناها

أحيا منها، وأموت بها وأضم الأمس

أمسّ غدا

* * *

وتعود اللحظةُ لي أبدا.

ما أنأى بيتكِ، ما أنأى عينيكِ

بحار،

* * *

وجبالُ دم: زَمنٌ جمدا

ليعود مدى. وأجنُّ، أُثار

* * *

فأحسّ عبيرك في نَفَسي

ينهد، يدندن كالجرسِ

* * *

ما أسعدها، ما أشقاها؟!

أرضي، آسيةُ العريانه

أنا في روما أبكيها وأعيش بذاكرها

ألأنك فيها أهواها؟

* * *

من جوع صغارك يا وطني، أشبعتَ الغرب وغربانه.

صحراء من الدم تعوي، ترجف مقروره

ومرابط خيل مهجوره

ومنازل تلهث أوَّاها

ومقابر ينشج موتاها.

وأحسّ عبيركِ في نَفَسي

ينهدّ، يدندنُ كالجرسِ

لو شئتُ لِطيفِكِ أوربا

وطناً، لحملتُ معي زادي

وعبرتُ مرافئها، وطويتُ شوارعها درباً دربا

أسقيه الشمس وأطعمه قُبلاً وبراعم أورادِ.

لكنك أثبتُ في الشرق...

سأعود فأقطع سلّمنا وثبا

لأضمَّك يا أبدَ الشوقِ

يا نور المرفأ يهدي القلب إذا تاها

يا قصة عنترَ إذ تروى حول التنُّور فأحياها

سأحسّ عبيرك في نَفسي

ينثال ويقرعُ كالجرَسِ

روما 1961/10/19

الأمّ والطفلة الضائعة

قفي، لا تغربي، يا شمس، ما يأتي مع الليلِ

سوى الموتى. فمن ذا يُرجع الغائبَ للأهلِ

إذا ما سدّت الظلماء

دروباً أثمرت بالبيت بعد تطاول المَحْلِ؟

وإن الليل ترجفُ أكبدُ الأطفالِ من أشباحه السوداء

من الشهب اللوامح فيه، ممَّا لاذ بالظلِّ

من الهمساتِ والأصداء.

شعاعك مثل خيط اللابرنث، يشدّه الحبُّ

إلى قلب ابنتي من باب داري، من جراحاتي

وآهاتي.

مضى أزلٌ من الأعوام: آلاف من الأقمار، والقلبُ

يعد خوافقَ الأنسام، يحسب أنجم الليل،

يعد حقائبَ الأطفال، يبكي كلما عادوا

من الكتّاب والحقل.

ويا مصباحَ قلبي، يا عزائي في الملمّات،

مُنى روحي، ابنتي: عودي إليَّ فها هو الزادُ

وهذا الماء. جوعى؟ هاكِ من لحمي

طعاماً. آه!! عطشى أنت يا أمي؟

فعبّي من دمي ماء وعودي... كلهم عادوا.

كأنك برسفون تخطّفتها قبضةُ الوحش

وكانت أمّها الولهى أقل ضنى وأوهاما

من الأم الَّتي لم تَدْرِ أين مضيتِ

في نعشٍ؟

على جبل؟ بكيت؟ ضحكت؟ هبَّ الوحش أم ناما؟

وحين تموت نار الليل، حين يُعسعس الوسنُ

على الأجفان، حين يفتش القصّاص في النار

ليلمحَ من سفينة سندباد ذوائبَ الصاري

ويُخفت صوته الوهَنُ،

يجنُّ دمي إليكِ، يحِنُّ، يعصرني أسىً ضارِ.

مضت عشرٌ من السنوات، عشرة أدهرٍ سود

مضى أزلٌ من السنوات، منذ وقفتُ في الباب

أنادي، لا يردُ عليّ إلَّا الريح في الغاب

تمزقُ صيحتي وتعيدها... والدربُ مسدودُ

بما تتنفس الظلماء من سمُر وأعنابِ

وأنتِ كما يذوب النور في دوّامة الليل،

كأنك قطرة الطلّ

تشرّبها التراب... أكادُ من فَرَقٍ وأوصابِ

أسائل كلّ ما في الليل من شبحٍ ومن ظل،

أسائل كلّ ما طفلِ:

«أأبصرت ابنتي؟ أرأيتها؟ أسمعتَ ممشاها؟»

وحين أسيرُ في الزحمه

أصغِّر كلّ وجه في خيالي: كان جفناها

كغمغمة الشروق على الجداول تشرب الظلمه،

وكان جبينها... وأراكِ في أبدٍ من الناسِ

موزّعةً فآهٍ لو أراكِ وأنت ملتمَّه!

وأنتِ الآن في سَحَر الشباب، عصيره القاسي

يغلغلُ في عروقك، ينهش النهدين والثغرا

وينشرُ حولك العطرا،

فيحلم قلبك المسكين بين النور والعتمه

بشيءٍ لو تجسدَ كان فيه الموت والنشوه!

وأذكرُ أنَّ هذا العالم المنكود تملأ كأسَه الشقوه

وفيه الجوع والآلام، فيه الفقر والداءُ.

أأنت فقيرة تتضرعُ الأجيال في عينيك، فهي فمُ

يُريد الزاد، يبحثُ عنه والطرقات ظلماءُ؟

أحدِّقُ في وجوه السائلات أحالها السقمُ

ولوّنها الطوى، فأراكِ فيها، أُبصر الأيدي

تُمَد، أحسّ أنّ يدي.. يدي معهن تعرض زرقة البردِ

على الأبصار وهي كأنهن أدارها صنمُ

تجمَّد في مَدى عينيه أدعيةٌ وسال دم

فأصرخ «في سبييل الله» تخنق صوتي الدمعه

بخيط الملح والماء.

وأنتِ على فمي لوعه

وفي قلبي، وضوء شع ثمَّ خبا بلا رجعه

وخلّفني أفتش عنه بين دُجىً وأصداءِ

البصرة 1961/10/6

النبوءةُ الزائفة

وكانت تجمّعُ في خاطري

خيوطٌ ضبابيّةٌ قاتمة

نهاياتُها في المدى عائمة

وأعراقها السود في ناظري.

ودارتْ خيوطٌ ولُفّتْ سواها

فعانقنَ أفْقا

ووسْوسنَ غيماً على الريح مُلقى

تجمّعَ من كلّ صوب، ورعداً وبرقا:

لقد أغضب الآثمون الإلها

وحقّ العقاب!

يا أفراسَ الله استبقي

يا خيلاً من نارٍ وسحَاب،

من وقْع سنابككِ الرعدُ

والبرق الأزرق في الأُفق

وصهيلك صور لظىً وعذاب،

الوعد!! لقد أزف الوعدُ.

فيا قبضة الله، يا عاصفاتُ،

ويا قاصفات، ويا صاعقهْ

ألا زلزلي ما بناه الطغاةُ

بنيرانك الماحقه!

وتلتمّ في خاطري

خيوطُ السحاب

وتُلقى على الأُفقِ الدائرِ

وراءَ القباب:

وأحسستُ أنَّ الغيوم انتظارْ

وأنّ انتظاراً يشدّ الترابْ

وأصدى... بماذا؟

بصوت انفجار

على الشطّ وادٍ وزمَ الشرار

ورقّعتُ بالنظرة الشامتهْ

ثقوبَ الكوى الصامته:

سيندكّ سورٌ، ستنصبّ نار.

وكان انتظار.

وجمّعتِ الأرضُ أطباقَها:

سيندكّ سورٌ، ستنصبّ نار،

وعصّرت السّحْبُ أعراقها

فبلّ الثرى عاصفٌ ممطر!

جيكور 1961/11/3

مدينةُ السراب

عبرتُ أوربا إلى آسِيه

وما انطوى النهارْ

كأنما الجبال والبحار

رُبىً وأطرافٌ من الساقيه

يطفرها الصغار.

بين شروق الشمس والغروبْ

تعانق الشمال والجنوب

ونامت المروج في القفار.

وأنتِ يا ضجيعتي، كانك الكواكبُ البعيده،

كأنّ بيننا من الكرى جدار.

تضمّك اليدان، تعصران جثة بليدهْ،

كأنني مُعانقٌ دمي على حجار

في منزلٍ لصوصُه الرياح والهجير والغيوم،

مساؤه السكون والنجوم

وصُبْحه انتظار.

ترامت السنون بيننا: دماً ونار،

أمدّها جسور

فتستحيل سور،

وأنت في القرار من بحارك العميقه

أغوص لا أمسّها، تصكّني الصخور،

تقطّع العروق في يديّ، أستغيث: «آه يا وفيقه

يا أقربَ الورى إليّ أنت يا رفيقه

للدود والظلام».

عشر سنين سِرتها إليكِ يا ضجيعةً تنام

معي وراء سورها، تنام في سرير ذاتها،

وما انتهى السِّفار

إليك يا مدينة السراب، يا ردى حياتها.

عبرت أوربا إلى آسيه

وما انطوى النهار،

وأنت يا ضجيعتي، مدينة نائيه

مسدودة أبوابها وخلفها وقفت في انتظار.

البصرة 1961/11/2

نبوءةٌ ورؤيا

«تنبأَ عرّاف هندي بأنّ الحياة على الأرض
ستنتهي يوم 2 شباط سنة 1962».

نبوءتُك المريرةُ عذّبتني، مزقت روحي؛

نبوءتك الرهيبةُ، أيُّها العراف تبكيني؛

رأيتُ مسالك الأفلاك تُهرع بالملايينِ.

قرأتَ خواطِرَ الريحِ

ووسوسة الظلام كأنّ حقلاً بات ينتحب:

«ستنطفئ الحياة»، ورحتَ ترسم موعدَ القدرِ.

إذا حدجتْنيَ الشهُبُ

هتفت بها: «غداً سنموت. فانهمري على البَشَرِ:

لأهْونُ أن أموت لديك وحدي دون حشرجةٍ ولا أنّهْ

من القدر المروِّع يجرف الأحياء بالآلافْ».

ولكني أصيخ إلى النهار فأسمع العراف

يهدِّد: «سوف يهلك من عليها، سوف تلتهبُ.

وتسرب في دمي جِنّه.

وحين رقدتُ أمسِ رأيتُ في ظلَموتِ أحلامي

رؤى تتلاحق الأنفاس منها ثمَّ تنقطعُ

أفقتُ وما تزال تضيء في خَلَدي وتندلعُ

كما يتفجّر البركان في ظلمات ليل دون أنسامِ،

بلا قمر وإنْ يك في المحاق أكاد أُقتلعُ

أكاد أمزق الدم في عروقي بارتعادة روحيَ الحيرى...

أكاد أعانق القبرا.

أرى أفقاً وليلاً يطبقان عليّ من شُرفه

ولي ولزوجتي، في الصمت، عند حدودها وقفه

نحدِّق في السماء ونمنع الطفلين من نظرِ

إلى ما في دجاها الراعب المأخوذ من سقرِ،

تطفّأت الكواكب وهي تسقط فيه كالشررِ

تطفّأ تحت ذيل الريح وهي تسُفّه سفّا،

كأنّ عصاً تسوق مواكب الأفلاك في صحراء من ظُلَمِ،

ويلهث تحتنا الآجرُ، يزحف تحتنا زحفا...

تضعضع فهو يُمسِك نفسه ويئن من ألمِ

ليهويَ حين يغفل، حين يعجز ثمَّ ينهارُ:

دجىً نُثرت بها نارُ.

بنيّ إليك صدري، فيه فادفنْ وجهك الطفلا

بنيّ صهٍ أقصّ عليكَ... أيّة قصّة عندي؟

تفجَّرت الفقاعة وانتهى أبَدٌ إلى حدِّ:

علام أتيتَ للدنيا؟

ليدركَ عُمْرُك الليلا؟

لتحيا أربع السنوات ثمَّ لتبصر الساعه

تقوم ولست تُدرك ما تراه؟ تريد أن تحيا

وتجهل أن موتك فيه بعثُك، أنَّ للدنيا

نهاية سلمٍ يفضي إلى أبدٍ من الملكوت.

قلبُك؟ آه... من راعه؟

بكاؤك وارتعابك فيهما الله إحراجُ

وباسمهما أسائله الحساب: أتصرع الأطفال

لتشهد لوعة الآباء. تسعد قلبك الآمال

تخيب!!

يكاد يهوي من صراخي عنده التاجُ

ويُهدم عَرْشُهُ ويخرّ، تُطفأ حوله الآباد والآزال

ويقطر لابن آدم قلبه ألماً وينفطرُ.

بغداد 1961/11/26

ذهبتِ

ذهبتِ فاستحال بعدكِ النهارْ

كأنه الغروبْ،

كأنما سحبتِ من خيوطه النِّضار.

وظلّل المدارج انكسارْ

ومثلَها انكسرتُ، غام في خيالي الجنوبْ

ينوء بالخريفْ

تعرَّت الكروم والجداول انطفأنَ، والحفيفْ

يموت في ذرى النخيل، والدروب،

بصمتها، انتظار.

كحّل عينيك سوادُ نار

تشبّ من قلبكِ، من براعم النهود،

يهتف بي إذا نظرتِ: أنتِ في استعار

يا أيُّها البركان من ورود.

أوّاه لو أشدّ عينيك إلى النهار،

إلى غدٍ فوق دمي يحومْ.

أيُّ سماء أشعلتها رعشة النجومُ

وأثقل الظلام فيها من ندى المطرْ

نظرت من قرارها إليّ، كالغيوم

تكنُّ في اربدادها الزهر!

يا نظرة تخطّفتني ريحها السموم

إلى الضفاف الخضر من نهر

غرقتُ فيه، أشعليني! أطفئي اللهيب

يا نظرة يشد قلبي بالسما وتر

يعزف مرّها عليه غنوة القمر.

1962/1/20

يا نـهر

يا نـهر عاد إليك من أبد اللحود ومن خواء الهالكين

راعيك في الزمن البعيد، يسرّح البصر الحزين

في ضفتيك ويسأل الأشجار عندك عن هواه

أوراقها سقطت وعادت ثمَّ أذبلها الخريف

وتبدلت عشرين مرَّه.

هيهات يسمع، إذ توسوس في الدجى، أصداء آه

بالأمس أطلقها لديك ترنُّ في جرس الحفيف.

كم قبلةٍ عادت دوائر في مياهك مستسرَّه،

دنياه كانت أمس فيك، فهل تعود إلى الحياه؟

ليودَّ من شغفٍ بمائك لو غدا

ظلاً يداعب فيه جنيّاتِهِ

متعلقاً بشراع كلّ سفينةٍ

ليجاذب الملاح أغنياتِه

وتلوذ أنوار النجوم بصدره

وتراقصُ الأمواج من ضحكاته.

ما أخيب الموتى إذا رجعوا إلى الدُّنيا القديمه

وتلصصوا يتطلعون كما تطلّع من كُوى دارٍ شريدُ

ورأى ثمار الجمر سالَ عصيرها دفئاً وجال عبيرها المهدودُ

ما أخيب الموتى تكاد تحيل موتهمُ الهزيمه

شيئاً أمرّ من الحياه.

ما أخيب الموتى! تغير كلّ شيء، كلّ باقِ

ممَّا أطلّ على الحياة لأنهم كانوا كُواه،

أم مات ما عرفوه إذ ماتوا، فليس سوى رؤاه؟

فتكبَّدوا ألمَ الفراقِ،

ألم التغرُّب مرَّتينِ. فيا ضفاف النهر، يا أمواجه ومحاره

ماذا تبقّى فيكِ من أمس الهوى؟

الدوح أسلم للبلى ورقاتِهِ

وهي الَّتي سمعت لديك حواره

وهي الَّتي أودعتُ فيها، في الضحى،

قبلاتنا وطويت فيها ناره،

إني ذويتُ مع الظلام كما ذوى

يا ليت لي شفة فتلثم أو يداً فتمسَّ ماءَك.

إني لأكثر من غريب غربةً وأشد حيْره؛

لم يبق فيك سوى الزَّمان، وليس ممَّا فيك قطره

من ماء أمس. كأن فجرَك عادَ قبل غدٍ مساءَكْ

وكأن ضفتك الحبيبة ضفّة الأبد البعيدِ.

يا نهر إن وردتْك «هالةُ» والربيع الطلق في نيسانِه

ولّى صباها فهي ترتجف الكهولةَ، وهي تحلم بالورود

في حين أثقلها الجليدُ، كأن نبعاً في اللحود

تمتص منه عروقها دمها، فقل: لم ينس عهدك

وهو في أكفانِهِ؟.

أبو الخصيب 1962/2/2

صياحُ البطِّ البريّ

وذرّى سكونَ الصباحِ الطويلْ

هُتافٌ من الدِّيك لا يصدأُ

وهزّ الصدى سَعَفاتِ النخيلْ

وأشرقَ شبَاكُنا المطفأُ.

هتافٌ سمعناهُ منذ الصِّغَرْ

سمعناهُ حتَّى نموتْ

يمرُ على عَتَبَاتِ البيوت

فيرسمُ أبوابَهَا والحُجَرْ

ولا يهدأُ

إلى أنْ تسيرَ الحقولْ

إلينا فنقطفَ منها الثمرْ

* * *

وعند الضحى وانسكابِ السماء

على الطِّين والعُشْبة اليابسه،

يشقُّ إلينا غصونَ الهواء

صياحٌ، بكاءٌ، غناءٌ، نداء

يُبشّر شطآننا اليائسه

بأنّ المَطَرْ

على مَهْمهِ الرِّيح مدَّ القلوعْ،

هو البطُّ... فَلْتهنأي يا شموعْ

بموتٍ به تعرفين الحياةَ

به تعرفين ابتسامَ الدموعْ:

نذوراً تذوبين، للأوْلياءْ.

* * *

صياحٌ... كأنّ الصِّياحْ

ينشِّرُ، ممَّا انطوى من رياح،

سهولاً وراء السهولْ

أزاهيرُها في الدجى من نباح

وعند النهار خُزامى، أقاحْ

وختميّةٌ ما لها من ذبول...

ينشِّرُ في شاطئٍ مُشمسِ

من القَصَبِ الكثِّ غاباً له عَذَبات تطولْ.

صياحٌ كأجراس ماءٍ... كأجراس حقْلٍ من النرجسِ

يُدنْدِنُ والشمسُ تُصغي، يقولْ

بأنّ المطرْ

سيهطلُ قبل انطواء الجناح

وقبل انتهاء السّفَرْ...

1962/3/18

المعبدُ الغريق

خيولُ الريح تصهلُ، والمرافئُ يَلْمسُ الغَرْبُ

صواريَها بشمس من دمٍ، ونوافذُ الحانَه

تراقَصُ من وراءِ خِصاصها سُرُجٌ، وجَمع نفْسَه

الشرْبُ

بخيْط من خيوط الخوْف مشدوداً إلى قنّينةٍ، ويمدّ آذانه

إلى المتلاطم الهدّار عند نوافذ ألحانهْ.

وحدّث - وهو يهمس جاحظْ العَيْنَيْن، مرتعدا،

يعبّ الخمْرَ - شيخٌ عن دجىً ضافٍ وأدغال

تلامحَ وَسْطَها قَمَرُ البحيْرةِ يلثم العَمَدا...

يمسّ البابَ من جنبات ذاك المَعْبَدِ الخالي

طواهُ الماءُ في غَلَسِ البحيرةِ بَيْن أحراش مبعثَرةٍ

وأدغالِ،

* * *

هنالك قَبْلَ ألْفٍ، حينَ مجّ لظاه من سَقَرٍ

فمٌ يتفتّح البُرْكان عنه فتنفضُ الحُمّى

قرارةَ كلّ ما في الوادِ من حَجَرٍ على حَجرٍ،

تفجَّر باللظى رَحِمُ البحيرة ينثر الأسماكَ والدمَ،

مُرْغياً سُمّا

وقرَّ عليه كلكلُ معبدٍ عصفتْ به الحمّى.

تطفّأ في المباخر جمْرُها وتوهَجَ الذَهَبُ

ولاح الدُرّ والياقوت أثماراً من النورِ،

نجوماً في سماء الماء تزحفُ دونها السّحبُ

تمرّغُ فوْقَها التمساحُ ثمّ طفا على السورِ

ليحرس كنزَه الأبديَّ حتى عن يد الظلماء والنور.

* * *

وأرسى الأخْطبُوطُ فنارَ مَوْتٍ يرصدُ البابا،

سجا في عينِه الصّوْراء صُبْحٌ كان في الأزَلِ...

تهزّأ بالزمان، يمرّ ليْلٌ بعد ليلِ وهو ما غابا

ففيمَ غرورُ هذا الهالكِ الإنسان، هذا الحاضر المشدود

بالأجَلِ؟

أعُمَّرَ ألْفَ عامٍ؟ ليته شهد الخلائق وهي تعبر شُرْفَةَ الأزَلِ؟

* * *

ألا يا لَيْتَه شهِدَ السلاحِفَ: تسحقُ الدُّنيا

قياصَرها، ويمنع دِرْعُها ما صوّبَ الزَمنُ

إليها من سهام الموت!

لكنّ الَّذي يحيا

بقلْبٍ يعبر الآبادَ، يكسر حدّه الوَهَنُ

فيصمتُ، عُمْرُه أزَلٌ يمسُّ حدودَه أبَدٌ من الأكوان

في دنيا

هنالك ألْفُ كنزٍ من كنوزِ العالَم الغرْقى

ستُشبعُ ألْفَ طفْلٍ جائعٍ وتُقيل آلافاً من الداءِ

وتُنقذُ ألف شعْبٍ من يد الجلّاد، لو تَرْقى

إلى فَلَكِ الضمير!

أكلّ هذا المال في دنيا الأرقّاءِ

ولا يتحرّرون؟ وكيف وهو يُصفِّدُ الأعناقَ،

يربطها إلى الداءِ؟

كأنّ الماء في ثَبج البحيرة يمنع الزمنا

فلا يتقحَّم الأغوارَ، لا يخطو إلى الغرفِ

كأنّ على رتاج الباب طلسمَه، فلا وسنا

ولكنْ يقظةٌ أبَدٌ، ولا مَوْت يحدّ حدودَ ذاك الحاضر

الترِفِ

كأن تهجُّدَ الكُهّان نبْعٌ في ضمير الماء يدفق منه

للغُرَفِ.

إذنْ ما عاد من سَفَرٍ إلى أهليه عوليسُ...

إذن فشراعه الخفّاقُ يزرع فائرَ الأمواجْ

بما حَسَب الشهورَ وعدّ حتَّى هدّهُ البؤسُ.

فيا عوليس... شابَ فتاك، مَبْسم زَوْجِكَ الوهّاج

غدا حَطَباً. ففيم تعود، تفري نحو أهلك أضلعَ الأمواجْ

هلُمّ فماء شيني[261] في انتظارك يحبس الأنفاسْ

فما جرحتْه نَقْرةُ طائرٍ أو عكرته أناملُ النّسمِ.

* * *

هلُم فإنّ وحْشاً فيه يحلم فيكَ دونَ الناسْ

ويخشى أن تفجّرَ عَيْنَه الحمراءَ بالظلمِ

وأنَّ كنوزَهُ العذراء تسأل عن شراعك خافقَ النّسَمِ.

أما فجعتْك في طروادةَ الآهاتُ من جَرْحى

ومحتضرين؟

يا لدمٍ أريقَ فلطّخ الجدْرانْ

وردّ ترابَها الظمآن طيناً، ردّه جُرْحا

كبيراً واحداً، جرْحاً تفتح في حشا الإنسان

ليصرخَ بالسماء.

فيا لصوتٍ ردّدته نوافذُ الحجُرات والجدران:

* * *

«لأجْلِ فُجورِ أُنثى واتِّقادِ مُتوَّجٍ بالثارْ

تخضّبَ من دمِ المُهُجات حتى سُلّمُ الأفقِ،

وحلّ بلا أوانٍ يوْمُنا، وتساوتِ الأعمار

كزرعٍ منه ساوى منجلٌ...

وهناك في الشّفقِ

تنوحُ نساؤنا المترمِّلاتُ، يُوَلوِل الأطفال عند مدارج الأُفُقِ»

* * *

هلمَّ فقد شهدتُ، كما شهدتَ، دماً وأشلاءا:

تفجَّر في بلادي قُمْقُمٌ ملأتْه بالنارِ

دهورُ الجوع والحرمان

أيَّ خليقةٍ قاءا؟

رأيْنا أنَّ أفئدةَ التّتار، وأذْؤبَ الغارِ

أرقَ من الرّعاع القالعينَ نواظرَ الأطفال والشاوينَ بالنار

شفاهَ الحَلْمةِ العذراء.

يا نَهْراً من الحِقْدِ

تدفَقَ بالخناجر والعِصيِّ، بأعْينٍ غضبى:

نجوماً في سماء شدّها قابيلُ بالزَنْدِ.

فليْتك حين هزّ المؤصِلَ الأعصارُ (لا دَرْبا

ولا بيتاً، ولا قبْراً نجا فيها) شهدتَ الأعْيُنَ الغَضبى

وَلَيْتَك في قطارٍ مرّ حين تنفّس السّحَرُ

فقصّ، على سرير السكّة الممدود، أمراسا[262]

تعلّقَ في نهايتهنّ جِسْمٌ يحصدُ النَّظَرُ

عليه الجُرْحَ بعد الجُرْح بعد الجرح أكْداسا

ليهويَ جسم «حفصة[263]» لابساً فوق النجيع دماً

وأمراسا.

وفيمَ نخافُ في ثَبَجِ البحيّرة أو حفافيها

كواسج[264] ضارياتٍ أو تماسيحَ التظتْ لَهبا

نواجذُها الحديدة؟ فيم تَخشى كلّ ما فيها؟

فإنّ عقارب الرقّاع[265] يُضمر سمّها العَطَبا

وتزرع في الجسوم أزاهرَ الدم والجراحَ بلا دمٍ لهَبا

* * *

هلُمّ نشقّ في الباهَنْج[266] حقلَ الماء بالمجذافْ

وننثر أنْجُمَ الظلماء، نُسقطُها إلى القاعِ

حصىً ما ميّزتْه العيْنُ عن فَيْروزه الرفْاف

ولؤلؤهِ المنقّطِ بالظلام.

سنُرعب الراعي

فيُهرع بالخرافِ إلى الحظيرةِ خَوْفَ أن يغرقْنَ في القاعِ.

* * *

هلُمّ فَلَيْلُ آسيةَ البعيد مداه، يدعونا

بصوتٍ من نُعاس، من ردىً، من سجْع كُهّانِ.

هلُمّ... فما يزال الدهرُ يُطوى بين أيدينا.

لنطْوِ دُجاه قبل طلوع شمسٍ دونَ ألوانِ

تبدِّد عالَم الأحلام، تُخْفِتُ - إذْ يرنُّ التِّبْرُ فيها -

سَجَعَ كُهّانِ!

* * *

يجول التِّبْرُ فيها مثل وَحْشٍ يأكلُ الموْتى

ويشرب من دم الأحياء، يسرق زادَ أطفالِ

ليتّقدَ اللظى في عَيْنه، ليُعيره صَوْتا

يحطِّمُ صوتَ كلّ الأنبياء هناك.

يا لرنين أغلالِ

ويا لصدىً من الساعات، بالأكفان مسَّ رؤوسَ أطفالِ

وفل عناقَ كلّ العاشقين، ودسَّ في القُبْله

مُدىً من حَشْرجات الموت، ردّ أصابعَ الأيْدي

أشاجعَ غابَ عنها لحمها، وستائرُ الكُلّه[267]

يحوِّلُها صفائح تحتها جُثثٌ بلا جِلْدِ

هلُمَّ فبَعْدَ ما لمح المجوسُ الكوكب الوهّاج تُبْسَطُ

نحوه الأيدي

ولا ملأت جِرَاءَ[268] وصُبْحَه الآياتُ والسّوَرُ.

هلُمَّ فما يزال زيوس يصبغ قمَّة الجَبَلِ

بخمرتِه، ويُرسل ألف نسْرٍ نزّ من أحداقِها الشَّرَرُ

لتخطف من يُدير الخمر[269] يحمل أكؤسَ الصهباء

والعَسَلِ

هلُمَّ نزور آلهةَ البحيرة،

ثمَّ نرفعُها لتسكن قمَّةَ الجبلِ

البصرة 1962/2/17

أفياء جيكور

نافورة من ظلالٍ، من أزاهيرِ

ومن عصافيرِ...

جيكورُ، جيكورُ، يا حَقلاً من النور

يا جدولاً من فراشاتٍ نطاردها

في الليل، في عالم الأحلام والقَمَرِ

ينشرْنَ أجنحة أندى من المطرِ

في أوْل الصيف.

يا بابَ الأساطيرِ

يا بابَ ميلادنا الموصولَ بالرحِمِ

من أين جئناكِ، من أيّ المقاديرِ؟

من أيِّما ظُلَمِ؟

وأيّ أزمنةٍ في الليل سرناها

حتَّى أتيناك أقبلنا من العَدَمِ؟

أم من حياة نسيناها؟

جيكورُ مسّي جبيني فهو ملتهبُ

مسِّيه بالسَعَف

والسنْبل الترِفِ.

مُدِّي عليَّ الظلالَ السمْرَ، تنسحبُ

ليلاً، فتخفي هجيري في حناياها.

* * *

ظلٌّ من النخْل، أفياء من الشَّجَرِ

أندى من السَّحَرِ

في شاطئ نام فيه الماء والسُّحبُ...

ظلٌّ كأهداب طِفلٍ هدّه اللعِبُ،

نافورة ماؤها ضوء من القَمَر

أودّ لو كان في عينيّ ينسربُ

حتَّى أحسّ ارتعاش الحُلم ينبع من روحي وينسكب

نافورة من ظلالٍ، من أزاهيرِ

ومن عصافير...

* * *

جيْكورُ... ماذا؟ انمشي نحن في الزّمَنِ

أم أنَّه الماشي

ونحن فيه وقوفٌ؟

أين أوّلَه

وأين آخرُه؟

هل مرّ أطوَله

أم مرّ أقصره الممتدّ في الشّجَنِ

أم نحن سيَّانِ، نمشي بين أحراشِ

كانت حياةَ سوانا في الدياجيرِ؟

هل أنَّ جيكور كانت قبل جيكورِ

في خاطر الله... في نبْعٍ من النور؟

جيكور مدّي غِشاءَ الظلِّ والزهَرِ،

سُدّي به باب أفكاري لأنساها.

وأثقلي من غصون النوْم بالثمَرِ

بالخوْخ والتين والأعناب عاريةً من قِشرها الخِصرِ.

رُدِّي إليَّ الَّذي ضيّعْت من عُمُري

أيَّام لهْوي.. وركضي خَلفَ أفراسِ

تعدو من القَصَص الريفيِّ والسّمَرِ؛

ردِّي أبا زَيْدَ، لم يصحب من الناسِ

خلاً على السفَرِ

إلَّا وما عاد.

ردِّي السندباد وقد ألقته في جُزُرِ

يرتادها الرخُّ ريحٌ ذات أمراسِ

* * *

جيكورُ لُمِي عظامي، وانفضي كفَني

من طينِهِ، واغسلي بالجدْوَل الجاري

قلبي الَّذي كان شبّاكاً على النارِ.

لوْلاكِ يا وطني،

لولاكِ يا جنَّتي الخضراء، يا داري

لم تَلقَ أوتاري

ريحاً فتنقل آهاتي وأشعاري،

لولاكِ ما كان وَجْهُ الله من قدري

أفياءُ جيكورَ نبْع سال في بالي

أبلَ منها صدى روحي...

في ظلّها أشتهي اللقيا، وأحلم بالأسفار والرّيحِ

والبحر تقدح أحداق الكواسج[270] في صخّابه العالي

كأنها كِسَرٌ من أنجمٍ سقطتْ

كأنها سُرُجُ الموْتى تقلبُها أيدي العرائس من حالٍ

إلى حالِ.

أفياءُ جيكور أهواها

كأنها انسرحتْ من قبرها البالي،

من قبر أمي الَّتي صارت أضالعها التعبى وعيناها

من أرض جيكور... ترعاني وأرعاها.

جيكور 1962/3/17

الشاعرُ الرجيم

«إلى شارل بودلير»

حملتَ للنزِال سيفك الصديءْ

يهتز في يدٍ تكاد تُحرق السماءْ

من دمها المتقد المضيء،

تريدُ أن تمزّق الهواء.

وتجمعُ النساء

في امرأةٍ شفاهُها دمٌ على جليدْ

وجسمها المخاتل البليد

أفعى إذا مشت، وسادة على الفراش...

لا تُريدْ

أن تفتح الكوى ليدخل الضِّياء

كيْ لا تُحسّ أنها خُواء.

ويرفع الشَّرْقُ أمام عينك الستورْ،

توشك أن تعانقَ الجمَال عند سُدَّة الإله،

تكاد أن تراه

يهفُّ وسْطَ غيْمةٍ من عَبَقٍ ونور.

تراه في حَلمة نَهْدٍ توقد النجومْ

بجمرةٍ لها...

رأيتَه يقوم

من قبره، تحمله سحابةُ الدّخانْ

ينام تحت ظلِّها الفقير والشريد:

فهو أميرٌ حوله الكؤوسُ والقيان،

وبيْته العتيد

جزيرةٌ من جُزر المرْجان

كأنّ بحراً غاسلاً لسبوس[271] بالأجاج

تشربه روحك من صدىً إلى القرارْ

كأن سافو أورثتك من دم العروق نار،

وأنت لا تضمّ غير حُلْمِك الأبيدْ

كمن يضمّ طيْفَه المُطلّ من زجاجْ:

حُرْقةُ نرسيس، وتنتلوسُ[272] والثمارْ!

كانّ أفريقيةَ الفاترة الكسولْ

(أنهارُها العراضُ والطبول

وغابُها الثقيلُ بالظلال والمطرْ،

وقيْظُها النديّ... والقَمَر)

تكورتْ في امرأةٍ خليعة العذار

رضعتَ منها السُمّ واللهيبْ،

قطرْتَ فيها سُمّك الغريب...

كأنّها سحابةُ الدخانِ والخَدَرْ

أقمتَ منها، بين عالم تَشدّه نوابضُ النّضار

وبين عالمٍ من الخيال والفِكَرْ،

من نشوةٍ جدار

تقبع خلف ظلّه فلا ينالُكَ البَشَر.

دخلتُ، من كتابك الأثيم،

حديقةَ الدم الَّتي تؤجُّ بالزّهَرْ،

شربتُ من حروفه سلافةَ الجحيم

كأنّها أثداء ذئبةٍ على القفار

حليبُها سُعار

وفيْئُها نعيم.

غرقتُ فيه، صَكّني العُبابْ

يقذفني من شاطئٍ لشاطئٍ قديم،

حملتُ من قرارهِ محارةَ العذاب

حملتُها إليْكْ

فمُدَّ لي يديْك

وزحزِحِ الصخورَ والتراب.

البصرة 1962/3/24

لأنّي غريب

لأنّي غريبْ

لأنّ العراقَ الحبيب

بعيدٌ، وأنّي هنا في اشتياقْ

إليْه، إليْها... أُنادي: عراق

فيرجع لي من ندائي نحيب

تفجّرَ عنه الصدى

أحسُّ بأني عبرتُ المدى

إلى عالمٍ من ردى لا يجيب

ندائي؛

وإمّا هززْتُ الغصونْ

فما يتساقطُ غَيْرُ الردى:

حجارْ

حجارٌ وما من ثمار،

وحتَّى العيون

حجارٌ، وحتّى الهواء الرطيب

حجارٌ ينَدِّيه بعضُ الدمِ.

حجارٌ ندائي، وصَخْرٌ فمي

ورجْلاي ريحٌ تجوبُ القفار.

بيروت 1962/4/15

ابن الشهيد[273]

وتراجع الطوفان، لملمَ كلّ أذيال المياه

وتكشّفت قمم التلال، سفوحها، وقرى السهول،

أكواخها وبيوتها خِربٌ تناثر في فلاه.

عركت نيوب الماء كلّ سقوفها ومشى الذبول

فيما يحيط بهنَّ من شجر... فآه

آهٍ على بلدي، عراقي: أثمر الدم في الحقول

حسكاً، وخلّف جرحه التتريَّ ندباً في ثراه.

يا للقبور كأن عاليها غدا سفلاً وغار إلى الظلام

مثل البذور تنام في ظلم الثمار ولا تفيق.

يتنفس الأحياء فيها كلّ وسوسة الرغام،

حتَّى يموتوا في دجاها مثلما اختنق الغريق.

جثث هنا، ودمٌ هناك...

وفي بيوت النمل مدَّ من الجفون

سقف يقرمده النجيع، وفي الزوايا

صفر العظام من الحنايا.

ماذا تخلّف في العراق سوى الكآبة والجنون؟

أرأيت أرملة الشهيد؟

الزوج مد عليه من ترْبٍ لحافاً ثمَّ نام

متمدداً بأشد ما تجد العظام

من فسحة: سكنت يداه على الأضالع،

والعيون

تغفو إلى أبد الإله، إلى القيامة: في سلام

رمت الرداء العسكريَّ ونشّرته على الوصيد...

لثمته، فانتفض القماش يرد برد الموت،

برد المظلمات من القبور.

يا فكرها عجباً... ثقبت بنارك الأبد البعيد،

يا فكر شاعرة يفتش عن قوافٍ للقصيد

ماذا وجدت وراء أمسي وعَبْرَ يومك من دهور؟

«الثأر» يصرخ كلّ عرق، كلّ باب

في الدار. يا لفمٍ تفتَح كالجحيم... من الصخور،

من كلّ ردن في الرداء، من النوافذ والستور،

من عيني ابنك، يا شهيد، تسائلان، بلا جواب،

عنك الأسرة والدروب، وتسألان عن المصير،

مذ ألبسته الأم ثوبك في معاركك، الأثير

ويداه في الردنين ضائعتان، والصدر الصغير

في صدرك الأبوي عاصفة تغلف بالسحاب

ورنا إلى المرآة

أبصرَ فيه شخصك في الثياب.

- «ابني كان أبوك نبعاً من لهيب، من حديد،

سوراً من الدم والرعود،

ورماه بالأجل العميل فخرَّ - واهاً - كالشهاب،

لكن لمحاً منه شع وفض أختام الحدود

وأضاء وجه الفوضوي ينز بالدم والصديد

وكأن في أفق العروبة منه خيطاً من رغاب».

وتنفس الغد في اليتيم ومد في عينيه شمسهْ

فرأى القبور يهب موتاهن فوجاً بعد فوجِ

أكفانها هرئت...

ولكن الَّذي فيها يضم إليه أمسهْ

ويصيح «يا للثار... يا للثار...»

يصدي كلّ فجِّ

وترنّ أقبية المساجد والمآذن بالنداء.

وينام طفلك وهو يحلم بالمقابر والدماء.

البصرة 1962/3/9

فرار عام 1953

في ليلةٍ كانت شرايينها

فحماً، وكانت أرضُها من لحود

يأكل من أقدامنا طينُها،

تسعى إلى الماءِ،

إلى شراعٍ مزقته الرعود

فوق سفينٍ دون أضواءِ،

في الضفة الأخرى... يكاد العراق

يومئ؟ يا أهلاً بأبنائي

لكنّنا، واحسرتا، لن نعود

أواهُ لو سيكارةٌ في فمي

لو غُنْوَةٌ... لو ضمَّةٌ، لو عناق

لسَعْفةٍ خضراءَ أو بُرعم

في أرضيَ السكرى برؤيا غدِ.

إنّا مع الصبح على موعِدِ

رغم الدجى... يا عراق!

ريفٌ وراء الشطّ بين النخيلْ

يغفو على حُلمٍ طويل طويل،

تثاءبتْ فيه ظلالٌ تسيل

كالماء بين الماء والعُشبِ.

يا ليتَ لي فيهِ

قبراً على إحدى روابيهِ،

يا لَيتني ما زلت في لعبي

في ريف جيكورَ الَّذي لا يميل

عنه الربيعُ الأبيضُ الأخضرُ:

السّهْل يندى والرّبى تُزهرُ.

ويطفئ الأحلام في مقلتي

- كأنها منفضةٌ للرمادْ -

هَمسٌ كشَوكٍ مسّ من جبهتي

يُنذر بالسارين فوقَ الجياد

سنابك الخيْل مساميرُ نارْ

تدقّ تابوت الدجى والنهار:

ناطورةٌ[274] تحرس كرْمَ الحدود

أثقلَ طينَ الخوف ما للفرار

من قدم تدمى... ومدّ السّدود.

أمن بلادي هاربٌ: أيّ عار!!

وارتعشَ الماءً وسار السّفينْ

وهبَّتِ الريحُ من الغَرْبِ

تحمل لي دَرْبي...

تحمل لي من قَبرها ذرّ طينْ،

تحمل جيْكورَ إلى قلبي.

يا ريحُ يا ريحُ

توهَّجتْ فيكِ مصابيحُ

من ليل جيكور، أضاءت ظُلمةَ السفينْ

لأبصرَ الأعينَ كالشُهْب

تلتمّ حَوْلي، لأراها تلين!

وأنجُمُ الشطّ زهورٌ كبارْ

أوشكْتُ أن أُبصَر سيقانها

تمتدّ في الماء، تمسّ القرار،

لَمْلَمَ فجرُ الصيف ألوانها

كأنّها أوجُهُ حورٍ تحار

فيها تباريحُ الهوى والحياءْ...

كأنَّها زنبقُ نارٍ وماء.

البصرة 1962/3/21

جيكور شابت

ما نفضْتُ الندى عن ذرى العُشْب فيها،

ما لثمتُ الضبابَ الَّذي يحتويها،

جئتُها والضّحى يزرع الشمس في كلّ حَقل وسطْحِ

مثلَ أعواد قَمْحِ.

فرّ قلبي إليها كطَيرٍ إلى عُشَه في الغروب.

هل تُراهُ استعاد الَّذي مرّ من عُمْرِهِ، كلّ جُرْحٍ وابتسامٍ؟

أبعد انطفاءِ اللهيب

يستطيع الرماد اتِّقاداً؟ ومن أين؟ من أيِّ جَمْرَه؟

يا صباي الَّذي كان للكون عطراً وزهْواً وتيها...

كان يومي كعامٍ، تعدُّ المسرَه

فيه نبْضاً لقلبي تفجّر منها على كلّ زهره.

كانت الأرض تلقى صباها لأوّل مرّه...

كان قابيلُها بذرةً مُسْتسِرّه...

كان للأرض قلبٌ، أُحسُّ به في الدروب،

في البساتين، في كلّ نهرٍ يُروّي بنيها.

آه جيكور، جيكور...

ما للضّحى كالأصيلِ

يسحب النُّور مثلَ الجناح الكليل؟

ما لأكواخكِ المقفرات الكئيبه

يحبس الظلُّ فيها نحيبَه؟

أين أيْنَ الصبايا يوسْوسْنَ بين النخيل

عن هوىً كالتماع النجوم الغريبه

أو يجرّرْنَ أذيالهن الَّتي لوَّنتْهنَّ أقمار صَيْف

أو شموسٌ خريفيَّةٌ، عند شطٍّ ظليلِ

والشّفاهُ ابتساماتُ حبٍّ وخَوْف؟؟؟

عجائزُ أو في القبور...

عجائزُ يغزلْنَ حول الصِّلاء

ويروينَ، عَبْرَ الكرى والفتور،

أقاصيصَ عن جنّةٍ في بيوتٍ خُواءْ،

لأحفادهنَّ اليتامى.

وجيكور شابتْ وولى صباها

وأمسى هواها

رماداً، إذا ما

تأوَّهْنَ هزّته ريح...

أثارته حتَّى ارتمى في صداها

هباء وذرّاً تضيقُ الصدور

به عن مداها.

أين جَيْكورُ؟

جيكور ديوانُ شعري،

موعدٌ بين ألواح نعشي وقبري

كرْكرات المياه الَّتي كسّر الشمس منها ارتجافُ،

والأنينُ الَّذي منه كنا نخافُ

صاعداً مثل مدّ تنزّ القبور

عنه، والشمس تمتصّ من كلّ نهر،

ودرابك في الأرض تنقرهنّ البذور

وهي تنشقّ في كلّ فجْرِ -

ذكرياتٌ... كما يترك الصوت من ميّت

في خيال رنينه

مثلُ نايٍ تشظّى وأبقى أنينه.

إيه جيكور، عندي سؤالٌ، أمَّا تسمعينه؟

هل تُرى أنتِ في ذكرياتي دفينه

أم تُرى أنتِ قبر لها؟ فابعثيها

وابعثيني

وهيهات! ما للصِّبى من رجوعِ.

إن ماضيَّ قبري وإني قَبْرُ ماضيَّ:

موتٌ يمدّ الحياة الحزينَه؟

أم حياةٌ تمدّ الرَّدى بالدموع؟

* * *

ما نفضتُ الندى عن ذرى العشب فيها.

جيكور 1962/4/2

احتراق

وحتى حين أصهرُ جسمَك الحجريّ في ناري

وأنزع من يديكِ الثلج، تبقى بين عينينا

صحارى من ثلوج تُنهك الساري،

كأنك تنظرين إليّ من سُدُمٍ وأقمارِ،

كأنّا، منذ كنّا، في انتظارٍ ما تلاقيْنا.

ولكنّ انتظار الحبّ لُقيا... أين لقيانا؟

تمزّقَ جسمُك العاري...

تمزق، تحتَ سقْفِ الليل، نَهْدُكَ بين أظفاري...

تمزقَ كلّ شيءٍ من لهيبي، غيرَ أستارِ

تحجّبُ فيك ما أهواهْ.

كأنّي أشرب الدمَ منك ملْحاً ظلّ عطشاناً

من استسْقاه. أين هواكِ؟ أين فؤادك العاري؟

أسدّ عليك بابَ الليل ثمَّ أُعانقُ البابا

فألثمُ فيه ظلّي، ذكرياتي، بعض أسراري...

وأبحثُ عنك في ناري

فلا ألقاكِ، لا ألقى رمادك في اللّظى الواري.

سأقذف كلّ نفسي في لظاها، كلّ ما غابا

وما حضرا.

أريدُك فاقتليني كي أُحسِّكِ.

واقتلي الحجرا

بفيض دمٍ، بنارٍ منك... واحترقي بلا نارِ؟

بيروت 1961/10/26

سهر

سهرتُ فكل شيء ساهرٌ: قدماي والمصباحْ

وأوراقي.

أنا الماضي الَّذي سدّوا عليه البابَ، فالألواح

غدي والحاضر الباقي.

أنا الغد في ضمير الليل، مدّ الليل ألفَ جناح

عليه، فطار، لما طار، بالظلماء والشّهْبِ.

أصخْتُ السّمعَ والظلماء حولي بوقُ سياره

يبثّ إلى البغيِّ رسالةَ الحبِّ

ويومئ للسكارى: أن تعالوا، ألفُ خمّاره

تكشر، تفرج الساقين، تقطع نَومةَ الدرب

بوَهوهةِ النيون.

أصختُ والظلماء صفارة

وخطوةُ حارسٍ...

فذكرتُ نهر القرية المكسالْ

يسيل لكي يعيش، لكي يموت، يمصَّه الجزْرُ

فيعرى جَرْفُهُ الطينيُّ حتَّى يُقبلَ الفجرُ

فيحمل في سناه المدّ، يحمل زورقاً يختال

بصيادٍ يُعدُّ شباكه ويرود في الماء

مساربَ كلّ ناعسةٍ من الأسماكِ خضراءِ.

ذكرتُ مقابر الأطفال

تلوذ بكلّ سفحٍ، نام فيها دون أثداءِ

ولا قُمْطٍ، صغارٌ من حصاد الجوع والداءِ

لقد رضعوا من الثدي الَّذي لم تُبله الأجيالْ

وناموا في حمى الأمِّ الَّتي لا يستوي الأطفال

ولا الأشياء إلَّا في حماها، في حمى تَرَبٍ وظلماءِ.

سهرت الليل في بيروت، لا بين المواخيرِ

(كهوف العالم المتحضِّر المغسول بالنور)

هنا يتوكأون على العظام ليصعدوا أفقاً من النشوه،

لينحدروا إلى فجوه

تثاءبَ ظلُّها وأصيلها بين الدياجير

وبين منابع الأضواء،

تثاءب ظلّها وأصيلُها بين العقارب والسنانير

وبين المُسرج الظلماء

والممتدِّ حتَّى االله في القدْس وفي سيناء.

سهرت يرنّ صورُ الموت في أذنيّ كالزلزالْ:

«تهدَّم حائطُ الأجيال

وكاد يغور إذ لمسته كفيّ، ألفُ نوحٍ زالْ

وألفُ زليخةٍ صيَّرتُ كحلَ عيونها ظُلْمه.

أنا الباقي بقاء الله أكتب باسمه الآجال

وما لسواه عند مطارق الآجال من حُرمه».

هنا في كلّ موتٍ ألفُ موتٍ: كان في الضمّه

وفي القبلات، في الأقداح،

تدور الأسطوانةُ وهو فيها لمعةُ الضَّوْءِ

يوَسوِسُ في تهدّج صوتِها فيُخادع الأرواح،

ويلمس جبهة الملّاح في النّوءِ.

سهرتُ لأنني أدري

بأني لن أقبِّل ذاتَ يوم وجنةَ الفجْرِ

سيُقبل مطلقاً في كلّ عشٍّ نغمةً وجناح

وسوف أكون في قبري.

بيروت 1962/4/15

الوصيّة

من مرضي،

من السرير الأبيضِ

من جاريَ أنهار على فراشه وحشرجا

يمصّ من زجاجة أنفاسَه المصفّره،

من حُلُمي الَّذي يمدّ لي طريق المقبره

والقمرَ المريضَ والدجى...

أكتبها وصيَّةً لزوجتي المنتظرة

وطفليَ الصارخ في رقاده: «أبي، أبي»،

تلمُّ في حروفها من عُمْريَ المعذَّبِ.

لو أنَّ عوليسَ وقد عاد إلى ديارهِ

صاحتْ به الآلهةُ الحاقدةُ المدمِّره

أن ينشرَ الشراعَ، أن يضلَّ في بحاره

دون يقينٍ أن يعود في غدٍ لداره،

ما خضَّه النذيرُ والهواجسُ

كما تخضُّ نفسيَ الهواجسُ المبعثره،

اليوم ما على الضمير من حياءٍ حارسُ:

أخافُ من ضبابة صفراءِ

تنبع من دمائي

تلفّني فما أرى على المدى سواها

أكاد من ذلك لا أراها،

يقصُّ جسميَ الذليلَ مِبْضَعُ

كأنه يقصَّ طينةً بدون ماءِ

ولا أُحسّ غير هبَّةٍ من النسيم ترفعُ

من طرَف الستائر الضَّبابِ

ليقطرَ الظلامُ، لستُ أسمعُ

سوى رعودٍ رنَّ في اليباب

منها صدىً وذاب في الهواءِ...

أخاف من ضبابةٍ صفراءِ!

اخاف أن أزْلقَ من غيبوبة التخديرِ

إلى بحارٍ ما لها من مرسى

وما استطاع سندبادُ حين أمسى

فيهنَّ أن يعودَ للعودِ وللشراب والزهور،

صباحها ظلامْ

وليْلُها من صخرةٍ سوداء.

من ظلِّ غيْبوبتي المسجور

إلى دجى الحِمامْ

ليس سوى انتقالةِ الهواءِ،

من رئةٍ تغفو، إلى الفضاءِ،

أخاف أن أُحس بالمبضع حين يجرحُ

فأستغيث صامتَ النِّداءِ

أصيح لا يردّ لي عوائي

سوى دمٍ من الوريد ينضَحُ.

وكيف لو أفقتُ من رقاديَ المخدَّرِ

على صدى الصور، على القيامة الصغيره:

يحمل كلُّ ميّتٍ ضميرَه

يشعُّ خلف الكفن المدثَّرِ،

يسوق عزرائيلُ من جموعنا الصّفر إلى جزيره

قاحلةٍ يقهقه الجليدُ فيها،

يصفر الهواء في عظامنا ويبكي.

ماذا لو أنَّ الموْتَ ليس بعده من صَحْوَه،

فهو ظلامٌ عَدَمٌ، ما فيه من حسٍّ ولا شعور!

أكلُّ ذاك الأنسِ، تلك الشقْوه

والطمعِ الحافرِ في الضمير

والأملِ الخالقِ من توثُّبِ الصغيرِ

ألفَ أبي زيدٍ تفور الرغْوَه

من خيله الحمراء كالهجير...

أكلُّها لهذه النهايه؟

تُرى الحِمامُ للحياة غايه؟

* * *

إقبالُ يا زوجتي الحبيبة

لا تعذليني ما المنايا بيدي

ولستُ، لو نجوْتُ، بالمخلّدِ.

كوني لغيلان رضىً وطيبه

كوني له أباً وأماً وارحمي نحيبه

وعلّميه أن يُذيلَ القلب لليتيم والفقير

وعلميه...

ظُلْمةُ النعاس

أهدابُها تمس من عيونيَ الغريبه

في البلد الغريب، في سريري

فترفع اللهيب عن ضميري...

لا تحزني إن متُّ أيُّ باسِ

أن يُحْطَمَ الناي ويبقى لحنه حتَّى غدي؟

لا تبعدي

لا تبعدي

لا...

بيروت 1962/4/19

1←

راجع مخطوطة القصيدة في ملحق قصائد بخط الشاعر، الكتاب الثاني من هذه الطبعة. (م)

2←

استثنيتُ ديوان «أزهار وأساطير» من هذا الترتيب، كونه يضمّ مختاراتٍ من ديوانين منشورين في بدايات الشاعر تاريخياً. (م)

3←

راجع الوثيقة في ملحق (4) وثائق وصور، الكتاب الثاني. (م)

4←

تجد النص الكامل لمقدّمة رفائيل بطي في الملحق الخاص بالوثائق، الكتاب الثاني من هذه الطبعة، ص 467.

5←

أعاد السياب نشر القصيدة في ديوان «أزهار وأساطير» بعد جملة من التغييرات نوردها في الهوامش التالية. (م)

6←

غيّر الشاعر الإهداء إلى «إلى مستعيرات ديواني».

7←

أبدلَ «وتحوم» بـ«وترف».

8←

أبدلها الشاعر بـ«وإذا رأين».

9←

حذف الشاعر هذا المقطع كلّه.

10←

أبدلها الشاعر بـ«لأفرَّ».

11←

حذف الشاعر المقطع كاملاً.

12←

حذف الشاعر المقطع كاملاً.

13←

حذف الشاعر المقطع كاملاً.

14←

حذف السيّاب المقطع كاملاً.

15←

الغمازة: نقرة في الخدّ من دلائل الجمال، (رصعة). (ش).

16←

من ابتسامات الهوى. (ش)

17←

الشيات: الألوان. (ش)

18←

اجتوى: كره وأبغض. (م)

19←

غين: جمع أغين، والأغين من الشجر والنبات: الأخضر والطويل. (م)

20←

سواني، نهر في أمريكا الجنوبية، وأغنية «نهر سواني» لناظمها «فوستر» من أشهر أغاني الغرب وأروعها، وهي عندي أحبُّ الأغنيات وأشهاها. (ش)

** يبدو أن التباساً وقعَ في مكان النّهر، فالصحيح أنّه يقع بين جنوبي شرق جورجيا وشمال فلوريدا في الولايات المتحدة الامريكية. (م)

21←

فرق: خوف. (ش)

22←

وردت القصيدة من دون تاريخ في الطبعة الأولى للديوان، غير أن تاريخ كتابتها ورد في كتاب «رسائل السياب» تحرير: ماجد السامرائي، والتاريخ: 1946/2/7 (م).

23←

أعاد السياب نشرها في مجموعة «أزهار وأساطير» مع جملة تغييرات، نبيّنها أدناه. (م)

24←

أصبحت في طبعة «أزهار وأساطير»: ما كانت. (م)

25←

أصبح البيت في طبعة «أزهار وأساطير» على هذا النحو: «ما كانت البسمات في عيني تطفأ بالدموع». (م)

26←

أصبحت: الخضراء. (م)

27←

حذف السياب البيت هذا والذي يليه.

28←

وردت في نسخة القصيدة في كتاب «رسائل السياب» لماجد السامرائي: «أنتن أسعد ما يضم الكون...». (م)

29←

غيرها السياب إلى: مقصوص.

30←

حذف السياب البيت هذا والذي يليه.

31←

حذف السياب البيت والأبيات الثلاث التي تليه.

32←

غيّر البيت الى النحو التالي: «الشعر، والعينين والثغر المنضروالجبين»

33←

حذف الشاعر هذا البيت والأبيات الثلاث التي تليه. (م)

34←

المعنية هنا، لم يرد ذكرها في غير هذا الموضع، من هذا الديوان» (ش).

35←

لورد بايرن ـ الشاعر الإنكليزي الشهير، ما اتصل بحسناء إلّا قضى وطره منها، ونبذها بعيداً عن أجواء هواه (ش).

36←

بمعنى أستزيد. (ش)

37←
أعجالهن: عجلاتهن - الهامش للشاعر، وهذا البيت والذي يليه يتمثل فيهما الشاعر الأسطورة الإغريقية.. أسطورة فايتون وعربة الشمس (راجع على سبيل المثال، مسخ الكائنات - أوفيد - ترجمة د. ثروت عكاشة).

38←
نشر السيّاب هذه القصيدة في «أزهار ذابلة»، لأوّل مرّة، ثم عاد لنشرها في «أزهار وأساطير» مع تغييرات نوردها للقارئ في الهوامش التالية. (م)

39←
أضاف الشاعر الحرف «في» في أول الشطر الشعري.

40←
غيّر الفعل من «ترمق» إلى «أرمق».

41←
غيّر الضمير «وهي» بكلمة «رجع».

42←
غيّر كلمة «ظل» إلى «خفق».

43←
غيّر «ظلة» إلى «ظلمة».

44←
طفل الهوى: كيوبيد إله الحب (ش).

45←
نشرت القصيدة في ديوان السياب «طبعة دار العودة»، فصل «قصائد لم تنشر في دواوينه»، وهذا غير صحيح، إذ أنها نشرت في الطبعة الأولى لديوان «أزهار ذابلة»، ص (53). ومن ثم نشرها في «أزهار وأساطير» مع جملة تعديلات أبينها في الهوامش التالية. (م)

46←
حذف الشاعر هذا المقطع كاملاً.

47←
أبدلها بكلمة «منعطف».

48←
أبدلها بكلمة «الطريق»، وأبدل «خاصر» بـ«عتم».

49←

أبدلها ب «الطريق».

50←

أبدل الشطر الثاني بـ«زهراً بلا شجر فلا سقيا».

51←

أبدلها بكلمة «ظمأى».

52←

أبدل البيت كاملاً الى النحو التالي

«وانثال من سهري على سهري ينبوعه المتثائب الرطب».

53←

حذف الشاعر هذا البيت والأبيات الثلاث التي تليه.

54←

غير البيت الى النحو التالي

«يا نوم، بين جوانحي أمل لم أدر، قبلك، أنه أمل». (م)

55←

أبدلها بكلمة «بات».

56←

وردت «سهادها» في طبعة دار «العودة»، والأصل «مهادها» في الطبعة الأولى للديوان (م).

57←

أبدلها بكلمة «رفارفها».

58←

أرّج: أرّج النار، أشعلها. (م)

59←

حذف الشاعر المقطع كاملاً.

60←

غير الشاعر الشطر الأول الى «هو ما نحن اليه، بادلني». (م)

61←

أصبح البيت على هذا النحو: «فإذا لثمت فغير خادعة   باتت لكل مخادع تصبو»

62←

أصبح البيت على النحو التالي: «أفكان سورا قام بينهما   - بين الخيانة والهوى - هدب؟»

63←

حذف السياب المقطع كاملاً.

64←

أصبح الشطر الأول على النحو: «يا جسم طيفك، أنت، يا شبحا»

65←

أبدل «الضجر» بـ«النَّخِرِ». (م)

66←

الغربان. (ش)

67←

الحيّات. (ش)

68←

حذف السياب المقطع كاملاً في ديوان «أزهار وأساطير». (م)

69←

سقي السم. (ش)

70←

الزوراء: بغداد (ش).

71←

عطا الشيء، وإليه: تناوله، أخذه. (م)

72←

الشقيق: الأفيون - (ش)

73←

الفيحاء: البصرة (ش).

74←

من التحية المعهودة: مساء الخير(ش).

75←

هذه القصيدة نشرت أوّلاً في ديوان «أزهار ذابلة» - ص 68، وهي مؤرّخة بتاريخ: بغداد 1946/11/29، ثم أعاد السياب نشرها في ديوان «أزهار وأساطير»، بعد اجراء تعديلات عدة على النص نبينها هنا. (م)

76←

عطشاً. (ش)

77←

حذف السياب المقطع الكامل بين السطر الثامن «هل يكون الحبّ أنّي» إلى السطر الرابع عشر «أو كظل في غدير» (م)

78←

حذف السياب المقطع الكامل بين السطر الخامس عشر «أمس بالأمس التقينا في سفار» إلى السطر الحادي والعشرين «داسه الركب وسارا». (م)

79←

في هذه القصيدة محاولة جديدة، في الشعر المختلف الاوزان والقوافي، وهي كأغلب الشعر الغربي (وخاصة الإنكليزي) تجمع بين بحر من البحور ومجزوآته أي أن التفاعيل ذات النوع الواحد يختلف عددها من بيت إلى آخر. (ش)

80←

حذف السياب المقطع بين «يومك المرموق..» الى «بيننا هل كان حباُ ما أعاني». (م)

81←

حذف السياب المقطع بين «أهي حب كل هاتيك..» ولغاية «بالطلى آنا.. وآنا بالأغاني». (م)

82←

همست صاحبتها في أذنها «لقد أحبك الشاعر»، فقالت «أبهذه السرعة؟ لا أصدق. إنه أثر الخمرة والغناء». (ش)

83←

الشادي: المغني روبسن (ش).

84←

أعاد السّيّاب نشرَ القصيدة في «أزهار وأساطير» مع تغييرات واسعة، ولكثرة التعديل فيها، ابقينا على متنها في الديوانين معاً لئلا نصنع للقارئ ارباكا يفسد متعة القراءة. (م)

85←

بنلوب، زوجة أوديسيوس بطل «الأوديسة» رمز الوفاء والإخلاص، غاب زوجها في الحرب، فحاصرها العاشقون فألهتهم عنها، حتّى عاد. (ش)

86←

شط العرب: من أنهار العراق الجميلة. (ش)

87←

شاعر قروي نابغ، من أصدقاء صاحب الديوان. (ش)

88←

أسيرة الإسكندر المقدوني، أهداها إلى المصوّر «أبيلوس» الّذي جنّ بها حباً، والتلميح هنا إلى قصيدة للشاعر الإنجليزي «جون ليلي» (1554 - 1650) م «من مسرحيته أكامباسبيه»، يذكر فيها أنّ «كامباسب» لاعبت «كيوبيد» الورق وربحت مرجان شفاهه، وورد خديه وغمازتيه وعينيه. (ش)

89←

في الميثولوجيا اليونانية، أنّ هذا النهر «ستكس» يفصل بين عالمنا هذا وعالم الأموات، وشارون ملّاح الزورق الّذي ينقل أرواح الموتى من هذه الصفة إلى تلك.. إلى عالم الأموات. (ش)

90←

السدر، في أجوائنا القروية، رمز الموت والرعب والفناء، يُغرس في المقابر، وتُغسل به أجساد الموتى. وتأوي إليه الجنّ!! (ش)

91←

كانت: «من خلل الزمان» في النسخة المنشورة بديوان «أساطير». (م)

92←

كان الشطر، في طبعة «أساطير»، على هذا النحو: «هذا الغرام. أكادُ أسمع أيها الطيف الغريب». (م)

93←

من قصائد ديوان «أساطير» وكان السياب قد صدّرها بما يلي: «كانت غارقة في نشوة القبلة الأولى واستفاقت منها، لتخبر إن هذا آخر لقاء بينهما، لأنهم يمنعونها أن تخف الى لقائه»، وحين أعاد نشرها في «أزهار وأساطير» حذف التصدير. (م)

94←

أبدل السياب ترتيب هذا البيت بالبيت السابق له. (م)

95←

الذهب. (ش)

96←

السدى: الخيوط الاصيلة في النسيج «العمودية». (ش)

97←

جمع مدية وهي السكين. (ش)

98←

كان ترتيب هذا المقطع هو الرابع في القصيدة، لكن الشاعر قدّمه الى الثالث في ديوان «أزهار وأساطير» وحذف ثلاثة أبيات وردت قبل هذا البيت في نسخة ديوان «أساطير»، والأبيات هي:

«اتبعيني!

أمسي الخالي هوى في لجة الغيم العميق

يشرب الظلمة في القاع السجين

يشرب الظلمة من ليل غريق». (م)

99←

حذف السيّاب، بعد هذا البيت، خمسة أسطر وردت في نسخة ديوان «أساطير»، هي:

«قطعت دقاتها الخوف انتظاري.

أي إعصار من الأشباح فيها، ساق روحي

بين أطلال الدجى، خلف النهار!

دقّت الساعة في الصمت الجريح

فتلفّت وناديت: اتبعيني». (م)

100←

حذف الشاعر، بعد هذا البيت، مقطعاً كاملاً كان قد ورد في نسخة ديوان «أساطير»، والمقطع هو:

«يا موت خل يدي على الأوتار ترعشها رثاءا

لحناً يقطعه سعالي ثم يصبغه دماءا

حتى ابث القشعريرة والبرودة في الهلال

فيضل يرجف والنجوم، كأن ملء الجو ماءا». (م)

101←

كان النشر الأوّل لهذه القصيدة في مجلة «البيان» العراقيّة، العدد (63) 21 نيسان 1949، ثم نشرها في ديوان «أساطير» ثم في «أزهار وأساطير». النص المنشور في مجلة «البيان» صدّره السيّاب بأربعة أبيات من شعر لميعة عبّاس عمارة، والأبيات هي:

وها أنا ألقاك لكنني عرفتك بعد فوات الأوان

طوى الشك عن ناظريك الهوى وجمّد قلبك غدر الحسان

أتيتك ظمأى فواحسرتي لقد خلت الكاس من خمرها

سقيت ترابا ولم تدخر لروحي الشقيّة من سحرها «هي»

وبعد نشر القصيدة في ديوان «أساطير» قام السيّاب بنثر هذه الأبيات وجعلها تتصدر قصيدته، ثم عمد لحذف التصدير نهائياً حين نشر القصيدة في ديوان «أزهار وأساطير» فلم تبق الأبيات، ولا الأسطر المنثورة. (م)

102←

حذف السيّاب هذا المقطع لاحقاً حين نشر القصيدة في ديوان «أساطير» ثم «أزهار وأساطير». (م)

103←

نشر السياب هذه القصيدة أولاً في ديوان «أزهار ذابلة» وأعاد نشرها في هذا الديوان بعد تغييرات عديدة، ولكثرة التعديل فيها، ابقينا على متنها في الديوانين معاً لئلا نصنع للقارئ ارباكا يفسد متعة القراءة. (م)

104←

نشرت القصيدة، لأوّل مرّة، في مجلة «البيان»، العدد (44) 1 نيسان 1948، ثم نشرها السيّاب في ديوان «أزهار وأساطير» مع جملة من التعديلات نبيّنها في الهوامش التالية. (م)

105←

كانت «عديمة» في النص المنشور في المجلة. (م)

106←

كان البيت، في النسخة المنشورة في المجلة، على النحو التالي: «معبودتي لا تتركي لغدي تعكير يومي ما يكون غدي؟». (م)

107←

كان الشطر الثاني على هذا النحو: «فلتزخر الأيام بالنكد». (م)

108←

كان الشطر الثاني على هذا النحو: «إلا الشقاء يدب في الجسد». (م)

109←

أبدل السياب ترتيب البيتين الأخيرين وغيّر كلمة «نظرة» إلى «ومضة». (م)

110←

من قصائد «أساطير»، أعاد السياب نشرها في هذا الديوان مع تغيير نبيّنه في الهامش اللاحق. (م)

111←

كانت «المساء» في نسخة ديوان «اساطير».

112←

من قصائد «اساطير»، أعاد السياب نشرها في «أزهار وأساطير» مع تغيير واحد نبينه في الهامش التالي. (م)

113←

كانت «في عيونه» في نسخة «أساطير».

114←

قطعة موسيقيّة، للموسيقار الروسي «ريمسكي كورساكوف». (ش)

115←

من قصائد «أساطير»، وكان السيّاب قد أعاد نشرها في «أزهار وأساطير» مع تغييرات بسيطة نوردها في هوامش لاحقة. (م)

116←

كانت: «اللهب»، في نسخة ديوان «أساطير». (م)

117←

الأسطوانة. (ش)

118←

كانت: «مع العدم» في نسخة ديوان «أساطير». (م)

119←

كان البيت، في نسخة ديوان «أساطير»، على النحو التالي: «لي صورة تلك الحسناء». (م)

120←

كانت: «تتماوج». (م)

121←

كان البيت، في نسخة «أساطير»، على هذا النحو: «الغادة مثل العشاق». (م)

122←

من قصائد ديوان «أساطير» التي غيّر فيها السياب حين أعاد نشرها في «أزهار ذابلة»، وسنبين التغيير في هوامش مرفقة. (م)

123←

كانت في طبعة ديوان «أساطير»: «كمن ينشر». (م)

124←

الشاعر الإنكليزي «جون كيتس»، مات مسلولاً في الخامسة والعشرين من عمره، وآخر ما كتبه قصيدته الّتي يخاطب بها كوكباً في السماء. (ش)

125←

كانت في طبعة ديوان «أساطير»: «الأعين الساهرة». (م)

126←

حذف الشاعر، بعد هذا السطر، بيتاً كان موجوداً في نسخة ديوان «اساطير» والبيت هو: «أهواك والتفت ذراعي والنجوم الشاحبات». (م)

127←

كانت «لهيب السماء» في نسخة «ديوان اساطير». (م)

128←

كانت «وجهك» في نسخة «ديوان اساطير». (م)

129←

كانت: «أغفى» في طبعة ديوان «أساطير». (م)

130←

حذف السيّاب بعد هذا البيت ما يلي: «كاهتزاز النجوم تحت المجاديف إذا الزورق اختفى بالغريب!». (م)

131←

كانت الكلمة، في نسخة «أساطير»: يهمّ. (م)

132←

أعاد السّيّاب نشر هذه القصيدة في «أزهار وأساطير» بعد أن كان نشرها، لأوّل مرة، في «أزهار ذابلة» مع أجراء تعديلات كثيرة بيناها سابقاً. (م)

133←

حذف السياب بعد هذا السطر، مقطعين كاملين، نوردهما هنا:

«وحدي والوان السحاب يلصّها النجم البعيد

وحدي! سأضحك من أساي، ويشرق الصبح الوليد

الحب! ماذا تهمسين؟؟ فليسَ يلتهب الجليد!

* * *

شهران - سوف تمر أيّامي وانسجها ستارا

هيهات تحرقه شفاهك وهي تستعر استعارا

لا تلمسيه فانت ظل ليس يخترق القرارا». (م)

134←
واضح أن هذا المقطع هو ذات المقطع الذي حذفه السيّاب وقد بيّناه في الهامش السابق، وقد غيّر السيّاب في مطلع البيت الأول. (م)

135←
القصيدة نشرت في «أزهار ذابلة»، ويمكن ملاحظة تعديلات الشاعر في الهوامش التي أرفقناها. (م)

136←
وردت القصيدة أولاً في «أزهار ذابلة» وأعاد نشرها الشاعر مع تغييرات نبينها في الهوامش التالية. (م)

137←
كان البيت في النص القديم: «لاقتافت البسمات، في عينيَّ، آثار الدموع».

138←
كانت في النص القديم: «السجواء».

139←
حذف الشاعر بعد هذا البيت ما يلي: «حدثت عنه النجم، والآهات يقطعن الخرير/ والنجم يشكو، مثلما تشكو هواك، إلى الأثير».

140←
كانت «محترق الجناح».

141←
حذف الشاعر بعد هذا البيت ما يلي: «وانساب في الوادي شتات الزارعين أو الرعاه/ فالجوّ تنبض في نسائمه الندية ألف آه».

142←
حذف الشاعر بعد هذا البيت الأبيات التالية: «يا نهر (جيكور) الجميل، ومنتهى شكواك نور

لا الشمس مطفئة جواي، ولا الكواكب والبدور

لا الصبح يوهن لاعجات الليل والوجد المثار

في مقلتيَّ، ولا يهيض الليل أحقاد النهار». (م)

143←
كان الشطر على هذا النحو: «الشعر والعينان.. والثغر المفلج.. والجبين». (م)

144←
حذف الشاعر بعد هذا البيت الأبيات التالية: «والجوسق المستوحد، المهجور، في غاب النخيل

تأوي إليه الغادة السمراء لاهبة الغليل

والدوحة اللفاء تحتبس البرودة في الظلال

مهد لأطفال الحقول، وملعب رحب المجال

سارت إليك بطيئة الخطوات، ذابلة الشفاه

جاءتك ظمأى.. بالبنان الرخص تغترف المياه». (م)

145←
الشاعر الفرنسي، ألفريد دوموسيه، صاحب ديوان الليالي و«فينيس» - البندقية - المكان الّذي فرّ إليه الشاعر وحبيبته الكاتبة الشهيرة «جورج صاند» والبيتان التاليان لهذا البيت مقتبسان من موسيه، قال: «دعي ساعة البرج، في قصر الدوج، تعد عليه لياليه المسنمات واتركينا نعد القبلات على ثغرك العاصي!» - (ش)

146←
الآل: السراب - (ش)

147←
مجنون ليلى - (ش)

148←
إشارة إلى قول «المجنون» مخاطباً زوج ليلى:

«بربك هل ضممت إليك ليلى

قبيل الصبح أو قبّلت فاها؟» (ش)

149←
النضار- الذهب - (ش)

150←
وجدتها في طبعة ديوان «أساطير»: «عصفت بي الذكرى». (م)

151←
السائب: الكلب، الرقطاء: الحيّة - (ش).

152←
من الوخط وهو الممازجة أو العلامة. (م)

153←

«الأرض الخراب»: عنوان قصيدة للشاعر الإنكليزي الرجعي ت. س. إيليوت - (ش).

154←

هكذا أصبح اسم الشاعر العاشق «عروة بن حزام» عند العامة الذين يروون قصة حبّه لعفراء وموته ويرددون معاني قصيدته، بشعر عامي. (ش)

155←

كلمة إشفاق في اللهجة العراقية (والكويتية) الدارجة. (ش)

156←

بويب: نهر في قرية الشاعر. (ش)

157←

«جيكور» قرية الشاعر في جنوب العراق.

158←

كان كهنة إيزيس ينطلقون، في منتصف ليلة 25/12 من كلّ عام، هاتفين في شوارع الاسكندرية: «لقد وضعت العذراء حملها وقد ولدت الشمس». (ش)

159←

نشرت في مجلة «الآداب»، عدد (آيار) 1956، ولاحقاً في ديوان «أنشودة المطر» طبعة مجلة «شعر» 1960 بعد حذف أبيات منها، وننشر في طبعتنا الجديدة النص الكامل للقصيدة. وكانت المجلة قد صدّرت القصيدة بما يلي: «محاولة لكتابة الشعر بأسلوب جديد.. محاولة تطرحها «الآداب» على القراء، وتطلب فيها آراءهم». (م)

160←

من هذا البيت يبدأ المقطع المحذوف في طبعة مجلة «شعر» لديوان «أنشودة المطر» ويستمر لثلاثة وعشرين سطراً، وينتهي الحذف بعد البيت التالي: «والليل الراكد، بالخضر». (م)

161←

نشرت القصيدة في مجلة «الآداب» عدد تشرين الأول 1954، وقد صدرّها الشاعر بالآية القرآنية «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا»، ونعتمد هنا نص المجلة مع تبيين تعديل أجراه الشاعر لاحقاً. (م)

162←

حذف السيّاب هذا البيت والأبيات الخمسة التالية، أي المقطع كاملاً، حين أعاد نشر القصيدة في ديوان «أنشودة المطر». (م)

163←

نشرت القصيدة في مجلة «الآداب» عدد تموز 1954. (م)

164←

عندما أعاد الشاعر نشر القصيدة في ديوان «أنشودة المطر» حذف هذا البيت والأبيات الثلاث التالية، أي المقطع كاملاً. (م)

165←

نشرت القصيدة في مجلة «الآداب»، عدد شباط 1955، وقد صدّرها الشاعر بما يلي: «مقطع من قصيدة رؤيا فوكاي»، ويبدو أنه كان يعدّها لتكون جزءاً من القصيدة المذكورة قبل أن يعدل عن ذلك ويجعلها قصيدةً مستقلة. (م)

166←

لم توضع الأبيات المضمنة بين أقواس، وإنّما اكتفي بالإشارة إليها. (ش)

167←

كرب «Krupp» صاحب معامل الأسلحة الألمانية الشهيرة. (ش)

168←

الأميبى: حيوان ذو حجيرة واحدة، وهو خالد لا يموت لانعدام شخصيته. (ش)

169←

«ميدوز» هي إلهة في أساطير الإغريق تحيل من تلتقي عينه بعينيها إلى صخر. (ش)

170←

جرّدت من الفحم والفولاذ شخصين لإلهين من الأرباب الجدد، أتباع زيوس الجديد -الذهب - وعاملتهما كاسمي علم، ومنعتهما من الصرف. (ش)

171←

تحدثنا إحدى الأساطير الصينية عن ملك أراد ناقوساً ضخماً يُصنع من الذهب، والحديد، والفضة، والنحاس. وكلّف أحد الحكام بصنعه. ولكن المعادن المختلفة أبت أن تتّحد واستشارت كونغاي - وهي ابنة ذلك الحاكم - العرافين بالأمر فأنبأوها بأن المعادن لن تتحد ما لم تمتزج بدماء فتاة عذراء... وهكذا ألقت كونغاي بنفسها في القِدر الضخمة الّتي تصهر فيها المعادن... فكان الناقوس... وظل صدى كونغاي يتردد منه كلما دق: «هياي.. كونغاي، كونغاي». (ش)

172←

شكسبير -العاصفة: أغنية «أريل» - روح الهواء الّذي سخّره «بروسبيرو» الساحر - لفرديناند: «على عمق أذرعة خمس ينام أبوك في قرارة البحر، لقد أصبحت عيناه لؤلؤتين... اسمع ها هو الناقوس ينعاه» وقد اتخذه ت. س. إليوت في قصيدته الكبرى «الأرض الخراب» رمزاً عن «الحياة من خلال الموت» ولكن لاحظ كيف حوّلت «يبيعه التجار» المعنى! (ش)

173←

حُذف هذا البيت والأبيات الخمسة التالية حين أُعيد نشر القصيدة في ديوان «أنشودة المطر». (م)

174←
إن ثلثي تركيب الماء من الهيدروجين... كما أن قنبلة مبيدة تصنع من هذا الغاز ذاته! (ش)

175←
هذا البيت مقتبس من قصيدة للشاعر الإسباني القتيل «لوركا». شاعر الغجر. (ش)

176←
هذا البيت والأبيات الستة الّتي تليه - تكاد تكون حرفية - عن الشاعرة الإنكليزية إيديث ستويل من قصيدتها الرائعة ترنيمة السرير Lullaby حيث تجلس البابيون - القردة - في قاع المحيط تهزّ مهد طفل بشري - قتل «طائر الحديد» أمّه - وتغني له مصبحة بهذا - وهي القردة - أُمّا للطفل البشري ومعلمة له أيضاً. (ش)

وليلاحظ قرّاء قصيدتي هذه أنّ هناك شخوصاً ثلاثة تترابط في ذهني: الصياد الياباني - أو الصيني - الغريق الّذي أخاطب ابنته، وأبو «فرديناند» - الّذي زعم أريل أنّه غرق - والقردة «البابيون» الّتي اتخذت مكان أمّ الطفل في قرارة المحيط كما جاء في قصيدة إيديث ستويل. (ش)

177←
القديس يوحنا - كما يسميه المسيحيون. (ش)

178←
المتحدث في هذه القصيدة مريض في مستشفى الصليب الأحمر في هيروشيما، مصاب بالزهري الّذي افترس دماغه حتّى عاد يتخيل أشياء لا وجود لها، ولكنه - خلال أوهامه ودون وعي منه - يصور جانباً مما حدث في هيروشيما حين أُلقيت عليها القنبلة. (ش)

179←
تموز هو أدونيس إله الخصب والنماء، وحبيب عشتروت - أو فينوس - إلهة الحب. وهو يقضي نصفاً من السنة - الشتاء - في العالم السفلي مع برسفون، والنصف الآخر - الصيف أو الربيع - على الأرض مع فينوس. (ش)

180←
اليراعة؛ ذبابة مضيئة، حباحب. (ش)

181←
الدكتور سازاكي كان طبيباً في مستشفى الصليب الأحمر في مدينة هيروشيما. (ش)

182←
الأطلس: الذئب. (ش)

183←

عنقاء طويلة العنق. (ش)

184←
الزرافات جمع زرافة، الحيوان المعروف. (ش)

185←
«جنكيز خان» السفاح المشهور. (ش)

186←
نشرت القصيدة في مجلة «الآداب» عدد تموز 1956، ونشرت لاحقا في ديوان «أنشودة المطر» مع تغيير نأتي على تبيينه. (م)

187←
حين أعيد نشر القصيدة في ديوان «أنشودة المطر»، تم حذف الابيات الأربع الأخيرة التي تشكل خاتمة القصيدة ووضع مكانها الابيات التالية: «النار تركض كالخيول وراءنا. أهمُ المغولُ

على ظهور الصافنات؟ وهل سألتَ الغابرينَ

أروّضوا أمسِ الخيول؟

أم نحن بدء الناس: كلّ تراثنا أنصاب طين؟». (م)

188←
برج «إيفل» في باريس. (ش)

189←
نشرت القصيدة في مجلة «الآداب»، عدد أيلول 1956 بعنوان «رسالة من قبر». (م)

190←
الجلجلة: الجبل الّذي حمل المسيح صليبه إلى قمته. (ش)

191←
نشرها السيّاب في مجلة «الآداب»، عدد آذار 1956، وقد صدّرها وقتها بالإهداء التالي: «إلى المجاهد العربي الكبير مصالي الحاج». (م)

192←
جيكور، قرية الشاعر في جنوب البصرة.

193←
من التقاليد المتّبعة في الريف العراقي أن يبرز العريس في ليلة العرس منديلاً ملطّخاً بالدماء يشهد على أنّ العروس عذراء! (ش)

194←

هرقل الجبار: خنق الموت وذلل الأسود الكاسرة. (ش)

195←

يغني الخورس أغنيتين عراقيتين شعبيّتين: (شيخ اسم الله) نبات كالحلفاء تؤكل أزهاره وهي في براعمها، وتتفتح عن سنابل تشبه الرؤوس الّتي شابت. (ش)

196←

هومير: الشاعر الإغريقي الأعمى. (ش)

197←

الشمر: قاتل الحسين، وتصوره القصص مرتدياً ثياباً حمر اللون. (ش)

198←

أبو زيد الهلالي. (ش)

199←

قال المعري: «والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد». (ش)

200←

واضح أنّ «الزمان» و«الحوادث» جريدتان. (ش)

201←

كان المسيح، في عهده، هو الّذي مشى على الماء. (ش)

202←

... وبزغ كوكب عرف منه المجوس أنّ المخلّص قد وُلد. (ش)

203←

وألبسوا المسيح تاجاً من الشوك... سخرية به. (ش)

204←

حراء، الغار الّذي هبط فيه الوحي على النبي محمّد. حين هاجر النبي إلى المدينة اختبأ ـ والمشركون جادو في أثره ـ في غار حاكت العنكبوت بيتها على بابه فبدا مهجوراً ولم يهتدِ المشركون إلى مخبأ محمّد. (ش)

205←

... وأحال المسيح الماء إلى خمر فشرب الحاضرون. (ش)

206←

اقرأ مذكراتي «كنت شيوعياً» المنشورة في جريدة الحرية العراقية. (ش)

207←

نشرت القصيدة بعنوان «نبوءة في عام...» في جريدة «الحرية» العراقية، ثم نشرت ثانية في مجلة «الآداب» اللبنانية عدد حزيران 1960، وعندما نشرت ضمن قصائد «أنشودة المطر» تم حذف مقطع كامل من القصيدة كان موجودا في نص «الحرية» و«الآداب»، ونعتمد هنا النص الأصلي الكامل بلا حذف أو تعديل. (م)

208←

«غنيميد» راعٍ يوناني شاب وقع زيوس كبير آلهة الأولمب الإغريقي في حبه، فأرسل صقراً اختطفه وطار به إليه. (ش)

209←

«أتيس» يقابل تموز الإله البابلي عند سكان آسيا الصغرى والقدماء. يحتفل بعيده في الربيع، حيث يربط تمثاله على ساق شجرة. وحين تبلغ الحمية أوجها عند أتباعه وعابديه، يجرحون أنفسهم بالسيوف والمدى حتّى تسيل دماؤهم قرباناً دلالة الخصب. (ش)

210←

في الأساطير البابلية إنّ دم «تموز» القتيل أصبح شقائق. (ش)

211←

إلهة الخصب والحب عند البابليين وهي حبيبة «تموز». (ش)

212←

«حفصة» إحدى شهيدات مذبحة الموصل. (ش)

213←

حُذف المقطع السادس كاملاً من القصيدة حين نشرت في ديوان «أنشودة المطر» طبعة مجلة شعر (1960). (م)

214←

«العازر» الميت الّذي أحياه المسيح من قبره. و«شخنوب» هو عامل السمنت الّذي استأجره الفوضويون، فتظاهر بالموت وحملوه في النعش تشهيراً بالجيش «الّذي يقتل العمال» كما قالوا، ثمّ قام ماشياً حين سقط النعش. (ش)

215←

نشرت القصيدة في العدد السادس عشر من مجلة «شعر» خريف 1960 صفحة 56، وقد نشرها الشاعر بعنوان «جيكور المبغى» وورد فيها اسم «جيكور» وهي قرية الشاعر محل «بغداد» في المواضع كلها، ولا نعرف إن كان الشاعر يقصد «بغداد» آنذاك، فقد غيّر فعلاً كلمة «جيكور» إلى «بغداد» في النص المنشور ضمن ديوان «انشودة المطر». لاحقاً أخبرني السيّد غيلان السياب أن تغيير اسم بغداد وقتها جاء لأسباب رقابية على الأرجح. (م)

216←
كتبت في العهد المباد قبل ثورة سنة 1958. (ش)

217←
الجواد الذي أسرى عليه النبي محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ليلة معراجه. (ش)

218←
نشرت في مجلة «الآداب»، عدد حزيران 1954، وقد صدّرها الشاعر وقتها بما يلي: «من أيام الضياع في الكويت، على الخليج العربي». (م)

219←
الكلب الّذي يحرس مملكة الموت، في الأساطير اليونانية، حيث يقوم عرش «برسفون» آلهة الربيع بعد أن اختطفها إله الموت وقد صوره دانتي في «الكوميديا الإلهية» حارساً ومعذباً للأرواح الخاطئة. (ش)

220←
نشرت في مجلة «الآداب»، عدد حزيران 1958 بتصدير «أغنية بابليّة»، مع شرح لرموز القصيدة كتبه الشاعر نورده هنا:

«تموز: إله الخصب عند البابليين. صرعه خنزير بريّ. ولكنه ينبعث كل عام»

«فتنبعث معه الحياة بعد هجعة الشتاء. وحدائق تموز: اصص وجرار فخاريّة»

«عشتار - إلهة الحب والخصب.. وهي حبيبة تموز، تعود إلى الأرض بعودته». (م)

221←
نشرت القصيدة في مجلة «الفنون العراقية»، في كانون الأول 1956، ونشرت لاحقا في ديوان «انشودة المطر» مع حذف بيت واحد هو:

«يا أمة تصنع الأقدار من دمها   لا تيأسي ان «عبد الناصر» القدر (م)

222←
أُجبر الفيلسوف الإغريقي سقراط على تجرّع كأس من السمّ. (ش)

223←
في الأساطير اليونانية أنّ عيون ميدوزا تحوّل كلّ من تلتقي بهما عيناه إلى حجر. (ش)

224←
في القرآن الكريم أنّ الغراب هو الّذي أرشد قابيل كيف يدفن أخاه بعد أن قتله. (ش)

225←

تزوج «أوديب» أمّه «جوكست» وهو لا يدري بأنّها أمه. وطيبة هي المدينة الّتي دخلها بعد أن قتل أباه ملك طيبة، فتزوج أمّه، زوجة الملك القتيل. وكان «أبو الهول» يحرس مدخل المدينة ويلقي على كلّ غريب يداخلها سؤالاً: «ما الكائن الّذي يمشي على أربع في الفجر واثنتين في الظهيرة وثلاث في المساء» وقد حلّ أوديب هذا اللغز وكان الجواب: «الإنسان». (ش)

226←
نسبة إلى أبي العلاء المعري، الأعمى والقائل: «ما أظن أديم الأرض إلّا من هذه الأجساد» و«هذا جناه أبي عليّ...». (ش)

227←
حذف السيّاب بعد هذا البيت بيتان شعريان كانا قد وردا في نص القصيدة المنشور في مجلة الثقافة الجديدة، العدد الثاني، كانون الثاني 1953، والبيتان هما: «ذات الطلاء هنا وثمة، حينما حفر اللعاب/ أثرا، كما انطبع السقيط من النقود على التراب». (م)

228←
في أساطير الإغريق أنّ «أفروديت» ولدت من زبد البحر ونزلت محمولة على صدفة محار. (ش)

229←
تراهن الله والشيطان على فاوست، وزعم الشيطان أنّه يستطيع شراءه روحاً وجسداً... وقبل فاوست بأن يبيع نفسه فوضع الشيطان نفسه في خدمته لقاء ذلك. فردّ عليه الشباب ووهبه اللآلئ والمال وأراه شبح هيلين الإغريقية. (ش)

230←
وفي النهاية لم يحصل الشيطان إلّا على جسد فاوست، بينما صعدت روحه إلى السماء. (ش)

231←
البيت من «فاوست» لغوته، يقول الشيطان لفاوست حين كان يزور مرغريت «الّتي غرّر بها وقتل أخاها وولدت طفلاً فقتلته» وهي في سجنها. (ش)

232←
كانت «دفني» ابنة إله صغير، إله أحد الأنهار وقد رآها «أبولو» إله الشمس الجبار فأحبها وطاردها محاولاً اغتصابها. وقد استنجدت بأبيها فرشّها بحفنة من الماء وأحالها إلى شجرة غار تضفر من أغصانها الأكاليل للأبطال. أمّا سهام التبر، الذهب، فهي السهام الّتي كان كيوبيد يرشق بها قلب أبولو ليلهب الحبّ فيه وقد استعرناها رمزاً لسطوة المال. (ش)

233←
قصة يأجوج ومأجوج يعرفها كلّ من قرأ القرآن الكريم، ولكن الأساطير الشعبية تضيف إليها أنّهما يلحسان السور بلسانيهما كلّ يوم حتّى يصبح في رقّة قشرة البصل، ويدركهما التعب فيقولان: «غداً سنتمّ العمل» وفي الغد

يجدان السور على عهده من القوة والمتانة.. وهكذا. حتّى يولد لهما طفل يسميانه «إنْ شاء االله» فيحطم السور. (ش)

234←

أغنية شعبية «سليمة يا سليمة. نامت عيون الناس. كلبي (قلبي) ش يُنيمه؟». (ش)

235←

ضاع مفهوم القومية عندنا بين الشعوبيين والشوفينيين. يجب أن تكون القومية شعبية، والشعبية قومية. يجب جعل أحفاد محمد وعمر وعلي وأبي ذر والخوارج والشيعة الأوائل والمعتزلة يعيشون عيشة تليق بهم كبشر وكورثة لأمجاد الأمّة العربية. (ش)

236←

كان هذا البيت، في نص القصيدة الأوّل، على هذا النحو: «من أدعياء الانكليز إلى صعاليك الهنود». (م)

237←

حذف السيّاب بعد هذا البيت بيتان شعريان كانا قد وردا في نص القصيدة المنشور في كرّاس مستقل عام 1954، والبيتان هما: «تستوهبين العابرين/ فلساً لوجه الله، لا مائة لوجهك أو مئين». (م)

238←

تدفع البغايا للسمسارات أجراً ليلياً عن المصابيح في غرفاتهن قدره ربع دينار لكل مصباح!. (ش)

239←

اللبن الممزوج دماً. (ش)

240←

شكسبير: روميو وجوليت. (ش)

241←

حذف هذا البيت في نسخة القصيدة طبعة «مجلة شعر»، وأبدلت كلمة «يحيلون» في البيت التالي بـ «ويرتد». (م)

242←

إيدث سيتويل في قصيدتها أمٌّ ترثي طفلها: «إنّ الأرض عجوز شاخت حتّى لا تعلم بأن الصغار حركون كظلال الربيع». (ش)

243←

وردت «الدون»، وهو نهرٌ روسي في طبعة دار «العودة» وكرّاس مطبعة «الرابطة»، بينما وردت في طبعة مجلة «شعر» (الكنج) وهو نهرٌ هنديّ. (م)

244←

حُذِفَ هذا البيت، والبيتين التاليين له في طبعة مجلة «شعر». (م)

245←
آفون: نهر في بريطانيا، يمرُّ بقرية شكسبير. (ش)

246←
مكبث: بطل إحدى مسرحيات شكسبير وقد قتل «دنكان» وهو نائم في ضيافته مطمئن اليه: «لقد قتل مكبث النعاس، النعاس البريء» شكسبير. (ش).

247←
روبسبيير: بطل الثورة الفرنسية وإلوار: الشاعر الفرنسي الحر العظيم. (ش).

248←
الرباط: مدينة في مراكش. (ش)

249←
فينيس: مدينة البندقيّة بإيطاليا. (ش)

250←
حذف هذا المقطع كاملاً من «سلامٌ على المسيسبي الكبير»إلى «تبيد الملايين في ثانيه» في طبعة مجلة «شعر» عام 1960.

251←
حذف هذا البيت والبيتين التاليين له في طبعة مجلة «شعر» (1960). (م)

252←
هو لوديسيوس بطل «الأوديسة». (ش)

253←
حذف السيّاب نصف البيت الشعري هذا وثلاثة ابيات تليه، وقد وجدتُ النص المحذوف في رسالة أرسلها الشاعر الى يوسف الخال بتاريخ 10 نيسان 1961، والأبيات المحذوفة هي: «فلم تفتحي. آه لو تفتحين/ ولو كنت، من رحمة، تنظرين/ وهيهات أن تنظري والتراب/ مهيل على مقلتيك». (م)

254←
نشرت القصيدة في مجلة «الأديب» عدد (تشرين الأول) 1961، ثمَّ نشرت لاحقاً في ديوان «المعبد الغريق» 1962، بعد حذف مقطعين منها، وننشرُ هنا النص الكامل مع توضيح تعديلات الشاعر. (م)

255←
حذف السيّاب هذا البيت والأبيات الخمسة التي تليه، بمعنى حذف المقطع كاملاً. (م)

256←
حذف السيّاب هذا البيت والبيت الأبيات الست التالية له، أي حذف المقطع كاملاً. (م)

257←
البيت لي وليس مضمناً. (ش)

258←
ابنة آلهة الخصب اليونانيّة، اختطفها «بلوتو» سيد العالم السفلي، عالم الموتى، فصارت تعيش معه هناك. (ش)

259←
أحرقت أم أخيل، حورية البحر، طفلها أخيل لتحصنه ضد الموت.. إلا كعب رجله. (ش)

260←
موسيقار يوناني ماتت زوجته «يوريدس» ليلة زفافها فتبعها إلى الجحيم، مستعيناً، على دخوله موسيقاه. (ش)

261←
بحيرة في «الملايو» غرق المعبد إلى قرارتها. (ش)

262←
الأمراس: الحبال. (ش)

263←
احدى شهيدات الموصل (العراق). (ش)

264←
سمك القرش، كلاب البحر. (ش)

265←
أحد أبطال المد الفوضوي في العراق... ينزل السجن الآن محكوماً عن سبع جرائم. (ش)

266←
النهر المؤدي إلى بحيرة شيني. (ش)

267←
هي غطاءُ شفاف يستخدمه الناس ضدّ الحشرات عند نومهم على سطوح المنازل. (م)

268←
الغار الَّذي نزل الوحي فيه على محمد. (ش)

269←

غانيميد: الشاب اليوناني الَّذي أرسل إليه زيوس (كبير الآلهة) نسراً فاختطفه وأصبح ساقياً للآلهة. (ش)

270←

الكواسج: جمع (كوسج)، أسماك القرش باللهجة العراقيّة. (م)

271←

الجزيرة الّتي اتخذت الشاعرة الأغريقية «سافو» هيكلاً لها فيها. (ش)

272←

عشق نرسيس ظله. وتنتلوس جائع أبداً يقترب من فمه غصن مثقل بالثمار، حتَّى إذا كاد يأكل أبعدت الريح الغصن عن فمه. (ش)

273←

نشرت القصيدة في مجلة «الآداب»، عدد حزيران 1962، وقد صدّرها الشاعر بهذه الكلمات: «يسرني أن يعود الولد الضال إلى بيته، وأن أعود إلى «الآداب» التي على صفحاتها متنفسي الطبيعي الذي أعاهد أن يدوم أبداً»، وهي كلمات تشير إلى العلاقة المتباينة التي جمعته مع مجلتي «الآداب» و«شعر». (م)

274←

وردت في طبعة دار العودة: ناعورة. (م)